http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

كذلك يقول سبحانه هنا : { وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرازقين } [الحج : 58] فأثبت لخَلْقه أيضاً صفة الرزق ، من حيث هم سَبَب فيه ، لأن الرزق : هو كل ما ينتفع به حتى الحرام يُعَدُّ رزقاً؛ لذلك قال تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . } [البقرة : 172] .
نقول : فالعبد سبب في الرزق؛ لأن الله تعالى هو خالق الرزق أولاً ، ثم أعطاك إياه تنتفع به وتعمل فيه ، وتعطي منه للغير ، فالرزق منك مناولة عن الرازق الأول سبحانه ، فأنت بهذا المعنى رازق وإنْ كرهوا أنْ يُسمَّي الإنسان رازقاً ، رغم قوله تعالى : { وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرازقين } [الحج : 58] لماذا؟ قالوا : حتى لا يفهم أن الرزق من الناس .
لذلك نسمع كثيراً من العمال البسطاء ، أو موظفاً صغيراً ، أو بواب عمارة مثلاً حين يفصله صاحب العمل ، يقول له : يا سيدي الأرزاق بيد الله . كيف وقد كنت تأخذ راتبك من يده ومن ماله؟ قالوا : لأنه نظر إلى المناوِل الأول للرزق ، ولم ينظر إلى المناوِل الثاني .
أما الرزق الحسن الذي أعدَّه الله للذين هاجروا في سبيله ، فيوضحه سبحانه في قوله : { لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ . . }

.

لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59)

لأن الرزق قد يكون حسناً لكنه لا يُرضِي صاحبه ، أما رزق الله لهؤلاء فقد بلغ رضاهم ، والرضا : هو اقتناع النفس بشيء تجد فيه متعة ، بحيث لا تستشرف إلى أعلى منه ، ولا تبغي أكثر من ذلك .
لذلك بعد أنْ ينعَم أهل الجنة بنعيمها ، مِمَّا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، بعدها يتجلَّى الحق – سبحانه – عليهم فيقول لعباده المؤمنين : يا عبادي أرضيتم؟ فيقولون : وكيف لا نرضى وقد أعطيْتنا ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين؟ قال : ألا أعطيكم أفضل من هذا؟ قالوا : وهل شيء أفضل مما نحن فيه؟ قال : نعم ، أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

ومن ذلك قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى } [الضحى : 5] .

وقوله تعالى : { يأيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً } [الفجر : 27 – 28] .

يبالغ في الرضا ، حيث يتعداك الرضا إلى أن تكون عيشتك نفسها راضية ، وكأنها تعشقك هي ، وترضى بك .

ثم يقول سبحانه : { وَإِنَّ الله لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ } [الحج : 59] .

عليم : بما يستحقه كل إنسان عند الحساب من النعيم ، ثم يزيد مَنْ يشاء من فضله ، فليس حساب ربك في الآخرة كحسابكم في الدنيا ، إنما حسابُه تعالى بالفضل لا بالعدل .

وحليم : يحلم على العبد إنْ أساء ، ويتجاوز للصالحين عن الهَفَوات ، فإنْ خالط عملك الصالح سوء ، وإنْ خالفت منهج الله في غفلة أو هفوة ، فلا تجعل هذا يعكر صفو علاقتك بربك أو يُنغِّص عليك طمأنينة حياتك؛ لأن ربك حليم سيتجاوز عن مثل هذا على حَدِّ قولهم (حبيبك يبلع لك الزلط) .

لذلك « لما وَشَى أحد المؤمنين للكفار في فتح مكة ، وهَمَّ عمر أن يقتله فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم » .

ويكفي أنهم خرجوا بأنفسهم واقتحموا معركة غير متكافئة في العدد والعُدَّة ، ألا نذكر لهم هذا الموقف؟ ألم يقل الحق سبحانه : { إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات . . } [هود : 114] ومَنِ ابتُلِي بشيء يضعف أمامه ، فليكن قوياً فيما يقدر عليه ، وإنْ غلبك الشيطان في باب من أبواب الشر فشمِّر له أنت في أبواب الخير ، فإن هذا يُعوِّض ذاك .

ثم يقول الحق سبحانه : { ذلك وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ . . } .

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60)

{ ذلك } [الحج : 60] يعني : هذا الأمر الذي تحدثنا فيه قد استقر ، وإليك هذا الكلام الجديد { وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ . . } [الحج : 60] .

الحق – سبحانه وتعالى – خلق الإنسان وجعل فيه ملكات مختلفة ليؤدي خلافته في الأرض بحركات متوازنة ، فخلق لنا عواطف وجعل لها مهمة ، هذه العواطف لا يحكمها قانون . وخلق لنا أيضاً غرائز ولها مهمة ، لكن محكومة بقانون تعلية الغرائز عند الخلق ، فإياك أنْ تتعدى بغريزتك إلى غير المهمة التي خلقها الله لها .

فمثلاً ، غريزة حب الطعام جعلها الله فيك لاستبقاء الحياة ، فلا تجعلها غرضاً أصيلاً لذاتها ، فتأكل لمجرد أنْ تلتذَّ بالأكل؛ لأنها لذة وقتية تعقبها آلام ومتاعب طويلة . وهذه الغريزة جعلها الله في النفس البشرية منضبطة تماماً كما تضبط المنبّة مثلاً ، فحين تجوع تجد نفسك تاقتْ للطعام وطلبته ، وإنْ عطشتْ مالتْ نفسك نحو الماء ، وكأن بداخلك جرساً يُنبِّهك إلى ما تحتاجه بنيتك من مُقوِّمات استبقائها .

حب الاستطلاع غريزة جعلها الله فيك لتنظر بها وتستطلع ما في الكون من أسرار دالة على قدرة الله وعظمته ، فلا تتعدى هذا الغرض ، ولا تحرِّك هذه الغريزة إلى التجسُّس على الخَلْق والوقوف على أسرارهم .

التناسل غريزة جعلها الله لحِفْظ النوع ، فلا ينبغي أنْ تتعدى ما جعلت له إلى ما حرَّم الله .

الغضب غريزة وانفعال قَسْري لا تختاره بعقلك تغضب أو لا تغضب ، إنما إنْ تعرضتَ لأسبابه فلا تملك إلا أنْ تغضب ، ومع ذلك جعل له حدوداً وقنَّن له وأمر فيه بضبط النفس وعدم النزوع .

الحب والكُرْه غريزة وعاطفة لا تخضع لقانون ، ولا يحكمها العقل ، فلك أن تحب وأن تكره ، لكن إياك أنْ تتعدَّى هذه العاطفة إلى عمل عقليٍّ ونزوع تعتدي به أو تظلم .

لذلك يقول تعالى : { وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلاَّ تَعْدِلُواْ . . } [المائدة : 8] .

لأن هذه المسألة لا يحكمها قانون ، وليس بيدك الحب أو الكره؛ لذلك لما قابل سيدنا عمر قاتل أخيه قال له عمر : أَدِرْ وجهك عني فإنِّي لا أحبك . وكان الرجل عاقلاً فقال لسيدنا عمر : أَوَ عَدمُ حبك لي يمنعني حقاً من حقوقي؟ قال عمر : لا ، فقال الرجل : إنما يبكي على الحب النساء . يعني أحب أو اكره كما شِئْتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تحرمني حقاً من حقوقي .

فهل وقفنا بالغرائز عند حدودها وأهدافها؟ لو تأملتَ مثلاً الغريزة الجنسية التي يصِفُها البعض بِمْلء فيه يقول : غريزة بهيمية . . سبحان الله أَلاَ تستحي أنْ تظلم البهائم لمجرد أنها لا تتكلّم ، وهي أفهم لهذه الغريزة منك ، أَلاَ تراها بمجرد أن يُخصِّب الذكَر أُنثاه لا يقربها أبداً ، وهي لا تمكِّنه من نفسها إذا ما حملَتْ ، في حين أنك تبالغ في هذه الغريزة ، وتنطلق فيها انطلاقاً يُخرِجها عن هدفها والحكمة منها؟ على مثل هذا أن يخزى أن يقول مثل هذه المقولة ، وألاَّ يظلم البهائم ، فمن الناس مَنْ هم أَدنْ من البهائم بكثير .

وما يقال عن غريزة الجنس في الحيوان يقال كذلك في الطعام والشراب .

إذن : الخالق سبحانه خلق الغرائز فيك ، ولم يكبتها ، وجعل لها منافذ شرعية لتؤدي مهمتها في حياتك؛ لذلك أحاطها بسياج من التكليف يُنظِّمها ويحكمها حتى لا تشرد بك ، فقال مثلاً في غريزة الطعام والشراب : { يابني ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا .

. } [الأعراف : 31] .

وقال في غريزة حب الاستطلاع : { وَلاَ تَجَسَّسُواْ . . } [الحجرات : 12] وهكذا في كل غرائزك تجد لها حدوداً يجب عليك ألاَّ تتعداها .

لذلك قلنا في صفات الإيمان وفي صفات الكفر أن الله تعالى يصف المؤمنين بأنهم { أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . } [الفتح : 29] لأنهم يضعون كل غريزة في موضعها فالشدة مع الأعداء ، والرحمة مع إخوانهم المؤمنين ، ويقف عند هذه الحدود لا يقلب مقاييسها ، ويلتزم بقول الحق سبحانه وتعالى { أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين . . } [المائدة : 54] .

وكأن الخالق عز وجل يُسوِّينا تسوية إيمانية ، فالمؤمن لم يُخلَق عزيزاً ولا ذليلاً ، إنما الموقف هو الذي يضعه في مكانه المناسب ، فهو عزيز شامخ مع الكفار ، وذليل مُنكسِر متواضع مع المؤمنين .

ويتفرع عن هذه المسألة مسألة ردِّ العقوبة إذا اعتُدِي عليك : { وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ الله . . } [الحج : 60] .

الحق – سبحانه وتعالى – هو خالق النفس البشرية ، وهو أعلم بنوازعها وخَلَجاتها؛ لذلك أباح لك إن اعتدى عليك أنْ تردَّ الاعتداء بمثله ، حتى لا يختمر الغضب في نفسك ، وقد ينتج عنه ما هو أشد وأبلغ في ردِّ العقوبة ، يبيح لك الرد بالمثل لتنتهي المسألة عند هذا الحد ولا تتفاقم ، فمَنْ ضربك ضربة فلك أنْ تُنفِّس عن نفسك وتضربه مثلها ، لك ذلك ، لكن تذكرَّ المثلية هنا ، لا بد أن تكون تامة ، كما قال سبحانه في موضع آخر : { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . } [النحل : 126] .

وهل تستطيع أن تضبط هذه المثلية فتردّ الضربة بمثلها؟ وهل قوتك كقوته ، وحِدَّة انفعالك كحِدَّة انفعاله؟ ولو حدث وزدْتَ في ردِّك نتيجة غضب ، ماذا تفعل؟ أتسمح له أنْ يردَّ عليك هذه الزيادة؟ أم تكون أنت ظالماً معتدياً؟

إذن : ماذا يُلجئك لمثل هذه المتاهة ، ولك في التسامح سِعَة ، وفي قول الله بعدها : { وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ } [النحل : 126] مَخْرج من هذا الضيق؟

وسبق أنْ حكينا قصة المرابي اليهودي الذي قال لطالب الدَّيْن : إن تأخرت في السداد أشترط عليك أنْ آخذ رطلاً من لحمك . وجاء وقت السداد ولم يُوف المدين ، فرفعه الدائن إلى القاضي وأخبره بما اشترطه عليه ، فقال القاضي : نعم من حقك أن تأخذ رطلاً من لحمه لكن بضربة واحدة بالسكين تأخذ رطلاً ، إنْ زاد أو نقص أخذناه منك .

إذن : مسألة المثلية هنا عقبةٌ تحدُّ من ثورة الغضب ، وتفتح باباً للارتقاءات الإيمانية ، فإنْ كان الحق سبحانه سمح لك أن تُنفِّس عن نفسك فقال : { وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا . . } [الشورى

: 40] فإنه يقول لك : لا تنسَ العفو والتسامح { والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين } [آل عمران : 134] .

لذلك ، فالآية التي معنا تلفتنا لَفْتةً إيمانية : { وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ . . } [الحج : 60] واحدة بواحدة { ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ . . } [الحج : 60] يعني : زاده بعد أنْ ردَّ العدوان بمثله وظلمه واعتدى عليه { لَيَنصُرَنَّهُ الله . . } [الحج : 60] ينصره على المعتدي الذي لم يرتَض حكم الله في رَدِّ العقوبة بمثلها .

وتلحظ في قوله تعالى مخايل النصر بقوله { إِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } [الحج : 60] مع أن الصفة التي تناسب النُّصْرة تحتاج قوة وتحتاج عزة ، لكنه سبحانه اختار صفة العفو والمغفرة ليلفت نظر مَنْ أراد أنْ يعاقب إلى هذه الارتقاءات الإيمانية : اغفر وارحم واعْفُ؛ لأن ربك عفو غفور ، فاختار الصفة التي تُحنِّن قلب المؤمن على أخيه المؤمن .

ثم أليس لك ذنب مع الله؟ { أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ . . } [النور : 22] فما دُمْت تحب أن يغفر الله لك فاغفر لعباده ، وحين تغفر لمَنْ يستحق العقوبة تأتي النتيجة كما قال ربك عز وجل : { فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت : 34] .

فالحق سبحانه يريد أن يشيع بيننا الصفاء النفسي والتلاحم الإيماني ، فأعطاك حقَّ رَدِّ العقوبة بمثلها لتنفِّس عن نفسك الغيظ ، ثم دعاك إلى العفو والمغفرة .

ثم يقول الحق سبحانه : { ذلك بِأَنَّ الله يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ . . }

.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61)

{ ذلك . . } [الحج : 61] يعني ما قُلْته لك سابقاً له دليل ، فما هو؟ أن الله يأخذ من القوي ويعطي للضعيف ، ويأخذ من الطويل ويعطي للقصير ، فالمسألة ليست ثابتة (أو مكانيكا) وإنما خلقها الله بقدر . والليل والنهار هما ظرفا الأحداث التي تفعلونها ، والحق سبحانه { يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل . . } [الحج : 61] .

يولج الليل يعني : يُدخِل الليل على النهار ، فيأخذ منه جزءاً جزءاً فيُطوِّل الليل ويُقصِّر النهار ، ثم يُدخِل النهار على الليل فيأخذ منه جزءاً جزءاً ، فيُطوِّل النهار ويُقصِّر الليل؛ لذلك نراهما لا يتساويان ، فمرة يطول الليل في الشتاء مثلاً ، ويقصر النهار ، ومرة يطول النهار في الصيف ، ويقصر الليل . فزيادة أحدهما ونَقْص الآخر أمر مستمر ، وأغيار متداولة بينهما .

وإذا كانت الأغيار في ظرف الأحداث ، فلا بُدَّ أن تتغير الأحداث نفسها بالتالي ، فعندما يتسع الظرف يتسع كذلك الخير فيه ، فمثلاً عندنا في المكاييل : الكَيْلة والقدح والوَيْبة وعندنا الأردب ، وكل منهما يسَعُ من المحتوى على قدر سعته . وهكذا كما نزيد أن ننقص في ظرف الأحداث

نزيد وننقص في الأحداث نفسها .

ثم تُذيَّل الآية بقوله سبحانه : { وَأَنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [الحج : 61] سميعٌ لما يقال ، بصيرٌ بما يفعل ، فالقول يقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، والبعض يظن أن العمل شيء والقول شيء آخر ، لا؛ لأن العمل وظيفة الجارحة ، فكل جارحة تؤدي مهمتها فهي تعمل ، عمل العَيْن أن ترى ، وعمل الأذن أنْ تسمع ، وعمل اليد أن تلمس ، وعمل الأنف أن يشُم ، وكذلك عمل اللسان القول ، فالقول للسان وحده ، والعمل لباقي الجوارح وكلاهما عمل ، فدائماً نضع القول مقابل الفعل ، كما في قوله تعالى : { لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف : 2] .

والسمع والبصر هما الجارحتان الرئيسيتان في الإنسان ، وهما عمدة الحواس كلها ، حيث تعملان باستمرار على خلاف الشَّم مثلاً ، أو التذوق الذي لا يعمل إلا عدة مرات في اليوم كله .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)

{ ذلك . . } [الحج : 62] أي الكلام السابق أمر معلوم انتهينا منه { بِأَنَّ الله هُوَ الحق . . } [الحج : 62] والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير أبداً ، فكُلُّ ما سِوى الله – عز وجل – يتغير ، وهو سبحانه الذي يُغيِّر ولا يتغير؛ ولذلك أهل المعرفة يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلكم ، لكن يجب عليكم أنْ تتغيروا أنتم من أجل الله .

وما دام أن ربك – عز وجل – هو الحق الثابت الذي لا يتغير ، وما عداه يتغير ، فلا تحزن ، ويا غضبان ارْضَ ، ويا مَنْ تبكي اضحك واطمئن؛ لأنك ابن أغيار ، وفي دنيا أغيار لا تثبت على شيء؛ لذلك فالإنسان يغضب إذا أُصيب بعقبة في حياته يقول : لو لم تكُنْ هذه!! نقول له : وهل تريدها كاملة؟ لا بُدَّ أنْ يصيبك شيء؛ لأنك ابن أغيار ، فماذا تنتظر إنْ وصلْت القمة لا بُدَّ أنْ تتراجع؛ لأنك ابن أغيار دائم التقلُّب في الأحوال ، وربك وحده هو الثابت الذي لا يتغير .

ثم يقول سبحانه : { وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الباطل . . } [الحج : 62] كل مَا تدعيه أو تعبده من دون الله هو الباطل ، يعني الذي يَبْطُل ، كما جاء في قوله تعالى : { إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً } [الإسراء : 81] يعني : يزول ولا يثبت أبداً { وَأَنَّ الله هُوَ العلي الكبير } [الحج : 62] العلي يعني : كل خَلْقه دونه . وكبير يعني : كل خَلْقه صغير .

ومن أسمائه تعالى { الكبير } [الحج : 62] ولا نقول أكبر إلا في الأذان ، وفي افتتاح الصلاة ، والبعض يظن أن أكبر أبلغ في الوصف من كبير ، لكن هذا غير صحيح؛ لأن أكبر مضمونه كبير ، إنما كبير مقابله صغير ، فهو سبحانه الكبير؛ لأن ما دونه وما عداه صغير .

أما حين يناديك ويستدعيك لأداء فريضة الله يقول : الله أكبر؛ لأن حركة الحياة وضروريات العيش عند الله أمر كبير وأمر هام لا يغفل ، لكن إنْ كانت حركة الحياة والسعي فيها أمر كبيراً

فالله أكبر ، فربُّك يُخرجك للصلاة من عمل ، ويدعوك بعدها إلى العمل : { فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله . . } [الجمعة : 10] .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً . . }

.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63)

{ أَلَمْ تَرَ . . } [الحج : 63] إنْ كانت للأمر الحِسّي الذي تراه العين ، فأنت لم تَرَهُ ونُنبهك إليه ، وإنْ كانت للأمر الذي لا يُدرَك بالعين فهي بمعنى : ألم تعلم . وتركنا العلم إلى الرؤية لنبين لك أن الذي يُعلِّمك الله به أوثق مما تهديك إليه عَيْنك .

فالمعنى : ألم تعلم وألم تنظر؟ . المعنيان معاً .

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً . . } [الحج : 63] فهذه آية تراها ، لكن ترى منها الظاهر فقط ، فترى الماء ينهمر من السماء ، إنما كيف تكَّون هذا الماء في طبقات الجو؟ ولماذا نزل في هذا المكان بالذات؟ هذه عمليات لم تَرَها ، وقدرة الله تعالى واسعة ، ولك أن تتأمل لو أردتَ أنْ تجمع كوب ماء واحد من ماء البخار ، وكم يأخذ منك من جهد ووقت وعمليات تسخين وتبخير وتكثيف ، فهل رأيتَ هذه العمليات في تكوين المطر؟

إذن : رأيت من المطر ظاهرة ، لذلك يلفتك ربك إلى ما وراء هذا الظاهر لتتأمله .

لذلك؛ جعل الخالق – عز وجل – مسطح الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، فاتساع مُسطَّح الماء يزيد من البَخْر الذي ينشره الله تعالى على اليابس ، كما لو وضعتَ مثلاً كوبَ ماء في غرفتك ، وتركتَه مدة شهر أو شهرين ، ستجد أنه ينقص مثلاً سنتيمتراً ، أما لو نثرتَ الكوب على أرض الغرفة فسوف يجفّ بعد دقائق .

إذن : فاتساع رقعة الماء يزيد من كمية البخار المتصاعد منها ، ونحن على اليابس نحتاج كمية كبيرة من الماء العَذْب الصالح للزراعة وللشرب . . الخ ، ولا يتوفر هذا إلا بكثرة كمية الأمطار .

ثم يُبيّن سبحانه نتيجة إنزال الماء من السماء : { فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً . . } [الحج : 63] يعني : تصير بعد وقت قصير خضراء زاهية . دون أن يذكر شيئاً عن تدخُّل الإنسان في هذه العملية ، فالإنسان لم يحرث ولم يبذر ولم يَرْو ، إنما المسألة كلها بقدرة الله ، لكن من أين أتت البذور التي كوَّنَتْ هذا النبات؟ ومَنْ بذرها ووزَّعها؟ البُذور كانت موجودة في التربة حيَّة كامنة لم يُصِبْها شيء ، وإنْ مَرَّ عليها الزمن؛ لأن الله تعالى يحفظها إلى أنْ تجد الماء وتتوفَّر لها عوامل الإنبات فتنبت؛ لذلك نُسمِّي هذا النبات (العِذْى) ؛ لأنه خرج بقدرة الله لا دَخْل لأحد فيه .

وتولَّتْ الرياح نَقْل هذه البذور من مكان لآخر ، كما قال تعالى : { وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . } [الحجر : 22] ولو سلسلْتَ هذه البذرة ستجدها من شجرة إلى شجرة حتى تصل إلى شجرة

أُمٍّ ، خلقها الخالق سبحانه لا شجرةَ قبلها ولا بذرة . لذلك يُرْوى أن يوسف النجار وكان يرعى السيدة مريم عليها السلام ويشرف عليها ، ويقال كان خطيبها – لما رآها حاملاً وليس لها زوج سألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بلا بذرة؟ قالت : نعم الشجرة التي أنبتتْ أول بذرة .

ثم يقول سبحانه : { إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [الحج : 63] اللطْف هو دِقَّة التناول للأشياء ، فمثلاً حين تريد أن تدخل خيطاً في إبرة ، تجد الخيط لا ينفذ من ثقبها لأول مرة ، فتحاول أنْ تُرقِّق من طرف الخيط وتبرمه حتى يدِقّ فينفذ من الثقب ، فالخيط بعد أنْ كان غليظاً أصبح لطيفاً دقيقاً .

ويقولون : الشيء كلما لَطُف عَنُف ، في حين يظن البعض أن الشيء الكبير هو القوي ، لكن هذا غير صحيح ، فكلما كان الشيء لطيفاً دقيقاً كان خطره أعظم ، أَلاَ ترى الميكروب كيف يصيب الإنسان وكيف لا نشعر به ولا نجد له ألماً؟ ذلك لأنه دقيق لطيف ، وكذلك له مدخل لطيف لا تشعر به؛ لأنه من الصِّغَر بحيث لا تراه بالعين المجردة .

والبعوضة كم هي هيِّنة صغيرة؛ لذلك تُؤلمك لدغتها بخرطومها الدقيق الذي لا تكاد تراه ، وكلما دَقَّ الشيء احتاج إلى احتياط أكثر لتحمي نفسك من خطره ، فمثلاً إنْ أردتَ بناء بيت في الخلاء أو منطقة نائية ، فإنك ستضطر أنْ تضع حديداً على الشبابيك يحميك من الحيوانات المفترسة كالذئاب مثلاً ، ثم تضع شبكة من السلك لتحميك من الفئران ، فإن أردْتَ أن تحمي نفسك من الذباب والبعوض احتجت إلى سِلْك أدق ، وهكذا كلما صَغُر الشيء ولطف احتاج إلى احتياط أكثر .

فاللطيف هو الذي يدخل في الأشياء بلطف؛ لذلك يقولون : فلان لطيف المدخل يعني : يدخل لكل إنسان بما يناسبه ، ويعرف لكل إنسان نقطة ضَعْف يدخل إليه منها ، كأن معه (طفاشة) للرجال ، يستطيع أن يفتح بها أي شخصية .

لكن ، ما علاقة قوله تعالى { إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [الحج : 63] بعد قوله : { فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً . . } [الحج : 63] ؟ قالوا : لأن عملية الإنبات تقوم على مَسَامّ وشعيرات دقيقة تخرج من البذرة بعد الإنبات ، وتمتصّ الغذاء من التربة ، هذه الشعيرات الجذرية تحتاج إلى لُطْف ، وامتصاص الغذاء المناسب لكل نوع يحتاج إلى خبرة ، كما قال تعالى : { يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأكل . . } [الرعد : 4] .

فالأرض تصبح مُخضَرَّة من لُطْف الحق سبحانه ، ومن خبرته في مداخل الأشياء ، لذلك قال بعدها : { إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [الحج : 63] .

ولدِقّة الشعيرات الجذرية نحرص ألاَّ تعلو المياه الجوفية في التربة؛ لأنها تفسد هذه الشعيرات فتتعطن وتموت فيصفرُّ النبات ويموت .

ثم يقول الحق سبحانه : { لَّهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَإِنَّ الله . . }

.

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64)

فما في السموات وما في الأرض مِلْك لله تعالى ، ومع ذلك لا ينتفع منها الحق سبحانه بشيء ، إنما خلقها لمنفعة خَلْقه ، وهو سبحانه غنيٌّ عنها وغنيٌّ عنهم ، وبصفات الكمال فيه سبحانه خلق ما في السماوات وما في الأرض؛ لذلك قال بعدها : { وَإِنَّ الله لَهُوَ الغني الحميد } [الحج : 64] .

وصفات الكمال في الله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق الخَلْق ، وبصفات الكمال خلق ، وملكيته تعالى للسماوات وللأرض ، ولما فيهما ملكية للظرف وللمظروف ، ونحن لا نملك السماوات ، ولا نملك الأرض ، إنما نملك ما فيهما من خيرات ومنافع مما ملّكنا الله له ، فهو الغني سبحانه ، المالك لكل شيء ، وما ملَّكنا الله له ، فهو الغني سبحانه ، المالك لكل شيء ، وما ملَّكنا إلا من باطن مُلْكه .

والحميد : يعني المحمود ، فهو غني محمود؛ لأن غنَاه لا يعود عليه سبحانه ، إنما يعود على خَلْقه ، فيحمدونه لغنَاه ، لا يحقدون عليه ، ومن العجيب أن الحق سبحانه يُمِلّك خَلْقَه من مُلْكه ، فمَن استخدم النعمة فيما جُعلتْ له ، ومَنْ أعطى غير القادر من نعمة الله عليه يشكر الله له ، وهي في الأصل نعمته . ذلك لأنك أنت عبده ، وقد استدعاك للوجود ، وعليه سبحانه أنْ يتولاّك ويرعاك .

فإن احتاج غير القادر منك شيئاً ، قال تعالى : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً . . } [البقرة : 245] .

فاعتبره قرضاً ، وهو ماله ، لكنه ملّكك إياه؛ لذلك لا يسلبه منك إنما يأخذه قرضاً حسناً ويضاعفه لك؛ لأنه غنيٌّ حميد أي : محمود ، ولا يكون الغنى محموداً إلا إذا كان غير الغني مستفيداً من غِنَاه .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأرض والفلك تَجْرِي فِي البحر بِأَمْرِهِ . . }

.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65)

هذه الآية امتداد للآية السابقة ، فما في السماء وما في الأرض مِلْك له سبحانه لكنه سخَّره لمنفعة خَلْقه ، فإنْ سأل سائل : فلماذا لا يجعلها الله لنا ويُملكنا إياها؟ نقول : لأن ربك يريد أنْ يُطمئِنك أنه لن يعطيها لأحد أبداً ، وستظل مِلْكاً لله وأنت تنتفع بها ، وهل تأمن إنْ ملّكها الله لغيره أنْ يتغيّر لك ويحرمك منها؟ فأمْنُك في أن يظل المُلْك لله وحده؛ لأنه ربك ومُتولّيك ، ولن يتغير لك ، ولن يتنكّر في منفعتك .

وقوله تعالى : { والفلك تَجْرِي فِي البحر بِأَمْرِهِ . . } [الحج : 65] الفُلْك : السفن ، تُطلق على المفرد وعلى الجمع ، تجري في البحر بأمره تعالى ، فتسير السفن بالريح حيث أمرها الله ، كما قال سبحانه : { وَتَصْرِيفِ الرياح . . } [البقرة : 164] وهذه لا يملكها ولا يقدر عليها إلا الله ، وقال في آية أخرى : { إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ . . } [الشورى : 33] .

وتأمَّل دِقَّة الأداء القرآني من الله الذي يعلم ما كان ، ويعلم ما يكون ، ويعلم ما سيكون ، فلقائل الآن أنْ يقول : لم نَعُد في حاجة إلى الريح تُسيِّر السفن ، أو توجهها؛ لأنها أصبحت تسير الآن بآلات ومحركات ، نعم السفن الآن تسير بالمحركات ، لكن للريح معنى أوسع من ذلك ، فالريح ليست هذه القوة الذاتية التي تدفع السفن على صفحة الماء ، إنما الريح تعني القوة في ذاتها ، أياً كانت ريحاً أم بُخَاراً أم كهرباء أم ذرة . . إلخ .

بدليل قوله تعالى : { وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . . } [الأنفال : 46] يعني : تذهب قوتكم أيًا كانت هذه القوة حتى الصياد الذي يركب البحر بقارب صغير يُسيِّره بالمجاديف بقوة يده وعضلاته هي أيضاً قوة ، لا تخرج عن هذا المعنى .

وهكذا يظل معنى الآية صالحاً لكل زمان ولكل مكان ، وإلى أن تقوم الساعة .

والريح إنْ أُفردَتْ دلَّتْ على حدوث شَرٍّ وضرر ، كما في قوله تعالى : { وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم } [الذاريات : 41] .

وقوله : { وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . . } [الأنفال : 46]

وقوله : { بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الأحقاف : 24]

وإنْ جاءت بصيغة الجمع دلَّت على الخير ، كما في قوله تعالى : { وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . } [الحجر : 22] .

وسبق أنْ تحدثنا عن مهمة الريح في تماسك الأشياء وقيامها بذاتها ، فالجبل الأشمّ الذي تراه ثابتاً راسخاً إنما ثبتَ بأثر الريح عليه ، وإحاطته به من كل جانب ، بحيث لو فُرِّغ الهواء من أحد جوانب الجبل لانهار ، وهذه هي الفكرة التي قامت عليها القنبلة ، فالهواء هو الذي يقيم المباني والعمارات ويثبتها؛ لأنه يحيطها من كل جانب ، فيُحدِث لها هذا التوازن ، فإنْ فُرِّغ من أحد الجوانب ينهار المبنى .

ثم يقول سبحانه : { وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ . . } [الحج : 65] فالسماء مرفوعة فوقنا بلا عَمَد ، لا يمسكها فوقنا إلا الله بقدرته وقيوميته أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه تعالى ، كما قال في آية أخرى :

{ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ . . } [فاطر : 41] .

{ إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [الحج : 65] فمن صفاته تعالى الرأفة والرحمة ، والفَهْم السطحي لهاتين الصفتين يرى أنهما واحد ، لكن هما صفتان مختلفتان ، فالرأفة تزيل الآلام ، والرحمة تزيد الإنعام ، والقاعدة أن درْء المفسدة مُقدَّم دائماً على جَلْب المصلحة ، فربك يرأف بك فيزيل عنك أسباب الألم قبل أن يجلب لك نفعاً برحمته .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمثل : قلنا هَبْ أن واحداً يرميك بحجر ، وآخر يرمي لك تفاحة ، فأيُّهما يشغلك أولاً؟ لا شكَّ ستُشغل بالحجر ، كيف تقي نفسك من ضرره ثم تحاول أن تنال هذه التفاحة؟

لذلك قال تعالى : { وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى . . } [النحل : 61] .

ثم يقول سبحانه : { وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ . . }

.

وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (66)

الحق – تبارك وتعالى – يُذكّرنا ببعض نعمه وببعض العمليات التي لو تتبعناها لوقفنا بمقتضاها على نِعَم الله علينا ، ولم نَنْسها أبداً .

أولها : { وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ . . } [الحج : 66] والإحياء : أن يعطي المحيي ما يُحييه قوة يؤدي بها المهمة المخلوق لها . والإحياء الأول في آدم – عليه السلام – حين خلقه ربه وسوّاه ونفخ فيه من روحه ، ثم أوجدنا نحن من ذريته .

{ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ . . } [الحج : 66] وكما أن الخَلْق آية من آيات الله ، فكذلك الموت آية من آيات الله ، نراها ونلمسها ، وما دُمْتَ تُصدِّق بآية الخَلْق وآية الموت ، وتراهما ، ولا تشك فيهما ، فحين نقول لك إن بعد هذا حياة أخرى فصدِّق؛ لأن صاحب هذه الآيات واحد ، والمقدمات التي تحكم أنت بصدقها يجب أنْ تؤدي إلى نتيجة تحكم أيضاً بصدقها ، وها هي المقدمات بين يديك صادقة .

لذلك يقول تعالى بعدها : { ثُمَّ يُحْيِيكُمْ . . } [الحج : 66] والإحياء يُطلَق في القرآن على

معانٍ متعددة ، منها الحياة المادية التي تتمثل في الحركة والأكل والشرب ، ومنها الحياة في الآخرة التي قال الله عنها : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . . } [العنكبوت : 64] .

وهذه الحياة الحقيقية؛ لأن حياة الدنيا تعتريها الأغيار ، ويتقلَّب فيها الإنسان بين القوة والضعف ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والصِّغَر والكِبَر ، وبعد ذلك يعتريها الزوال ، أما حياة الآخرة التي وصفها الله بأنها الحيوان يعني : مبالغة في الحياة ، فهي حياة لا أغيار فيها ولا زوالَ لها .

إذن : لديك حياتان : حياة لِبنْية المادة وبها تتحرك وتُحِس وتعيش ، وحياة أخرى باقية لا زوالَ لها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ . . } [الأنفال : 24] كيف – إذن – ونحن أحياء؟ قالوا : لما يحييكم ليست حياة الدنيا المادية التي تعتريها الأغيار ، إنما يحييكم الحياةَ الحقيقية في الآخرة ، الحياة الباقية التي لا تزول ، التي قال الله عنها : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] يعني : العلم الحقيقي الذي يهدي صاحبه .

فإن كانت الحياة المادية الدنيوية بنفْخ الروح في الإنسان ، فبِمَ تكون الحياة الثانية { إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ . . } [الأنفال : 24] .

قالوا : هذه الحياة تكون بروح أيضاً ، لكن غير الروح الأولى ، إنها بروح القرآن الذي قال الله فيه : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا . . } [الشورى : 52] وسمَّى المَلك الذي ينزل به روحاً : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193] .

فالروح الثانية التي تُحييك الحياة الحقيقية الخالدة هي منهج الله في كتابه الكريم ، إن اتبعته نِلْتَ هذه الحياة الباقية الخالدة وتمتعتَ فيها بما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، وهي لا مقطوعة ولا ممنوعة .

ثم يقول سبحانه : { إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ } [الحج : 66] كفور : صيغة مبالغة من كافر ، والكفور الذي لم يعرف للمنعِم حَقّ النعمة ، مع أنه لو تبيَّنها لما انفكَّ أبداً عن شكر المنعم سبحانه .

والإنسان يمرُّ بمراحل مختلفة بين الحياة والموت ، كما جاء في قوله تعالى : { قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين فاعترفنا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ } [غافر : 11] ، فمتى سيقولون هذا الكلام؟

قالوا : هذا يوم القيامة ، وقد أحياهم الله من موت العدم ، فأحياهم في الدنيا ثم أماتهم ، ثم

أحياهم في الآخرة ، فهناك موت قبل إيجاد ، وموت بعد إيجاد ، ثم يأتي البعث في القيامة . وقوله تعالى : { وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ . . } [الحج : 66] قضية قالها الخالق – عز وجل – ولم يدعها أحد لنفسه مع كثرة الكفار والملاحدة والأفاقين في كل زمان ومكان ، لم نسمع مَنِ ادَّعَى مسألة الخَلْق ، وهذه قضية يجب أن نقف عندها وأن نبحث : لماذا لم يظهر مَنْ يدَّعي ذلك؟ وإذا لم يَدَّع الخَلْق أحدٌ ، ولم يدَّع الإحياء أحد ، فمَنْ – إذن – صاحب الخَلْق والإحياء والإماتة؟

إذا كان الناس يهتمون ويؤرخون لأيِّ مخترع آلة مثلاً ، فيقولون : مخترع الكهرباء فلان وعاش في بلدة كذا ، وكان من أمره كذا وكذا ، وتعلم في كذا ، وحصل على كذا . . الخ فكيف بمَنْ خلقكم وأحياكم من عدم؟ خاصة وهذه المسألة لم يتبجح بادعائها أحد فثبتت القضية له سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه : { لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأمر وادع إلى رَبِّكَ . . }

.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (67)

الحق – سبحانه وتعالى – خلق آدم عليه السلام خليفة له في الأرض ، وأجرى له تدريباً على مهمته بالأمر الإلهي والنهي الإلهي ، وأخبره بعداوة الشيطان له ولذريته ، وحذَّره أن يتبع خطواته ، وقد انتهت هذه التجربة بنزول آدم من الجنة إلى الأرض ليباشر مهمته كخليفة لله في أرضه على أنْ يظلَّ على ذِكْر من تجربته مع الشيطان . وقد سخَّر الله له كل شيء في الوجود يخدمه ويعمل من أجله .

ثم أنزل الله عليه منهجاً ، يعمل به لتستقيم حركة حياته وحياة ذريته ، وذكَّره بالمنهج التدريبي السابق الذي كلَّفه به في الجنة ، وما حدث له لما خالف منهج ربه ، حيث ظهرت عورته : { وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة . . } [الأعراف : 22] .

كذلك إنْ خالفت هذا المنهج الإلهي في الدنيا ستظهر عوراتكم لذلك إذا رأيت أيّ عورة في المجتمع في أيّ ناحية : في الاجتماع ، في الاقتصاد ، في التربية ، فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عُطِّل ، فظهرت سوأة من سوءات المجتمع؛ لأن منهج الله هو قانون الصيانة الذي يحميك وينظم حياتك لتؤدي مهمتك في الحياة .

كما لو دخلتَ بيتك فوجدتَ آلة من آلات البيت لا تؤدي مهمتها ، فتعلم أن بها عطلاً فتذهب بها إلى المهندس المختص بصيانتها ، كذلك إن تعطل في حياتكم شيء عن أداء مهمته فردُّوه إلى صاحب صيانته إلى الله وإلى الرسول ، وهذا منطق حازم يعترف به الجميع المؤمن

والكافر أن ترد الصنعة إلى صانعها ، وإلى العالِم بقانون صيانتها ، وأنت لم يدّع أحد أنه خلقك ، فحين يحدث فيك خَلَل ، فعليك أنْ تذهبَ إلى ربك وخالقك .

لذلك « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة » ، ومعنى « حزبه أمر » يعني : شيء فوق طاقته وأسبابه ، يُهرَع إلى الصلاة ليعرض نفسه على ربه عز وجل ، فإنْ وجدتَ في نفسك خللاً في أي ناحية ، فما عليك إلا أنْ تتوضأ ، وتقف بين يدي ربك ليصلح ما تعطل فيك .

وإن كان المهندس يُصلح لك الآلة بشيء مادي ، ولو قطعة صغيرة من السلك ، فإن ربك عز وجل غَيْب ، وعلاجه أيضاً غَيْب يأتيك من حيث لا تدري .

ومنهج الله الذي وضعه لصيانة خَلْقه فيه أصول وفيه فروع ، الأصول : أن تؤمن بالإله الواحد الفاعل المختار ، وهذه قاعدة ما اختلف عليها أيٌّ من رسالات السماء أبداً ، كما يقول تعالى : { شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ . . } [الشورى : 13] .

فهذه أصول لا يختلف عليها دين من الأديان ، لكن لما كان الناس منثورين في شتى بقاع الأرض ، تعيش كل جماعة منهم منعزلةً عن الأخرى لبُعْد المسافات وانعدام وسائل الاتصال والالتقاء التي نراها اليوم ، والتي جعلتْ العالم كله قرية واحدة ، ما يحدث في أقصى الشرق تراه وتسمع به في أقصى الغرب ، وفي نفس الوقت .

لما عاش الناس هذه العزلة لا يدري أحد بأحد لدرجة أنهم كانوا منذ مائتي عام يكتشفون قارات جديدة .

وقد نشأ عن هذه العزلة أنْ تعددت الداءات بتعدد الجماعات ، فكان الرسول أو النبي يأتي ليعالج الداءات في جماعة بعينها يُبعَث إلى قومه خاصة ، فهذا ليعالج مسألة الكيل والميزان ، وهذا ليعالج طغيان المال ، وهذا ليعالج انحراف الطباع وشذوذها ، وهذا ليعالج التعصب القبلي .

أما رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاءت في بداية التقاء الجماعات هنا وهناك ، فكانت رسالته صلى الله عليه وسلم عامة للناس كافة ، وتجد أصول الرسالات عند موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام أصولاً واحدة ، أمّا الفروع فتختلف باختلاف البيئات .

لكن ، لما كان في علمه تعالى أن هذه العزلة ستنتهي ، وأن هذه البيئات ستجتمع وتلتقي على أمر واحد وستتحد فيها الداءات؛ لذلك أرسل الرسول الخاتم لهم جميعاً على امتداد الزمان والمكان .

وفي هذه الآية : { لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ . . } [الحج : 67] أي : أن الحق سبحانه جعل لكل أمة من الأمم التي بعث فيها الرسل مناسك تناسب أقضية زمانهم؛ لأنهم كانوا في عزلة بعضهم عن بعض ، كما جاء في قوله تعالى : { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً . . } [

المائدة : 48] فالشرائع تختلف في الفروع المناسبة للزمان وللمكان وللبيئة ، أما الأخلاق والعقائد فهي واحدة ، فالله عز وجل إله واحد في كل ديانات السماء ، والكذب مُحرَّم في كل ديانات السماء لم يأْتِ نبي من الأنبياء ليبيح لقومه الكذب .

والمنسك : المنهج التعبدي ، ومنه قوله تعالى : { قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للَّهِ رَبِّ العالمين } [الأنعام : 162] .

{ هُمْ نَاسِكُوهُ . . } [الحج : 67] يعني : فاعلوه .

ثم يقول سبحانه : { فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأمر . . } [الحج : 67] كأنْ يقولوا : أنت رسول ونحن أيضاً نتبع رسولاً ، له منهج وله شريعة ، نعم : لكن هذه شريعة خاتمة جاءت مهيمنة على كل الشرائع قبلها ، ومناسبة لمستجدّات الأمور .

لذلك يُطمئن الحق – تبارك وتعالى – رسوله صلى الله عليه وسلم – بعدها : { وادع إلى رَبِّكَ إِنَّكَ لعلى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ } [الحج : 67] يعني : أطمئن ، فأنت على الحق وادْعُ إلى ربك؛ لأنك على هدى مستقيم سيصل إليهم إنْ لم يكن إيماناً فسيكون إصلاحاً وتقنيناً بشرياً تلجئهم إليه أحداث الحياة ومشاكلها ، فلن يجدوا أفضل من شرع الله يحكمون به ، وإنْ لم يؤمنوا .

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : لا تنازعهم ولا ينازعونك ، وخُذ ما أمرك الله به : { فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين } [الحجر : 94] الذين يجادلونك وينازعونك في الرسالة ، وسوف تحدث لهم أقضية بقدر ما يُحدِثون من الفجور ويلجئون إلى شرعك وقانونك ليحلوا به مشاكلهم .

والهدى وُصِف بأنه مستقيم ، لأنه هدى من الله صنعه لك ، هدى الخالق الذي يعلم ملَكات النفس الإنسانية كلها ، وشرع لكل ملكة ما يناسبها ، وأحداث الحياة ستضطرهم إلى ما قنن الله لخلافته في الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ الله أَعْلَمُ . . }

.

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68)

الجدل : مأخوذ من جَدْل الحبل بعضه على بعض لتقويته ، وإنْ كانت خيطاً رفيعاً نبرمه فنعطيه سُمْكاً وقوة؛ لذلك الخيط حين نبرمه يقلّ في الطول؛ لأن أجزاءه تتداخل فيكون أقوى ، فالجدْل من تمتين الشيء وتقويته ، وكذلك الجدال؛ فهو محاولة تقوية الحجة أمام الخَصْم .

وفي آية أخرى : { وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . } [النحل : 125] فالمعنى : إنْ جادلوك بعد التي هي أحسن فقُلْ { الله أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } [الحج : 68] يعني : ردهم إلى الله واحتكم

إليه؛ لذلك جاء بعدها : { الله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القيامة . . }

.

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69)

لاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : يحكم بيننا وبينكم كما يقتضي المعنى؛ لأنكما طرفان تتجادلان . وكأن الحق – تبارك وتعالى – يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : أتركهم فسوف يختلفون هم فيما بينهم ، ولن يظل الخلاف معك؛ لأن الخلاف في شيء واحد ينشأ عن هوى النفس ، وهوى النفس ينشأ من الحرص على السلطة الزمنية ، يعني : أرحْ نفسك ، فربُّك سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السمآء والأرض . . }

.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70)

هذه قضية حكم بها الحق سبحانة لنفسه ، ولم يدَّعِها أحد ، فلا يعلم ما في السماء والأرض إلا الله ، وهذه الآية جاءت بعد الحكم في المنازعة فربما اعترض أحد وقال : ما دام الأمر من الله أحكاماً تنظم حركة الحياة وقد جاء كل رسول بها ، فما ضرورة أنْ يجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس كافة .

وقلنا : إن الدين نوعان : نوع لا يختلف باختلاف الرسل والأمم والعصور ، وهذا في القضايا العامة الشاملة التي لا تتغير ، وهي العقائد والأصول والأخلاق ، ونوع آخر يختلف باختلاف العصور والأمم ، فيأتي الحكم مناسباً لكل عصر ، ولكل أمة .

وما دام الحق سبحانه هو الذي سيحكم بين الطرفين قال : { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السمآء والأرض . . } [الحج : 70] أعلم كل شيء كائن في الوجود ظاهره وباطنه ، فأنا أحكُم عن علم وعن خبرة .

{ إِنَّ ذلك فِي كِتَابٍ . . } [الحج : 70] والعلم شيء ، والكتاب شيء آخر ، فما دام الله تعالى يعلم كل شيء ، وما دام سبحانه لا يضل ولا ينسى ، فما ضرورة الكتاب؟

قالوا : الكتاب يعني به اللوح المحفوظ الذي يحوي كل شيء .

وفي آية أخرى قال : {كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ } [عبس : 11 – 15] .

حتى القرآن نفسه في ذلك الكتاب : { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ } [البروج : 21 –

. [22

وقال تعالى : { يَمْحُواْ الله مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب } [الرعد : 39] ويقول تعالى : { وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } [الأنعام : 59] .

فضرورة الكتاب ليدلّك وليدلّ الملائكة المطَّلعين على أن الأشياء التي تحدث مستقبلاً كتبها الله أزلاً ، فالذي كتب الشيء قبل أنْ يكون ، ثم جاء الشيء موافقاً لما أكبر دليل على عِلْمه وإحاطته .

إذن : مجيء الكتاب لا ليساعدنا على شيء ، إنما ليكون حُجَّة عليك ، فيقال لك : { اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء : 14] ها هو تاريخك ، وها هي قصتك ، ليس كلاماً من عندنا ، وإنما فعلْك والحجة عليك .

وعِلْم الله تعالى في قوله : { يَعْلَمُ مَا فِي السمآء والأرض . . } [الحج : 70] يحمل الوعد والوعيد في وقت واحد ، وهذا من عجائب الأداء القرآني ، أنْ يعطي الشيء ونقيضه ، كيف؟ هَبْ أن عندك ولديْن اعتدى أحدهما على الآخر في غَيبتك ، فلما عُدْتَ أسرعا بالشكوى ، كل من صاحبه ، فقلتَ لهما : اسكتا لا أسمع لكما صوتاً . وقد عرفت ما حدث وسأرتب لكل منكما ما يناسبه وما يستحقه على وَفْق ما علمت ، لا شكَّ عندها أن المظلوم سيفرح ويستبشر ، وأن الظالم سيخاف ويتغير لونه .

إذن : فعلم الله بكل شيء في السماء والأرض وإحاطته سبحانه بما يجري بين خَلْقه وَعْد للمحق ، ووعيد للمبطل .

ثم يقول سبحانه : { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً . . }

.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71)

كأن العبادة – وهي : طاعة أمر واجتناب نهي – يجب أن تكون صادرة من أعلى منا جميعاً ، فليس لأحد منا أن يُشرِّع للآخر ، فيأمره أو ينهاه؛ لأن الأمر من المساوى لك لا مُرجح له ، وله أنْ يقول لك : لماذا أنت تأمر وأنا أطيع؟ أما إنْ جاء الأمر من أعلى منك فأنت تطيع بلا اعتراض ، ومعك الحجة أن الأمر من أعلى منك فأنت تطيع بلا اعتراض ، ومعك الحجة أن الأمر من أعلى ، تقول : أبي أمرني بكذا وكذا ، أو ربي أمرني بكذا وكذا ، أو نهاني عن كذا وكذا

.

إذن : كل دليل على حكم الفعل أو الترك لا بُدَّ أنْ يكون مصدره من الحق سبحانه وتعالى ، فهو الأعلى مني ومنك ، وإذا انصعْتَ لأمره ونهيه فلا حرجَ عليَّ ولا ضرر؛ لأنني ما انصعت لمساوٍ

إنما انصعت لله الذي أنا وأنت عبيد له ، ولا غضاضةَ في أن نتبع حكمه .

لذلك في حِكَم أهل الريف يقولون : (اللي الشرع يقطع صباعه مَيْخُرش دم) لماذا؟ لأنك ما قطعته أنت إنما قطعه الله ، فليس الأمر تسلط أو جبروت من أحد ، وليس فيه مذلّة ولا استكانة لأحد .

ومعنى : { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله . . } [الحج : 71] يعني : يعبدون غيره تعالى { مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً . . } [الحج : 71] السلطان : إما سلطان قَهْر ، أو سلطان حجة ، سلطان القهر أن يقهرك ويجبرك على ما لم تُرِدْ فِعْله ، أما سلطان الحجة فيقنعك ويُثبِت لك بالحجة أن تفعل باختيارك ، وهذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله ليس لها سلطان ، لا قَهْر ولا حُجّة .

لذلك؛ في جدل إبليس يوم القيامة للذين اتبعوه يقول لهم : { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي . . } [إبراهيم : 22] يعني : كنتم على إشارة فاستجبتم لي ، وليس لي عليكم سلطان ، لا قوة أقهركم بها على المعصية ، ولا حجة أقنعكم بها .

ثم يقول تعالى : { وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ . . } [الحج : 71] يعني : علم الاجتهاد الذي يستنبط الأحكام من الحكم المُجْمل الذي يُنزله الحق تبارك وتعالى ، وهذه هي حجة العلم التي قال الله تعالى عنها : { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرسول وإلى أُوْلِي الأمر مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ . . } [النساء : 83] يعني : أهل العلم .

إذن : العبادة لا بُدَّ أن تكون بسلطان من الله نصاً قاطعاً وصريحاً لا يحتمل الجدل ، وإما أنْ تكونَ باجتهاد أُولِي العلم .

وقوله تعالى : { وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ } [الحج : 71] لم يقُلْ سبحانه : لن ينتصر الظالمون ، ولم ينْفِ عنهم النصر؛ لأن هذه مسألة مُسلمة إنما لا يفزع لنصرتهم أحد ، فلن ينتصروا ولن ينصرهم أحد ، ولا يفزع أحد لينصر أحداً إلا إذا كان المنصور ضعيفاً .

ثم يقول سبحانه : { وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر . . } .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72)

تصور هذه الآية حال الكفار عند سماعهم لكتاب الله وآياته من رسول الله أو صحابته ، فإذا سمعوها { تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر . . } [الحج : 72] أي : الكراهية تراها وتقرؤها في وجوههم عُبُوساً وتقطيباً وغضباً وانفعالاً ، ينكر ما يسمعون ، ويكاد أن يتحول الانفعال إلى نزوع غضبي يفتك بمَنْ يقرأ القرآن لما بداخلهم من شر وكراهية لما يتلى عليهم .

لذلك قال تعالى بعدها : { يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتنا . . } [الحج : 72]
والسَّطْو : الفَتْك والبطش؛ لأن العمل الوجداني الذي يشغل نفوسهم يظهر أولاً على وجوههم انفعالاً يُنبيء بشيء يريدون إيقاعه بالمؤمنين ، ثم يتحول الوجدان إلى نزوع حركي هو الفتك والبطش .
(قُلْ) في الرد عليهم : ماذا يُغضِبكم حتى تسطوا علينا وتكرهوا ما نتلو عليكم من كتاب الله . والغيظ والكراهية عند سماعهم القرآن دليل على عدم قدرتهم على الرد بالحجة ، وعدم قدرتهم أيضاً على الإيمان؛ لذلك يتقلَّبون بين غيظ وكراهية .
لذلك يخاطبهم بقوله : { قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذلكم النار وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ . . } [الحج : 72] يعني : مالي أراكم مغتاظين من آيات الله كارهين لها الآن ، والأمر ما يزال هيّناً؟ أمجرد سماع الآيات يفعل بكم هذا كلّه؟ فما بالكم حينما تباشرون النار في الآخرة ، الغيظ الذي تظنونه شرّاً فتسطُون علينا بسببه أمر بسيط ، وهناك أشرّ منه ينتظركم { النار وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ . . } [الحج : 72]
وما أشبه هذا بموقف الصِّدِّيق أبي بكر حينما أوقف صناديد قريش بالباب ، وقدّم عليهم المستضعفين من المؤمنين ، فغضبوا لذلك وورِمَتْ أنوفهم ، فقال لهم : أَوَرِمتْ أنوفكم أنْ قدمتهم عليكم الآن ، فكيف بكم حين يُقدمهم الله عليكم في دخول الجنة؟
وكلمة { وَعَدَهَا . . } [الحج : 72] الوعد دائماً يكون بالخير ، أما هنا فاستُعملَتْ على سبيل الاستهزاء بهم والتقليل من شأنهم ، كما قال في آية أخرى : { فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الانشقاق : 24] فساعةَ أن يسمع البُشْرى يستشرف للخير ، فيفاجئه العذاب ، فيكون أنكَى له .
ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه . . } [الكهف : 29] لأن انقباض النفس ويأسها بعد بوادر الانبساط أشدّ من العذاب ذاته .
وقوله : { وَبِئْسَ المصير } [الحج : 72] أي : ساءت نهايتكم ومرجعكم .
.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73)

قُلْنا : الضرب إيقاع شيء على شيء بقوة ، ومنه نقول : ضربنا الدينار يعني : بعد أن كان قطعة من الذهب أو الفضة مثلاً أصبح عملةً معروفة متداولة .
والمثل : تشبيه شيء غير معلوم بشيء آخر معلوم وعجيب وبديع يَعْلَق في الذهن ، كما نصف لك إنساناً لم تَرَهُ بإنسان تعرفه . نقول هو مثل فلان . وهكذا كل التشبيهات : شيء تريد أن

تعلمه للمخاطب وهو لا يعلمه .

ومنه قوله تعالى : { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استوقد نَاراً فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ } [البقرة : 17]

وقوله تعالى : { فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فاقصص القصص لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف : 176]

وقوله تعالى : { مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 41] .

إذن : الأمثال : إعلام بشيء معلوم ليصل العلم فيه إلى شيء مجهول ، وكلمة (مثَل) استقلَّتْ بأن يكون المثَل بديعاً في النسج ، بليغاً موجزاً ، بحيث تتناقله الألسنة بسرعة في كلمات معدودة .

فلو وجدَت مثلاً تلميذاً مُهملاً تكاسل طوال العام ، ولم يذاكر ، فلما حضر الامتحان راح يجتهد في المذاكرة ، فتقول له : (قبل الرماء تملأ الكنائن) يعني : قبل أنْ تصطاد بالسهام يجب أنْ تُعِدّها أولاً وتملأ بها كنانتك ، فهذا مثَلٌ يُضرَب للاستعداد للأمر قبل حلوله .

ومن أمثلة أهل الريف يقولون : (أعْطِ العيش لخبازه ولو يأكل نصفه) ويُضرب لمن يجعل الصنعة عند غير صانعها والمتخصص فيها .

ويقولون فيمَنْ يُقصِّر في الأمر المنوط به : (باب النجار مخلع) .

وحين ترسل مَنْ يقضي لك حاجة فيفلح فيها ويأتي بالنتيجة المرجوة يقول لك : (أبدى المخْضُ عن الزبد) والمخضُ عملية خَضِّ اللبن في القِرْبة لفَصْل الزُّبْد عن اللبن .

وهكذا ، المثل قَوْل موجز بليغ قيل في مناسبته ، ثم استعمله الناس لخِفَّته وجماله وبلاغته في المواقف المشابهة ، والمثَل يظل على حالة الأول لا يغير ، ويجب الالتزام بنصِّه مع المفرد والمثنى والجمع ، ومع المذكر والمؤنث ، فمثلاً إنْ أرسلتَ رسولاً يقضي لك حاجة ، فعندما يعود تقول له : (ما وراءك يا عصام) هكذا بالكسر في خطاب المؤنث مع أنه رجل ، لماذا؟ لأن المثَل قيل أول ما قيل لمؤنث ، فظلَّ على هذه الصيغة من التأنيث حتى ولو كان المخاطَبُ مذكَّراً .

وقصة هذا المثَل أن الحارث ملك كندة أراد أن يتزوج أم إياس ، وبعثَ مَنْ تخطبها له ، وكان اسمها عصام ، فلما ذهبت إليها قالت لها أمها : إن فلانة جاءت تخطبك لفلان ، فلا تخفي عنها شيئاً ، ودعيها تشمُّك إنْ أرادت ، وناطقيها فيما استنطقتْك به ، فلما دخلتْ على الفتاة وأرادت أن ترى جسمها خلعتْ ثوبها ، وكشفتْ عن جسمها ، فقالت المرأة : (ترك الخداع من كشف القناع) فسارت مثلاً ، ثم عادت إلى الحارث فاستقبلها متعجلاً ردَّها فقال : (ما وراءكِ يا عصام) يعني : ما الخبر؟ فظلَّ المثل هكذا للمؤنث ، وإن خُوطِب به المذكر .

والحق – تبارك وتعالى – يضرب لكم هذا المثل ويقول : خذوه في بالكم ، وانتبهوا له ، وافتحوا له آذانكم جيداً واعقلوه؛ لأنه سينفعكم في علاقتكم برسول الله وبالمؤمنين .

والخطاب هنا مُوجَّه للناس كافّة ، لم يخُصّ أحداً دون أحد : { يأيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ . . } [الحج : 73] فلم يقُل يا أيها المؤمنون؛ لأن هذا المثَلَ مُوجَّه إلى الكفار ، فالمؤمنون ليسوا في حاجة إليه { فاستمعوا لَهُ . . } [الحج : 73] يعني : انصتوا وتفهَّموا مراده ومرماه ، لتسيروا في حركتكم على وَفْق ما جاء فيه ، وعلى وَفْق ما فهمتم من مغزاه .

فما هو هذا المثَل؟

{ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . } [الحج : 73] .

أي : الذين تعبدونهم وتتجهون إليهم من دون الله { لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً . . } [الحج : 73] وهو أصغر المخلوقات { وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . } [الحج : 73] يعني : تضافرَتْ جهودهم ، واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، وهذا ترقٍّ في التحدي ، حيث زاد في قوة المعاند .

كما ترقَّى القرآن في تحدِّي العرب ، فتحداهم أولاً بأنْ يأتوا بمثل القرآن ، ولأن القرآن كثير تحدّاهم بعشر سور فما استطاعوا ، فتحدَّاهم بسورة واحدة فلم يستطيعوا .

ثم يترقى في التحدي فيقول : اجمعوا كل فصحائكم وبلغائكم ، بل والجن أيضاً يساعدونكم ولن تستطيعوا : { قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ . . } [الإسراء : 88] .

وقوله تعالى : { لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً . . } [الحج : 73] جاءت بنفي المستقبل فلم يقُلْ مثلاً : لم يخلقوا ، فالنفي هنا للتأبيد ، فهم ما استطاعوا في الماضي ، ولن يستطيعوا أيضاً فيما بعد حتى لا يظن أحد أنهم ربما تمكّنوا من ذلك في مستقبل الأيام ، ونفي الفعل هكذا على وجه التأبيد؛ لأنك قد تترك الفعل مع قدرتك عليه ، إنما حين تتحدَّى به تفعل لتردّ على هذا التحدِّي ، فأوضح لهم الحق سبحانه أنهم لم يستطيعوا قبل التحدي ، ولن يستطيعوا بعد التحدي .

ثم يقول تعالى : { وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ . . } [الحج : 73] فقد تقول : إن عملية الخَلْق هذه عملية صعبة لا يُتحدَّى بها ، لذلك تحداهم بما هو أسهل من الخَلْق { وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ . . } [الحج : 73] وهل يستطيع أحد أن يُعيد ما أخذه الذباب من طعامه على جناحيه أو رجله أو خرطومه؟

وكانوا يذبحون القرابين عند الأصنام ، ويضعون أمامها الطعام ليباركوه ، فكانت الدماء تسيل عندها وتتناثر عليها ، فيحطّ عليها الذباب ، ويأخذ من هذه الدماء على أَرْجُله النحيفة هذه أو على أجنحته أو على خرطومه ، فتحدَّاهم أن يعيدوا من الذباب ما أخذه ، وهذه مسألة أسهل من مسألة الخَلْق .

ولك أنْ تُجرِّب أنت هذه العملية ، إذا وقع ذباب على العسل الذي أمامك ، فلا بُدَّ أن يأخذ منه شيئاً ولو كان ضئيلاً لا يُدرَك ولا يُوزَن ولا تكاد تراه ، لكن أتستطيع أنْ تُمسِك الذبابة وتردّ ما أخذتْ منك؟

لذلك يقول تعالى بعدها : { ضَعُفَ الطالب والمطلوب } [الحج : 73] يعني : كلاهما ضعيف ، فالذباب في ذاته ضعيف وهم كذلك ضعفاء ، بدليل أنهم لن يقدروا على هذه المسألة ، لكن هناك ضعيف يدَّعي القوة ، وضعيف قوته في أنه مُقِرٌّ بضعفه ، فالذباب وإنْ كان ضعيفاً إلا أن الله تعالى قال فيه : { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . } [البقرة : 26] يعني : ما فوقها في الصِّغر ، ليس المراد ما فوقها في الكبر كالعصفور مثلاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ . . }

.

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)

يعني : هؤلاء الكفار الذين عبدوا من دون الله آلهة لا تستطيع أن تخلق ذباباً ، ولا تستطيع حتى أنْ تردَّ من الذباب ما أخذه ، هؤلاء ما عرفوا لله قدره ، ولو عرفوا قَدْر الله ما عبدوا غيره .

والقَدْر : يعني مقدار الشيء ، وقلنا : إن مقادير الأشياء تختلف حسب ما تريده من معرفة المقادير ، فالطول مثلاً له مقياس يُقَاس به مقدار الطول ، لكن هذا المقياس يختلف باختلاف المقيس ، فإنْ أردتَ أنْ تقيسَ المسافة بين القاهرة والأسكندرية مثلاً لا تستخدم المللي أو السنتيمتر ولا حتى المتر ، إنما تستخدم الكيلومتر ، فإنْ أردت شراء قطعة من القماش تقول متر ، أما إنْ أردتَ صورة شخصية تقول سنتيمتر .

إذن : لكل شيء مقدار يُقدَّر به ، ومعيار يُقاس به ، فإنْ أردتَ المسافة تقيس الطول ، فإنْ أردت المساحة تقيس الطول في العرض ، فإنْ أردتَ الحجم تقيس الطول في العرض في الارتفاع ، الطول بالمتر والمساحة بالمتر المربع ، والحجم بالمتر المكعب . كذلك في الوزن تُقدِّره بالكيلو أو الرطل أو الجرام . . إلخ .

وقدر تأتي بمعنى : ضيَّق ، كما جاء في قوله تعالى : { وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ . . } [الفجر : 16] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ آتَاهُ الله . . } [الطلاق : 7] .

والمقدار كما يكون في الماديات يكون أيضاً في المعنويات ، فمثلاً تعبر عن الزيادة المادية تقول : فلان كبر يعني شَبَّ وزاد ، أما في المعنويات فيقول الحق سبحانه : كَبُرَ { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . . } [الكهف : 5] يعني : عَظُمتْ .

والحق – تبارك وتعالى – ليس مادة؛ لأنه سبحانه فوق المادة ، فمعنى المقدار في حقه تعالى

عظمته في صفات الكمال فيه { مَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ . . } [الحج : 74] ما عظّموه حَقَّ التعظيم الذي ينبغي له ، وما عرفوا قَدْره ، ولو عرفوا ما عبدوا غيره ، ولا عبدوا أحداً معه من هذه الآلهة التي لا تخلق ذباباً ، ولا حتى تسترد ما أخذه منهم الذباب ، فكيف يُسَوُّون هؤلاء بالله ويقارنونهم به عز وجل؟ إنهم لو عرفوا لله تعالى قَدْره لاستحيوا من ذلك كله .

ثم تُذيَّل الآية بقوله تعالى : { إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج : 74] فما مناسبة هاتين الصفتين للسياق الذي نحن بصدده؟

قالوا : لأن الحق – سبحانه وتعالى – تكلَّم في المَثَل السابق عَمَّنْ انصرفوا عن عبادته سبحانه إلى عبادة الأصنام وقال : { ضَعُفَ الطالب والمطلوب } [الحج : 73] فقال في مقابل هذا الضعف إن الله لقويٌّ ، قوة عن العابد؛ لأنه ليس في حاجة إلى عبادته ، وقوة عن المعبود لأنه لو شاء حَطَّمه ، وما دُمْتم انصرفتم عن الله وعبدتم غيره ، فهذا فيه مُضارَّة ، وكأن هناك معركة ، فإنْ كان كذلك فالله عزيز لا يغالب .

والآية : { مَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ . . } [الحج : 74] وردتْ في عدة مواضع في كتاب الله ، منها :

{ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ . . } [الأنعام : 91] فلم يعرفوا لله تعالى قَدْره لأنهم اتهموه ، وله سبحانه كمال العدل ، فكيف يُكلف عباده بعبادته ، ولا يبلغهم برسول؟ وهو سبحانه القائل : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15] .

فحين يقولون : { مَآ أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ . . } [الأنعام : 91] كأنهم يصِفُون الحق سبحانه بأنه يُعذِّب الناس دون أنْ يُبلِّغهم بشيء . ويردّ عليهم في هذه المسألة : { قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذي جَآءَ بِهِ موسى . . } [الأنعام : 91] .

وفي موضع آخر : { وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ . . } [الزمر : 67] .

ونقول : قَدّرَه حَقَّ قدره ، وقَدَره قَدْره ، كأن الأمور تختلف في تقدير الأشياء ، فمثلاً تنظر إلى حجرة فتقول : هذه تقريباً 5×4هذا تقدير إجمالي تقريبي ، إنما إنْ أخذت المقياس وقدَّرْتَ تقديراً حقيقياً ، فقد تزيد أو تنقص ، فالأول تقول : قدَّرْت الحجرة قَدْرها . والآخر تقول : قدرت الحجرة حَقَّ قَدرها .

وعليه فإنك إنْ أردت أنْ تُقدِّر الله تعالى حَقَّ قَدْره فإنك تقدِّره على قَدْر استيعاب العقل البشري ، إنما قَدْره تعالى حقيقة فلا تحيط به؛ لأن كمالاته تعالى لا تتناهى ولا تُدرَك إدراكاً تاماً .

ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه عن علم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين . ولما نزل قوله تعالى : {

يأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ . . } [آل عمران : 102] قال بعض الصحابة : ومَنْ يقدر على ذلك إنها مسألة صعبة أن نتقي الله التقوى الكاملة التي يستحقها عز وجل ، فأنزل الله تعالى : { فاتقوا الله مَا استطعتم . . } [التغابن : 16] ونزلت : { لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا . . } [البقرة : 286] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أثنى على الله تعالى يقول : « سبحانك ، لا نحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

لماذا؟ لأنه لا يملك أحد مهما أُوتِي من بلاغة الأسلوب أنْ يُثني على الله الثناء المناسب الذي يليق به سبحانه ، ومن رحمة الله تعالى بعباده أن تحمل عنهم هذه المسألة فأثنى الحق سبحانه على نفسه ، وعلَّمنا كيف نثني عليه سبحانه ، فإذا ما تحدث البليغ وأثنى على الله بفنون القول والثناء ، فإن العييَّ الذي لا يجيد الكلام يطمئن حيث يُثني على ربه بما علمه من الثناء ، وما وضعه من صيغ يقولها الفيلسوف ، ويقولها راعي الشاة .

ولولا أن الله تعالى علَّمنا صيغة الحمد في سورة الفاتحة فقال : { الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين } [الفاتحة : 2] ما تعلمنا هذه الصيغة ، فتعليم الله لعباده صيغة الحمد في ذاتها نعمة تستحق الحمد ، والحمد يستحق الحمد ، وهكذا في سلسلة لا تنتهي ، ليظل الحق – تبارك وتعالى – محموداً دائماً ، ويظل العبد حاملاً دائماً .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مسألة الألوهية وما ينبغي لها من صفات الكمال المطلق ، وحذر أنْ نُدخِل عليها ما ليس منها وما لا يستحقها ، وهذه قمة العقائد ، وبعد أن نؤمن بالإلهيات بهذا الصفاء ونُخلِّص إيماننا من كل ما يشوبه لا بُدَّ من البلاغ عن هذه القوة الإلهية التي آمنا بها ، والبلاغ يكون بإرسال الرسل .

لذلك قال سبحانه : { الله يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس . . }

.

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75)

إذن : المرحلة الثانية في الإيمان بعد الإيمان بالقمة الإلهية الإيمان بالرسل { الله يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس . . } [الحج : 75] .

والاصطفاء : اختيار نخبة من كثير ، واختيار القليل من الكثير دليل على أنها الخلاصة والصفوة ، كما يختلف الاصطفاء باختلاف المصطفي ، فإنْ كان المصطفِي هو الله تعالى فلا بُدَّ أنْ يختار خلاصة الخلاصة .

والاصطفاء سائر في الكون كله ، يصطفي من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفي من الزمان ، ويصطفي من المكان ، كما اصطفى رمضان من الزمان ، والكعبة من المكان . ولم يجعل

الحق سبحانه الاصطفاء لتدليل المصطفى على غيره ، إنما ليُشيع اصطفاءَه على خَلْق الله ، فما اصطفى رمضان على سائر الزمن – لا ليدلل رمضان – إنما لتأخذ منه شحنة تُقوّي روحك ، وتُصفّيها بقية الأيام ، لتستفيد من صالح عملك فيها .

وقد يتكرر الاصطفاء مع اختلاف متعلق الاصطفاء؛ لذلك وقف المستشرقون عند قول الله تعالى : { يامريم إِنَّ الله اصطفاك وَطَهَّرَكِ واصطفاك على نِسَآءِ العالمين } [آل عمران : 42] .

يقولون : ما فائدة تكرار الاصطفاء هنا؟ ولو تأملنا الآية لوجدنا فَرْقاً بين الاصطفاء الأول والآخر : الاصطفاء الأول اصطفاء؛ لأنْ تكوني عابدة تقية متبتلة منقطعة في محرابك لله ، أما الاصطفاء الآخر فاصطفاء على نساء العالمين جميعاً ، بأن تكوني أماً لمولود بلا أب ، فمُتعلِّق الاصطفاء – إذن – مختلف .

وتنقسم الملائكة في مسألة الاصطفاء إلى ملائكة مُصْطفاة ، وملائكة مُصْطَفًى منها . وفي آية أخرى يقول تعالى : { جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً . . } [فاطر : 1] يعني : كلهم لهم رسالة مع عوالم أخرى غيرنا .

أما في الآية التي معنا ، فالكلام عن الملائكة الذين لهم صلة بالإنسان أمثال جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، والحفظة الكاتبين والمكلفين بحفظ الإنسان ، فالله تعالى يصطفي هؤلاء ، أما الباقون منهم فالله مصطفيهم لعبادته فهم مُهيّمون لا يدرون عن هذا الخلق شيئاً ، وهم الملائكة العالون الذين قال الله عنهم في الحديث عن إبليس : { أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين } [ص : 75] يعني : الذين لم يشملهم الأمر بالسجود؛ لأن لهم مهمة أخرى .

ثم يقول تعالى : { إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [الحج : 75] السمع يتعلق بالأصوات ، والبصر يتعلق بالأفعال ، وهما كما قلنا عُمْدة الحواسّ كلها ، والحق سبحانه في قوله : { سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [الحج : 75] يُبيّن لنا أن رسله سيُوَاجَهُون بأقوال تؤذيهم واستهزاء ، وسيُقَابلون بأفعال تعرقل مسيرة دعوتهم ، فليكُنْ هذا معلوماً حتى لا يفُتّ في عَضُدهم ، وأنا معهم سميع لما يُقال ، بَصير بما يفعل ، فهُمْ تحت سمعي وبصري وكلاءتي .

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76)

{ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } [الحج : 76] ما أمامهم ، ويعلم أيضاً ما خلفهم ، فليعمل الإنسان ما يشاء ، فعِلْم الله محيط به .

{ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور } [الحج : 76] فالمرجع في النهاية إليه سبحانه ، فالحق – تبارك وتعالى – لم يخلق خَلْقه ليتركهم هَمَلاً ، إنما خلقهم لحكمة ، وجعل لهم نهاية يُجازَي فيها كُلٌّ بعمله ، فمَن تعب ونصب في سبيل دعوة الله وتحمّل المشاقّ في مساندة رسل الله فله جزاؤه ، ومَنْ جابَهم وعاندهم سواء بالأقوال السَّابّة الشاتمة المستهزئة ، أو بالأفعال التي تعوق دعوتهم ، فله

أيضاً ما يستحق من العقاب .

وبعد أن حدَّثنا ربنا عز وجل عن الإلهيات وعن الرسل التي تُبلِّغ عنه سبحانه ، يُحدثنا عن المنهج الذي سيأتون به لينظم حركة حياتنا ، هذا المنهج موجز في افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهو لا يشمل في أوامره ونواهيه كل حركات الحياة . فالأوامر والنواهي محصورة في عِدَّة أمور ، والباقي مباح؛ لأن الله تعالى وضع الأوامر والنواهي في الأصول التي تعصم حركة الحياة من الأهواء والنزوات ، وترك الباقي لاختيارك تفعله على أيِّ وجه تريد .

لذلك نرى العلماء يجتهدون ويختلفون في مثل هذه الأمور التي تركها الله لنا ، ولو أراد سبحانه لأنزل فيها حكماً محكماً ، لا يختلف عليه أحد . ولك أن تقول : ولماذا ترك الحق سبحانه هذه الأمور تتضارب فيها الأقوال ، وتختلف فيها الآراء ، وتحدث فيها نزاعات بين الناس؟

قالوا : هذا مراد الله؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان مُسخَّراً في أشياء ، ومختاراً في أشياء أخرى ، فللناس أن يتركوا المجتهد يجتهد ما وسعه الاجتهاد ، ثم يحكمون على ما وصل إليه أنه حق ، وآخر يجتهد ويقررون أنه باطل؛ لأن الله لو أراده على لون واحد لقاله ، إنما تركه محتملاً للآراء . إذن : أراد سبحانه أن تكون هذه الآراء لأن الإنسان كما هو محكوم بقهر في كثير من الكونيات وله اختيار في بعض الأمور ، كذلك الحال في التكليف ، فهو مقهور في الأصول التي لو حاد عنها يفسد العالم ، ومختار في أمور أخرى يصحّ فِعْلها ويصحّ تَرْكها .

يقول تعالى في هذا المنهج : { ياأيها الذين آمَنُواْ اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ . . }

.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77)

النداء في ضَرْب المثل السابق كان للناس كافَّة؛ لأنه يريد أنْ يَلفِت عُبَّاد الأصنام إلى هذا المثَل ، ويُسْمعهم إياه ، أمَّا هنا فالكلام عن منهج ودستور مُوجَّه ، خاصّة إلى الذين آمنوا ، لأنه لا يُكلَّف بالحكم إلا مَنْ آمن به ، أما مَنْ كفر فليس أَهْلاً لحمل هذه الأمانة؛ لذلك تركه ولم ينظم له حركة حياته . وكما قلنا في رجل المرور أنه يساعد مَن استعان به ووثق فيه ، فيدلّه ويرشده ، أما مَنْ شكَّ في كلامه وقلّلَ من شأنه يتركه يضل في مفترق الطرق .

فإذا ناداك ربك بما يكلفك به ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، كما في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ آمِنُواْ . . } [النساء : 136] .

وقد اعترض على أسلوب القرآن في هذه الآية بعض الذين يأخذون الآيات على ظاهرها ، يقولون : كيف يخاطبهم بيا أيها الذين آمنوا ثم يقول : آمِنوا ، كيف وهم يؤمنون بالفعل؟

قالوا : المراد يا أيها الذين آمنوا قبل سماع الحكم الجديد ظَلُّوا على إيمانكم في الحكم الجديد ، واستمِرّوا على إيمانكم؛ لذلك إذا طلبتَ شيئاً ممَّنْ هو موصوف به فاعلم أن المراد الدوام عليه .

كما أن هناك فَرْقاً بين الإيمان بالحكم وبين تنفيذ الحكم ، فقد تؤمن بالحكم أنه من الله ولا تشكّ فيه ولا تعترض عليه ، لكنك لا تنفذه وتعصاه ، فمثلاً في الحج يقول تعالى : { وَللَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت . . } [آل عمران : 97] الذي لله تعالى على عباده أنْ يحجوا البيت { مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً . . } [آل عمران : 97] وهذا شرط ضروري ، فلا تكليفَ بلا استطاعة ، ثم يقول : { وَمَن كَفَرَ } [آل عمران : 97] .

فهل يعني هذا أن مَنْ لم يحج فهو كافر؟

قالوا : لا ، لأن المراد : لله على الناس حكم يعتقده المؤمن ، بأن لله على الناس حج البيت ، فمن اعتقد هذا الاعتقاد فهو مؤمن ، أما كونه ينفذه أو لا ينفذه هذه مسألة أخرى .

ثم يبدأ أول ما يبدأ في التكليف بمسألة الصلاة : { اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ . . } [الحج : 77] لقد جاء الرسل من عند الله بتكاليف كثيرة ، لكن خَصَّ هنا الصلاة لأنها التكليف الذي يتكرر كل يوم خمس مرات ، أما بقية التكاليف فهي موسمية : فالصوم شهر في العام كله ، والحج مرة في العمر كله لمن استطاع ، والزكاة عند خروج المحصول لمن يملك النصاب أو عند حلول الحَوْل .

إذن : تختلف فريضة الصلاة عن باقي الفرائض؛ لذلك خَصَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمَنْ تركها فقد كفر » .

ويقول : « الصلاة عماد الدين » .

وخصَّها الحق – تبارك وتعالى – بظرف تشريعي خاص ، حيث فُرِضت الصلاة بالمباشرة ، وفُرِضت باقي الفرائض بالوحي .

وضربنا لذلك مثلاً – ولله المثل الأعلى – قلنا : إن رئيس العمل يمكن أن يرسل لك ورقة يقول : افعل كذا وكذا ، فإنْ كان أمراً هاماً اتصل بك تليفونياً ، وأخبرك بما يريد لأهميته ، فإنْ كان الأمر أهم من ذلك وجاء من جهة أعلى يقول لك : تعال عندي لأمر هام ، ويُكلِّفك به مباشرة ، وكذلك على حسب الأهمية يوجد ظرف التشريع .

فالصلاة لم تأت بالوحي كباقي الفرائض ، إنما جاءت مباشرة من المُوحِي سبحانه وتعالى؛ لأنها ستكون صلة بين العبد وربه ، فشاء أن يُنزّهَها حتى من هذه الواسطة ، ثم ميَّزها على غيرها من التكاليف ، فجعلها الفريضة التي لا تسقط عن المسلم بحال أبداً . فقد تكون فقيراً فلا تلزمك الزكاة ، وغير مستطيع فلا يلزمك حج ، ومريض أو مسافر فلا يلزمك صوم .

أما الصلاة فلا يُسقِطها عنك شيء من هذا كله ، فإنْ كنت غير قادر على القيام فلك أنْ تُصلّي قاعداً أو مضطجعاً أو راقداً ، تشير بطرفك لركوعك وسجودك ، ولو حتى تجري أفعال الصلاة على قلبك ، المهم أن تظلّ ذاكراً لربك متصلاً به ، لا يمر عليك وقت إلا وهو سبحانه في بالك

.

وقلنا : إن ذكر الله في الأذان والإقامة والصلاة ذِكْر دائم في كل الوقت لا ينقطع أبداً ، فحين تصلي أنت الصبح مثلاً غيرك يصلي الظهر ، وحين تركع غيرك يسجد ، وحين تقول : بسم الله الرحمن الرحيم . غيرك يقول : الحمد لله رب العالمين . . الخ .

فهي عبادة متداخلة دائمة لا تنقطع أبداً؛ لذلك يقول أحد أهل المعرفة مخاطباً الزمن : يا زمن فيك كل الزمن . يعني : في كل جزئية من الزمن الزمن كله ، كأنه قال : يا ظُهْر ، وفيك العصر ، وفيك المغرب ، وفيك العشاء ، وهكذا العالم كله يدور بعبادة لله لا تنتهي .

وذكر من الصلاة الركوع والسجود؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة ، لكن الركوع والسجود حركات يؤديها المؤمن المخلص ، ويؤديها المنافق ، وقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُمَيِّز هذا من هذا ، فقال : { وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ . . } [الحج : 77] .

فليست العبرة في حركات الركوع والسجود ، إنما العبرة في التوجّه بها إلى الله ، وإخلاص النية فيها لله ، وإلا أصبحت الصلاة مجرد حركات لا تعدو أن تكون تمارين رياضية كما يحلو للبعض أن يقول : الصلاة فيها تمارين رياضية تُحرِّك كل أجزاء الجسم ، نعم هي كما تقولون رياضة ، لكنها ليست عبادة ، العبادة أن تؤديها لأن الله تعالى أمرك بها .

ثم يقول تعالى : { وافعلوا الخير لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الحج : 77] .

والخير كلمة عامة تشمل كل أوامر التكليف ، لكن جاءت مع الصلاة على سبيل الإجمال ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فالخير – إذن – كلمة جامعة لكل ما تؤديه وظائف المناهج من خير المجتمع؛ لأن المنهج ما جاء إلا لينظم حركة الحياة تنظيماً يتعاون ويتساند لا يتعاند ، فإنْ جاء الأمر على هذه الصورة سَعِد المجتمع بأَسْره .

ولا تنْسَ أن المنهج حين يُضيِّق عليك ويُقيِّد حركتك يفعل ذلك لصالحك أنت ، وأنت المستفيد من تقييد الحركة؛ لأن ربك قيّد حركتك وضيَّق عليك حتى تُلحِق الشر بالآخرين ، وفي الوقت نفسه ضيّق على الآخرين جميعاً أن يتحركوا بالشر ناحيتك ، وأنت واحد وهم كثير ، فمن أجل تقييد حركتك قيّد لك حركة الناس جميعاً ، فمَنِ الكاسب في هذه المسألة .

الشرع قال لك : لا تسرق وأنت واحد وقال للناس جميعاً : لا تسرقوا منه ، وقال لك : غُضّ بصرك عن محارم الغير وأنت واحد . وقال لكل غير : غُضُّوا أبصاركم عن محارم فلان ، فكل تكليف من الله للخَلْق يعود عليك .

فالمعنى : { وافعلوا الخير } [الحج : 77] أي : الذي لا يأتي منه فساد أبداً ، وما دامت الحركات صادرة عن مراد لهوى واحد فإنها تتساند وتتعاون ، فإنْ كان لك هوى ولغيرك هوى تصادمتْ الأهواء وتعاندت ، والخير : كل ما تأمر به التكاليف المنهجية الشرعية من الحق تبارك

وتعالى .

ثم يقول سبحانه : { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الحج : 77] لكن ، أين سيكون هذا الفَلاَح : في الدنيا أم في الآخرة؟

الفلاَح يكون في الدنيا لمن قام بشرع الله والتزم منهجه وفعل الخير ، فالفَلاح ثمرة طبيعية لمنهج الله في أيِّ مجتمع يتحرك أفرادُه في اتجاه الخير لهم وللغير ، مجتمع يعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وعندها لن ترى في المجتمع تزاحماً ولا تنافراً ولا ظلماً ولا رشوة . . الخ هذا الفلاح في الدنيا ، ثم يأتي زيادة على فلاح الدنيا فلاح الآخرة .

إذن : لا تظنوا التكاليف الشرعية عِبْئاً عليكم؛ لأنها في صالحكم في الدنيا ، وبها فلاح دنياكم ، ثم يكون ثوابها في الآخرة مَحْض الفضل من الله .

وقد نبهنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه المسألة فقال : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا ، إلا أنْ يتغمّدني الله برحمته » ذلك لأن الإنسان يفعل الخير في الدنيا لصالحه وصالح دنياه التي يعيشها ، ثم ينال الثواب عليها في الآخرة من فضل الله كما قال تعالى : { وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ . . } [النساء : 173] .

وقوله تعالى : { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الحج : 77] نعرف أن لعل أداة للترجي ، وهو درجات بعضها أرْجى من بعض ، فمثلاً حين تقول : لعل فلاناً يعطيك ، فأنت ترجو غيرك ولا تضمن عطاءه ، فإنْ قلت : لعلّي أعطيك . فالرجاء – إذن – في يدك ، فهذه أرجى من سابقتها ، لكن ما زلنا أنا وأنت متساويين ، وربما أعطيك أولاً ، إنما حين تقول : لعل الله يعطيك فقد رجوْتَ الله ، فهذه أرجى من سابقتها ، فإذا قال الله تعالى بذاته : لعلي أعطيك فهذا أقوى درجات الرجاء وآكدها؛ لأن الوعد من الله والرجاء فيه سبحانه لا يخيب .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجتباكم وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ . . }

.

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

معنى { حَقَّ جِهَادِهِ . . } [الحج : 78] كالذي قلناه في { مَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ } [الحج : 74] لأن الجهاد أيضاً يحتاج إلى إخلاص ، وأنْ تجعل الله في بالك ، فربما خرجتَ لمجرد أن تدفع اللوم عن نفسك وحملتَ السلاح فعلاً ودخلت المعركة ، لكن ما في بالك أنها لله وما في بالك

إعلاء كلمة الله ، كالذي يقاتل للشهرة وليرى الناس مكانته ، أو يقاتل طمعاً في الغنائم ، أو لأنه مغتاظ من العدو وبينه وبينه ثأر ، ويريد أن ينتقم منه ، هذه وغيرها أمور تُخرِج القتال عن هدفه وتُفرغه من محتواه .

لذلك لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمَنْ في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » « وهذا هو حق الجهاد ، وأنت فيه حكَم على نفسك ، لأن ميزان ذلك في يدك

. وقد تسأل : ولماذا الجهاد؟ قالوا : لأنك إذا انتفعتَ بالمنهج تطبيقاً له بعد التحقيق الذي أتى به الرسل تنفع نفسك ، لكن ربك – عز وجل – يريد أنْ يُشيع النفع لمن معك أيضاً ، وهذا لا يتأتّى إلا بالجهاد بالنفس أو المال أو أي شيء محبوب ، وإلا فكيف ستربح الصفقة التي قال الله تعالى عنها : { إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة . . } [التوبة : 111] .

وكما أن للجنود في ساحة القتال مهمة ، كذلك لمن قعد ولم يخرج مهمة : الجندي حين يقتحم الأهوال والمخاطر ويُعرِّض نفسه للموت ، فهذا يعني أنه دخل المعركة وما عرَّض نفسه للموت ، فهذا يعني أنه ما دخل المعركة وما عرَّض نفسه للقتل إلا وهو واثق تمام الثقة ، أن ما يذهب إليه بالقتل خير مما يناله بالجُبْن ، وهذا يشجع الآخرين ويحثّهم على القتال .

لذلك ، في غزوة بدر لما سمع الصحابي كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أجر الشهيد وكان في فمه تمرة يمصُّها ، فقال : يا رسول الله ، أليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أُقتل في سبيل الله؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فيه وخرج لتوِّه إلى الجهاد لأنه واثق تمام الثقة أن ما سيذهب إليه بالشهادة خير مما ترك .

أما الذين بَقَوْا ولم يخرجوا ، فمهمتهم أن يحملوا المنهج ، وأنْ يحققوه ، وإلا لو خرج الجميع إلى القتال واستشهدوا جميعاً ، فمَنْ يحمل منهج الله وينشره؟

وجاءت كلمة الجهاد عامة لتشمل كل أنواع الجهاد ، فإذا ما أثمر الجهاد ثمرته وتعلبنا على الكفر فلم يَعُدْ هناك كفار ، أو خَلَّوْا طريق دعوتنا وتركونا ، وأحبوا أنْ يعيشوا في بلادنا أهل ذمة ، فلا داعي – إذن – للقتال ، ويتحول الجهاد إلى ميدان آخر هو جهاد النفس .

لذلك قال تعالى بعدها : { هُوَ اجتباكم . . } [الحج : 78] يعني : اختاركم واصطفاكم لتكونوا خير أمة أُخرجت للناس ، وثمن هذا الاجتباء أن نكون أهلاً له ، وعلى مستوى مسئوليته ، وأنْ نحقق ما أراده الله منّا .

كما ننصح جماعة من أهل الدعوة الذين حملوا رايتها ، نقول لهم : لقد اختاركم الله ، فكونوا

أَهْلاً لهذا الاختيار ، واجعلوا كلامه تعالى في محلّه .

ثم يقول سبحانه : { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ . . } [الحج : 78] يعني : ما اجتباكم ليُعنتكم ، أو ليُضيّق عليكم ، أو ليُعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعَل الأمر كله يُسْر ، وشرعه على قَدْر الاستطاعة ، ورخَّص لكم ما يُخفِّف عنكم ، ويُذهِب عنكم الحرج والضيق ، فمَنْ لم يستطع القيام صلى قاعداً ، ومَنْ كان مريضاً أفطر ، والفقير لا زكاة عليه ولا حج . . الخ .

كما قال سبحانه في موضع آخر : { وَلَوْ شَآءَ الله لأَعْنَتَكُمْ . . } [البقرة : 220] لكنه سبحانه ما أعنتكم ولا ضَيَّق عليكم ، وما كلَّفكم إلا ما تستطيعون القيام به .

وقوله تعالى : { مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } [الحج : 78] كلمة (ملة) جاءت هكذا بالنصب ، لأنها مفعول به لفعل تقديره : (الزموا) مِلة أبيكم إبراهيم؛ لأنكم دعوته حين قال : { رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ . . } [البقرة : 128]

ومن دعوة إبراهيم عليه السلام : { رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ . . } [البقرة : 129] لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبُشْرى عيسى » .

يعني : من ذريته وذرية ولده إسماعيل { وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا . . } [البقرة : 128] أعطنا التكاليف ، وكأنه مُتشوِّق إلى تكاليف الله ، وهل يشتاق الإنسان للتكليف إنْ كان فيه ضيق أو مشقة؟ وكذلك كان صحابة النبي صلى الله عليه وسلم يعشقون تكاليف الإسلام ، ويسألون عنها رسول الله رغم قوله لهم : « ذروني ما تركتكم » إلا أنهم كانوا يسألون عن أمور الدين ليبنوا حياتهم الجديدة ، لا على ما كانت الجاهلية تفعله ، بل على ما أمر به الإسلام .

ولنا مَلْحظ في قوله تعالى : { مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ . . } [الحج : 78] .

نقول : الإسلام انقياد عَقَديٌّ للجميع ، وفي أمة الإسلام مَنْ ليس من ذرية إبراهيم ، لكن إبراهيم عليه السلام أبٌ لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، والرسول أب لكل مَنْ آمن به؛ لأن أبوة الرسول أبوة عمل واتباع ، كما جاء في قول الله تعالى في قصة نوح عن ابنه : { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ . . } [هود : 46] .

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم أباً لكل مَنْ آمن به سَمَّى الله زوجاته أمهات للمؤمنين ، فقال سبحانه : { النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ . . } [الأحزاب : 6] .

وما دامت الأزواج أمهات ، فالزوج أب ، وبناءً على هذه الصلة يكون إبراهيم عليه السلام أباً لأمة الإسلام ، وإنْ كان فيهم مَنْ ليس من سلالته .

ونجد البعض ممَّنْ يحبون الاعتراض على كلام الله يقولون في مسألة أبوة الرسول لأمته : لكن القرآن قال غير ذلك ، قال في قصة زيد بن حارثة :

{ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ . . } [الأحزاب : 40] فنفى أن يكون محمد أباً لأحد ، وفي هذا ما يناقض كلامكم .

نقول : لو فهمتم عن الله ما اعترضتُم على كلامه ، فالله يقول : ما كان محمد أباً لأحدكم ، بل هو أب للجميع ، فالمنفيّ أن يكون رسول الله أباً لواحد ، لا أن يكون أباً لجميع أمته . وقال بعدها : { ولكن رَّسُولَ الله . . } [الأحزاب : 40] وما دام رسول الله ، فهو أب للكل .

ثم يقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام : { هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ . . } [الحج : 78] يعني : إبراهيم عليه السلام سماكم المسلمين ، فكأن هذه مسألة واضحة وأمْر معروف أنكم مسلمون منذ إبراهيم عليه السلام : { وَفِي هذا لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس . . } [الحج : 78] .

وفي موضع آخر يحدث تقديم وتأخير ، فيقول سبحانه : { لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً } [البقرة : 143] .

لماذا؟ قالوا : لأن رسول الله بلَّغ رسالة الله ، وأشهد الله على ذلك حين قال : « اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد » أشهد أنِّي بلغتُ ، وهو صلى الله عليه وسلم يريد من أمته أن يكون كل شخص فيها حاملاً لهذه الرسالة ، مُبلِّغاً لها حتى يسمع كلام الرسول مَنْ لم يحضره ولم يَرَهُ ، وهكذا يكون الرسول شهيداً على مَنْ آمن به ، ومَنْ آمن شهيداً على مَنْ بلّغه .

لذلك من شرف أمة محمد أولاً أنه لا يأتي بعده رسول؛ لأنهم مأمونون على منهج الله ، وكأن الخير لا ينطفيء فيهم أبداً . وقلنا : إن الرسل لا يأتون إلا بعد أنْ يعُمَّ الفساد ، ويفقد الناس المناعة الطبيعية التي تحجزهم عن الشر ، وكذلك يفقدها المجتمع كله فلا ينهى أحد أحداً عن شر؛ عندها يتدخل الحق سبحانه برسول ومعجزة جديدة ليُصلح ما فسد .

فختام الرسالات بمحمد صلى الله عليه وسلم شهادة أن الخير لا ينقطع من أمته أبداً ، ومهما انحرف الناس سيبقى جماعة على الجادة يحملون المنهج ويتمسكون به ويكونون قدوة لغيرهم .

لذلك حدَّد رسول الله هذه المسألة فقال : « الخير فيَّ حصراً ، وفي أمتي نثراً » فالخير كله والكمال كله في شخص رسول الله ، ومنثور في أمته .

ثم يعود السياق إلى الأمر بالصلاة : { فَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة . . } [الحج : 78] لأنها الفريضة الملازمة للمؤمن ، وفيها إعلاء الولاء المكرر في اليوم خمس مرات ، وبها يستمر ذِكْر الله على مدى الزمن كله لا ينقطع أبداً في لحظة من لحظات الزمن حين تنظر إلى العالم كله ، وتضم بعضه إلى بعض .

والمتأمل في الزمن بالنسبة للحق – تبارك وتعالى – يجده دائماً لا ينقطع ، فاليوم مثلاً عندنا أربع وعشرون ساعة ، واليوم عند الله ألف سنة مما تعدُّون ، واليوم في القيامة خمسون ألف سنة ، وهناك يوم اسمه يوم الآن أي : اللحظة التي نحن فيها ، وهو يوم الله الذي قال عنه :

{ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } [الرحمن : 29] لذلك يقول : ما شغل ربك الآن وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ؟ قال : « أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ، ويضع آخرين » .

فيوم الآن يوم عام ، لا هو يوم مصر ، ولا يوم سوريا ، ولا يوم اليابان إذن : في كل لحظة يبدأ لله يوم ينتهي يوم ، فيومه تعالى مستمر لا ينقطع .

ونقرأ في الحديث النبوي الشريف : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسِيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء الليل » .

نهار مَنْ؟ وليل مَنْ؟ فالنهار والليل في الزمن دائم لا ينقطع ، وفي كل لحظة من لحظات الزمن ينتهي يوم ويبدأ يوم ، وينتهي ليل ويبدأ ليل . إذن : فالله تعالى يده مبسوطة دائماً لا يقبضها أبداً ، كما قال سبحانه : { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ . . } [المائدة : 64]

ثم يقول سبحانه : { واعتصموا بالله } [الحج : 78] الجئوا إليه في الشدائد ، وهذا يعني أنكم ستُواجهون وتُضطهدون ، فما من حامل منهج لله إلا اضُطهد ، فلا يؤثر فيكم هذا ولا يفُتُّ في عَضُدكم ، واجعلوا الله ملجأكم ومعتصمكم في كل شدة تداهمكم ، كما قال سبحانه : { لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ } [هود : 43] .

واعتصامكم بالله أمر لا تأتون إليه بأنفسكم إنما { هُوَ مَوْلاَكُمْ } [الحج : 78] يعني : المتولّي لشأنكم ، وما دام هو سبحانه مولاكم { فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير }

.

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1)

لما قال الحق – تبارك وتعالى – في الآية قبل السابقة من سورة الحج { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . . } [الحج : 77] ولعلَّ تفيد الرجاء ، أراد سبحانه أن يؤكد هنا على فلاح المؤمنين فقال : { قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون } [المؤمنون : 1] وأن الرجاء من الله واقع ومؤكد ، لذلك جاء بأداة التحقيق { قَدْ } التي تفيد تحقُّق وقوع الفعل ، وهكذا تنسجم بداية سورة (المؤمنون) مع نهاية سورة (الحج) .

وقوله تعالى هناك { تُفْلِحُونَ } [الحج : 77] وهنا { أَفْلَحَ } [المؤمنون : 1] مادة (فلح) مأخوذة من فلاحة الأرض ، والفَلْح هو الشق؛ لذلك قالوا : إن الحديد بالحديد يفلح ، وشَقُّ الأرض : إهاجتها وإثارتها بالحرث ، وهذه العملية هي أساس الزرع ، ومن هنا سُمِّي الزرع حَرْثاً في قوله سبحانه : { وَمِنَ الناس مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحياة الدنيا وَيُشْهِدُ الله على مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخصام * وَإِذَا تولى سعى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحرث والنسل } [البقرة : 204 – 205] .

ومعنى أفلح : فاز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير .

والأرض حين تحرثها تكون خالية ليس فيها شيء يُهْلَك ، إذن : المراد بالحرث هنا الزرع الناتج عن عملية الحرث ، والتي لا بُدَّ منها كي تتم عملية الزراعة؛ لأنك بالحرث تثير التربة ليتخللها الهواء ، فيزيد من خصوبتها وصلاحها لاستقبال البذرة ، وسبق أن تحدثنا عن عملية الإنبات ، وكيف تتم ، وأن النبات يتغذى على فَلْقتي البذرة إلى أن يصبح له جذر قوي يستطيع أن يمتصّ من التربة ، فإن ألقيتَ البذرة في أرض صماء غير مثارة فإن الجذر يجد صعوبة في اختراق التربة والامتصاص منها .

فالحق – تبارك وتعالى – يعطينا صورة من واقعنا المشاهد ، ويستعير من فلاحة الأرض ليعبر عن فلاح المؤمن وفوزه بالنعيم المقيم في الآخرة ، فالفلاح يحرث أرضه ويسقيها ويرعاها فتعطيه الحبة بسبعمائة حبة ، وهكذا سيكون الجزاء في الآخرة : { مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة : 261] .

فإذا كانت الأرض المخلوقة لله عز وجل تعطي كل هذا العطاء ، فما بالك بعطاء مباشر من خالقك وخالق الأرض التي تعطيك؟ وكما أن الفلاح إذا تعب واجتهد زاد محصوله ، كذلك المؤمن كلما تعب في العبادة واجتهد زاد ثوابه وتضاعف جزاؤه في الآخرة

.

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)

كان أول ظاهرية الفلاح في الصلاة ، وما يزال الحديث عنها موصولاً بما قاله ربنا في الآيات السابقة : { ياأيها الذين آمَنُواْ اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ . . } [الحج : 77] وقال بعدها : { فَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة . . } [الحج : 78] .

وهنا جعل أول وصف للمؤمنين الذين أفلحوا { الذين هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } [المؤمنون : 2] فلم يقل مثلاً : مؤدون؛ لأن أمر أداء الصلاة في حق المؤمنين مفروغ منه ، العبرة هنا بالهيئة والكيفية ، العبرة بالخشوع والخضوع وسكينة القلب وطمأنينته واستحضار الله الذي تقف بين يديه .

كما تقول لولدك : اجلس أمام المعلم باهتمام ، واستمع إليه بإنصات ، فأنت لا توصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس ، فهذا أمر مفروغ منه؛ لذلك تهتم بجوهر الموضوع والحالة التي ينبغي أن يكون عليها .

والخشوع أن يكون القلب مطمئناً ساكناً في مهمته هذه ، فلا ينشغل بشيء آخر غير الصلاة؛ لأن الله ما جعل لرجل من قلبين في جوفه ، وما دام في حضرة ربه عز وجل فلا ينبغي أن ينشغل بسواه ، حتى إن بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول : إن الذي يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ

على يساره في الصف تبطل صلاته .

ولما دخل سيدنا عمر – رضي الله عنه – على رجل يصلي ويعبث بلحيته ، فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك .

ذلك لأن الجوارح تستمد طاقتها من القلب ومن الدم الذي يضخه فيها ، فلو شغل القلب عن الجوارح ما تحركت .

لذلك لما سأل أحد الفقهاء صوفياً : ما حكم مَنْ سها في صلاته؟ قال : حكمه عندنا أم عندكم؟ قال : ألنا عند ولكم عند؟ قال : نعم ، عند الفقهاء مَنْ يسهو في الصلاة يجبره سجود السهو ، أما عندنا فمَنْ يسهو في الصلاة نقتله . يعني مسألة كبيرة .

ثم ألاَ يستحق منك ربك وخالقك أن تتفرغ له سبحانه على الأقل وقت صلاتك ، وهي خمس دقائق في كل وقت من الأوقات الخمسة ، وقد تركك باقي الوقت تفعل ما تشاء؟ اتستكثر على ربك أن تُفرّغ له قلبك ، وأن تستحضره سبحانه ، وهذه العملية في صالحك أنت قبل كل شيء ، في صالحك أن تكون في جلوة مع ربك تستمد منه سبحانه الطاقة والمعونة ، وتتعرض لنفحاته وإشراقاته وتقتبس من أنواره وأسراره؟

ومن حرص أهل التقوى على سلامة الصلاة وتمامها قال أحدهم لصاحبه الذي يحرص على أنْ يؤم الناس : لماذا تحرص على الإمامة وأنت تعرف أن طالب الولاية لا يُولَّى؟ قال : نعم أحرص عليها لأخرج من الخلاف بين الشافعي الذي قال بقراءة الفاتحة خلف الإمام ، وأبي حنيفة الذي قال بأن قراءة الإمام قراءة للمأموم ، فأحرص على الإمامة حتى أقرأ أنا ، ولا أنشغل بهذا الخلاف .

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3)

اللغو : الكلام الذي لا فائدة منه ، ويُطلق أيضاً على كل فعل لا جدوى منه ، وفي موضع آخر يقول تعالى : { وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً } [الفرقان : 72] لا يشغلون به ولا يأبهون له ، وحكى القرآن عن الكفار عند سماعهم القرآن قولهم : { لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ . . } [فصلت : 26] .

لذلك جعل الحق – تبارك وتعالى – من نعيم الجنة : { لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً } [الواقعة : 25 – 26] كأن من المعايب في الدنيا ومن مصائبها أن نسمع فيها لغواً كثيراً لا فائدة منه ، وفي آية أخرى يقول عن خمر الآخرة التي لا تُذهب العقل ، ولا تجعل صاحبها يهذي بلغو الكلام : { يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ } [الطور : 23] .

و { مُّعْرِضُونَ } [المؤمنون : 3] الإعراض في الأصل تجنّب الشيء ، وهو صورة لحركة إباء النفس لشيء ما . وأهل المعرفة يضعون للغو مقياساً ، فيقولون : كل عمل لا تنال عليه ثواباً من

الله فهو لغو .

لذلك احرص دائماً أن تكون حركتك كلها لله حتى تُثَابَ عليها ، كصاحبنا الذي دخل عليه رجل وقصده في قضاء أمر من الأمور وهو لا يملك هذا الأمر ، لكن أراد أنْ يستغل فرصة الخير هذه ، وأن يكون له ثواب حتى في حركة الامتناع عنه ، فرفع يده : اللهم إنه عبد قصد عبداً وأنا آخذ بيده وأقصد رباً ، فاجعل تصويب خطئه في قصدي تصويباً لقصدك . يعني : أنا وإنْ كنتُ لا أقدر على قضائها إلا أنني أدخل بها على الله من هذه الناحية .

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4)

الزكاة أولاً تطلق على معنى التطهير ، كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } [التوبة : 103] لأن الغفلة قد تصيب الإنسان حال جمع المال ، فيخالط ماله ما فيه شبهة مثلاً ، فيحتاج إلى تطهير ، وتطهير المال يكون بالصدقة منه .

والزكاة بمعنى النماء ، فبعد أن تُطهر المال تُنمّيه وتزيده ، كما جاء في قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا } [الشمس : 9] يعني : نمِّى ملَكة الخير فيها ، ورقَّاها وصعَّدها بأن ينظر إلى العمل إنْ كان سينقص منك في الظاهر ، إلا أنه سيجلب لك الخير فيما بعد ، فترتقي بذلك ملكَات الخير في نفسك .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن الربا ، وهو الزيادة جمع المتناقضات في آية واحدة ، فالربا يزيد المال ويأخذ المرابي المائة مائة وعشراً ، في حين تنقص الزكاة من المال في الظاهر ، فالمائة بعد الزكاة تصبح سبعة وتسعين ونصفاً ، ثم تأتي الآية لتضع أمامك المقياس الحقيقي : { يَمْحَقُ الله الربا وَيُرْبِي الصدقات } [البقرة : 276] ، فالربا الذي تظنه زيادة هو مَحْقٌ ، والذي تظنه نقصاً هو بركة وزيادة ونماء .

وفي آية أخرى يقول تعالى : { وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ الناس فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فأولئك هُمُ المضعفون } [الروم : 39] أي : الذين يضاعف الله لهم ويزيدهم .

وكما أمرنا ربنا – تبارك وتعالى – بالخشوع في الصلاة أمرنا كذلك في الزكاة ، فلم يقل : مؤدون . ولكن { فَاعِلُونَ } [المؤمنون : 4] وهذه من تربية مقامات العبادة في الإنسان ، فأنت حين تصلي ينبغي أن تخشع وتخضع في صلاتك لله ، وكذلك حين تُزكّي تُرقّي ملكَة الخير في نفسك ، فحين تعمل وتسعى لا تعمل على قَدْر حاجتك ، وإنما على قَدْر طاقتك ، فتأخذ من ثمرة سَعْيك حاجتك ، وفي نيتك أن تُخرِج من الباقي زكاة مالك وصدقتك ، فالزكاة – إذن – في بالك وفي نيتك بدايةً .

ثم يقول الحق سبحانه : { والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ . . }

.

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5)

الفروج : جمع فَرْج ، والمقصود سَوْءَتَا كُلٍّ من الرجل والمرأة ، وقد أمر الله تعالى بحفظها على المهمة التي خُلقت من أجلها ، ومهمة هذه الأعضاء إما إخراج عادم الجسم من بول أو غائط ، أو العملية الجنسية وهدفها حِفْظ النسل ، وعلى الإنسان أن يحفظ فرجه على ما أحلّه له في قوله تعالى : { إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ . . }

.

إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6)

أي : يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم؛ لأن الله أحلها { أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ . . } [المؤمنون : 6] ومِلْك اليمين حلال لم يَعُد له موضع ، ولم يَعُد له وجود الآن ، وقد حرم هذا القانون البشري الدولي ، فلم يعد هناك إماء كما كان قبل الإسلام ، فهذا حكم مُعطّل لم يَعُدْ له مدلول ، وفرق بين أن يُعطّل الحكم لعدم وجود موضوعه وبين أن يُلْغى الحكم ، فمِلْك اليمين حكم لم يُلْغ ، الحكم قائم إنما لا يوجد له موضوع .

ولتوضيح هذه المسألة : هَبْ أنك في مجتمع كله أغنياء ، ليس فيهم فقير ولا مستحق للزكاة عندها تقول : حكم الزكاة مُعطّل ، فهي كفريضة موجودة ، لكن ليس لها موضوع .

وبعض السطحيين يقولون : لقد ألغى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – سهام المؤلفة قلوبهم ، والحقيقة أنه ما ألغى ولا يملك أن يُلغي حكماً من أحكام الله ، إنما لم يجد أحداً من المؤلّفة قلوبهم ليعطيه ، فالحكم قائم لكن ليس له موضوع ، بدليل أن حكم تأليف القلوب قائم ومعمول به حتى الآن في بلاد المسلمين ، وكثيراً ما نحاول تأليف قلوب بعض الكُتّاب وبعض الجماعات لنعطفها نحو الإسلام ، خاصة وغيرنا يبذلون قصارى جهودهم في ذلك . إذن : فسَهْم المؤلفة قلوبهم ما زال موجوداً ويُعمل به .

كما نسمع مَنْ يقول : إن عمر – رضي الله عنه – عطَّل حَدَّ السرقة في عام الرمادة ، وهذا ادعاء مخالف للحقيقة؛ لأنه ما عطّل هذا الحد إنما عطَّل نصاً وأحيا نصاً؛ لأن القاعدة الشرعية تقول : ادرأوا الحدود بالشبهات . وما دام قد سرق ليسُدَّ جَوْعته فلم يصل إلى نصاب السرقة ، فالسرقة تكون بعد قدر يكفي الضرورة .

ولقائل أن يقول : إذا دارت حرب بين المؤمنين والكافرين وأسروا منا وأسرنا منهم ، ألا يوجد

حينئذ مِلْك اليمينِ؟ نقول : نعم يوجد مِلْك اليمين ، لكن ستواجهك قوانين دولية ألزمتَ نفسك بها وارتضيتها تقول بمنع الرقِّ وعليك الالتزام بها ، لكن إنْ وُجِد الرقُّ فمِلْك اليمين قائم وموجود . وهذه المسألة يأخونها سُبّة في الإسلام ، وكيف أنه يبيح للسيد كذا وكذا من مِلْك يمينه .

وهذا المأخذ ناشيء عن عدم فهم هؤلاء للحكمة من مِلْك اليمين ، وأن كرامة المملوكة ارتفعت بهذه الإباحة ، فالمملوكة أُخِذت في حرب أو خلافه ، وكان في إمكان مَنْ يأخذها أن يقتلها ، لكن الحق سبحانه حمى دمها ، ونمَّى في النفس مسألة النفعية ، فأباح لمَنْ يأسرها أن ينتفع بها وأحلّها له أيضاً .

ولك أن تتصور هذه الأَمَة أو الأسيرة في بيت سيدها ومعه زوجة أو أكثر وهي تشاهد هذه العلاقات الزوجية في المجتمع من حولها ، إن من حكمة الله أن أباح لسيدها معاشرتها؛ لأنها لن ترى لربة البيت بعد ذلك مزيّة عليها؛ لأنهما أصبحا سواء ، فإذا ما حملتْ من سيدها فقد أصبحتْ حُرَّة بولدها ، وكأن الحق سبحانه يُسيِّر الأمور تجاه العِتْق والحرية . ألاَ تراه بعد هذا يفتح باب العتق ويُعدِّد أسبابه ، فجعله أحد مصارف الزكاة وباباً من أبواب الصدقة وكفَّارة لبعض التجاوزات التي يرتكبها الإنسان .

ثم يقول سبحانه : { فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ } [المؤمنون : 6] يعني : لا نمدحهم ولا نذمُّهم ، وكأن المسألة هذه في أضيق نطاق .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك . . }

.

فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7)

{ ابتغى } : طلب ، { وَرَآءَ ذلك } : غير ما ذكرناه من الأزواج ومِلْك اليمين .

وسبق أن ذكرنا أن كلمة { وَرَآءَ } استُعمْلت في القرآن لمعَان عدة ، فهي هنا بمعنى غير الأزواج ومِلْك اليمين . ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : { . . وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذلكم } [النساء : 24] يعني : حرَّمْت عليكم كذا وكذا ، وأحلَلْتُ لكم غير ما ذُكِر .

وتُستعمل وراء بمعنى بَعْد؛ لأن الغيرية قد تتحد في الزمن ، فيوجد الاثنان في وقت واحد ، أمّا البعدية فزمنها مختلف ، كما قوله تعالى : { وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } [هود : 71] يعني : من بعده؛ لأن الزمن مختلف .

وتأتي وراء بمعنى : خلف ، كما في قوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الذين أُوتُواْ الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ واشتروا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } [آل عمران : 187] يعني : جعلوه خلف ظهورهم .

وتأتي وراء أيضاً بمعنى أمام ، كما في قوله تعالى : { وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً } [الكهف : 79] ومعلوم أن الملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة تمرُّ به فيأخذها غَصْباً .

وقوله تعالى : { مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ . . } [ابراهيم : 16] وجهنم أمامه ، وستأتي فيما بعد ، ولم تَمْضِ فتكون خلفه .

ومعنى : { فأولئك هُمُ العادون . . } [المؤمنون : 7] أي : المعتدون المتجاوزون لما شُرع لهم ، وربنا – تبارك وتعالى – حينما يُحذِّرنا من التعدي يُفرِّق بين التعدي في الأوامر ، والتعدي في النواهي ، فإنْ كان في الأوامر يقول : { فَلاَ تَعْتَدُوهَا } [البقرة : 229] .

وإن كان في النواهي يقول : { فَلاَ تَقْرَبُوهَا } [البقرة : 187] .

ثم يقول الحق سبحانه : { والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ . . }

.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8)

{ رَاعُونَ } : يعني يحافظون عليها ويراعونها بالتنفيذ ، والأمانة : كل ما استُؤمِنْت عليه ، وأول شيء استؤمِنتَ عليه عهد الإيمان بالله الذي أخذه الله عليك ، وما دُمْت قد آمنت بالإله فعليك أن تُنفِّذ أوامره .

إذن : هناك أمانة للحق وأمانة للخَلْق ، أمانة الحق التي قال الله تعالى عنها : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب : 72] .

فما دُمْتَ قد قبلت تحمُّل الأمانة ، فعليك الأداء .

أما العهد : فكل ما يتعهد به الإنسان في غير معصية ويلزمه الوفاء بما عاهد به؛ لأنك حين تعاهد إنساناً على شيء فقد ربطْتَ حركته وقيدتها في دائرة إنفاذ هذا العهد ، فحين تقول لي : سأقابلك غداً في المكان الفلاني في الوقت الفلاني لعمل كذا وكذا ، فإنني سأُرتِّب حركة حياتي بناءً على هذا الوعد ، فإذا أخلفتَ وعدك فقد أطلقتَ نفسك في زمنك وتصرفت حسْب راحتك ، وقيَّدْت حركتي أنا في زمني وضيَّعت مصالحي ، وأربكت حركة يومي؛ لذلك شدَّد الإسلام على مسألة خُلْف الوعد .

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9)

في الآيات السابقة تحدّث عن الصلاة من حيث هيئة الخشوع والخضوع فيها ، وهنا يذكر الصلاة من حيث أدائها والحفاظ عليها؛ لأن الحفظ يعني أن تأخذ كل وقت من أوقات الصلاة بميلاده

وميلاد الأوقات بالأذان ، لكن البعض يقولون : إن الوقت مُمْتدٌّ ، فالظهر مثلاً مُمْتد من أذان الظهر إلى قبل أذان العصر ، وهكذا في باقي الصلوات .

نقول : نعم هذا صحيح والوقت مُمتد ، لكن مَنْ يضمن لك الحياة إلى آخر الوقت؟ مَنْ يضمن لك أن تصلي العشاء مثلاً قبل أذان الفجر؟ نعم ، تظل غير آثم إلى آخر لحظة إذا تمكنتَ من الصلاة وصلَّيْتَ ، لكن هل تضمن هذا؟ كالذي يستطيع أن يحج ، إلا أنه أخّر الحج إلى آخر أيامه ، فإنْ حج فلا شيء عليه ، لكنه لا يضمن البقاء إلى أنْ يحج؛ لذلك يجب المبادرة بالحج عند أول استطاعة حتى لا تأثم إنْ فاتك وأنت قادر .

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10)

{ أولئك } [المؤمنون : 10] يعني : أصحاب الصفات المتقدمة ، وهم ستة أصناف : الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون .

هؤلاء هم الوارثون ، والإرْث : أَخْذ حق من غير عقد أو هبة؛ لأن أَخْذ مال الغير لا بُدَّ أن يكون إما ببيع وعقد ، وإما هبة من صاحب المال . لذلك سألوا الوارث : أهذا حقك؟ قال : نعم ، قالوا : فما صكُّك عليه؟ يعني : أين العقد الذي أخذته به؟ قال : عقدي وصَكّي : { يُوصِيكُمُ الله فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين } [النساء : 11] فهو عقد أوثق وأعلى من تعاقد البشر .

وما دام عقدي من الحق – تبارك وتعالى – فلا تقُلْ : إن الميراث مأخوذ بغير عقد؛ لأنه قائم على أوثق العقود ، وهو العقد من الله .

وكثيراً ما يخرج الناس في مسألة الميراث عما شرع الله حُباً في المال واستئثاراً به ، أو بخلاً على مَنْ جعل له الشرع نصيباً ، فمَنْ كان عنده البنون والبنات يعطي البنين ويحرم البنات ، ومَنْ كان عنده بنات يكتب لهُنَّ ما يملك حتى يحرم إخوته وأعمامهم من حقهم في ماله ، وهذا كثيراً ما يحدث في المجتمع .

ويجب عليك أن تتنبه لمسألة الميراث وتحترم شرع الله فيه وتقسيم الله للمال ، فقد وهبك الله المال وتركك تتصرف فيه طوال حياتك ، وليس لك أن تتصرف فيه أيضاً بعد موتك ، عليك أنْ تدعَ المال لصاحبه وواهبه يتصرف فيه؛ لذلك قال الله تعالى عن الإرث : { فَرِيضَةً مِّنَ الله } [النساء : 11] يعني : ليست من أحد آخر ، وما دامت من الله فعليك أنْ تمتثل لها وتنفذها ، وحين تتأبَّى عليها فإنك تتأبَّى على الله وترفض قِسْمته .

والمتأمل في مسألة الإرث يجد الخير كل الخير فيما شرعه الله ، ومَنْ كان يحب البنين فليُعْط البنات

حتى لا يفسد علاقة أولاده من بعده ، ويأتي إلينا بعض الرجال الذين أخذوا كل مال أبيهم وحَرَموا منه البنات ، يقولون : نريد أن نُصحِّح هذا الخطأ ونعيد القسمة على ما شرع الله .

ونجد عند بعض الناس إشراقات إيمانية ، فإنْ رفض بعض الإخوة إعادة التقسيم على شرع الله يقول : أنا أتحمل ميراث أخواتي من مالي الخاص ، ومثل هؤلاء يفتح الله عليهم ويبارك لهم فيما بقي؛ لأنهم جعلوا اعتمادهم على الله فيزيدهم من فضله ويُربي لهم القليل حتى يصير كثيراً ، أما مَنِ اعتمد على ما في يده فإن الله يكِلُه إليه .

ونعجب من الذي يجعل ماله للبنات ليحرم منه إخوته ، نقول له : أنت لستَ عادلاً في هذا التصرف ، يجب أن تعاملهم بالمثل ، فلو تركت بناتك فقراء لا مال لهن ، فمَنْ يعولهُنَّ ويرعاهن من بعدك؟ يعولهن الأعمام .

إذن : لتكُنْ معاملة بالمثل .

والحق – تبارك وتعالى – حين يُورث هذه الأصناف يورثهم بفضله وكرمه ، وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » .

أما قوله تعالى : { ادخلوا الجنة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل : 32] فهذا خاص بمجرد دخول الجنة ، أما الزيادة فهي من فضل الله { وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ } [النساء : 173]

ومن أسمائه تعالى (الوارث) وقال : { وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين } [الأنبياء : 89] فماذا يرث الحق سبحانه وتعالى مِنَّا؟

لقد خلق الله الخَلْق ، وأعطى للناس أسباب ملكيته ، ووزَّع هذه الملكية بين عباده : هذا يملك كذا ، وهذا يملك كذا من فضل الله تعالى . فإذا كان يوم القيامة عاد المُلْك كله إلى صاحبه ، وكان الحق سبحانه وتعالى هو الوارث الوحيد يوم يقول : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .

والله خير الوارثين؛ لأن الوارث يأخذ ما ورثه لينتفع هو به ، لكن الحق سبحانه يرث ما تركه للغير ليعود خَيْره عليهم ويزيدهم ، ويعطيهم أضعافاً مضاعفة ، وإذا كان يعطيهم في الدنيا بأسباب فإنه في الآخرة يرث هذه الأسباب ، ويعطيهم من فضله بلا أسباب ، حيث تعيش في الجنة مستريحاً لا تعبَ ولا نصبَ ولا سَعْيَ ، وما يخطر ببالك تجده بين يديك دون أنْ تُحرِّك ساكناً .

إذن : البشر يرثون ليأخذوا ، أمّا الحق سبحانه فيرث ليعطي؛ لذلك فهو خير الوارثين .

فأيُّ شيء يرثه المؤمنون الذين توفرت فيهم هذه الصفات؟ يجيب الحق سبحانه : { الذين يَرِثُونَ الفردوس . . }

.

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)

إذن : الحق سبحانه ورَّثهم في الفانية ليعطيهم الفردوس الخالد في الآخرة ، والفردوس أعلى الجنة ، فورث الحق لينفع عباده ويُصعِّد النفع لهم ، ففي الدنيا كنا ننتفع بالأسباب ، وفي الآخرة ننتفع بغير أسباب ، الحق ورث ليعطي ، لا مِثْل ما أخذ إنما فوق ما أخذ؛ لأننا نأخذ في الميراث ما يفنى ، ولله تعالى يعطينا في ميراثه ما يبقى .

لكن مِمَّنْ يرثون الفردوس؟

قالوا : الحق – تبارك وتعالى – عندما خلق الخَلْق ، وجعل فيهم الاختيار بين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية رتَّبَ على ذلك أموراً ، فجعل الجنة على فرض أن الخَلْق كلهم مؤمنون ، بحيث لو دخلوا الجنة جميعاً ما كانت هناك أزمة أماكن ولا زحام ، وكذلك جعل النار على فرض أن الخَلْق كلهم كافرون ، فلو كفر الناس جميعاً لكان لكل منهم مكانه في النار .

وعليه فحين يدخل أهل الجنةِ الجنةَ يتركون أماكنهم في النار ، وحين يدخل أهل النارِ النارَ يتركّون أماكنهم في الجنة ، فيرث أهل النار الأماكن الشاغرة فيها ، ويرث أهل الجنة الأماكن الشاغرة فيها .

والفردوس أعلى مكان في الجنة ، لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة » ذلك؛ لأن الفردوس جنة على أعلى رَبْوة في الجنة . يعني : في مكان مُميّز منها ، والعلو في مسألة المسكن والجنان أمر محبوب في الدنيا ، الناس يُحبون السُّكْنى في الأماكن العالية ، حيث نقاء الهواء ونقاء الماء ، أَلاَ تراهم يزرعون في المرتفعات ، وإنْ كانت الأرض مستوية يجعلون فيها مصارف منخفضة تمتصُّ الماء الزائد الذي يفسد الزرع؛ لذلك يقول سبحانه : { كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ } [البقرة : 265] .

كذلك الأرض المرتفعة لا تُسْقَى بالماء الغمر ، إنما تُسْقَى من ماء السماء الذي يغسل الأوراق قبل أن يروي الجذور ، فيكون النبات على أفضل ما يكون؛ لذلك يقول عنها رب العزة : { فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ } [البقرة : 265] .

ومعلوم أن الأوراق هي رئة النبات ، وعليها تقوم عملية التمثيل الضوئي التي يصنع منها النبات غذاءه ، فإذا ما سُدَّت مسام الأوراق وتراكم عليها الغبار فإن ذلك يُقلِّل من قدرة النبات على التنفس ، مثل الإنسان حينما يُصَاب بشيء في رئته تزعجه وتُقلِّل من كفاءته .

وفي الفردوس ميزة أخرى هي أن الحق سبحانه وتعالى هو الذي غرس شجرها بيده ، كما كرَّم آدم عليه السلام فخلقه بيده تعالى ، فقال : { ياإبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . . } [ص : 75] .

ويُروى أن الحق – تبارك وتعالى – لما خلق الفردوس ، وغرس أشجارها بيده قال للفردوس : تكلمي ، فلما تكلمت الفردوس قالت : { قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون } [المؤمنون : 1] .

ثم يقول تعالى : { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [المؤمنون : 11] لأن نعيم الجنة باقٍ ودائم لا ينقطع ، وقد عرفنا أن نعيم الدنيا موقوت مهما أُوتِي الإنسان منه ، فإنه منقطع زائل ، إما أنْ يتركك بالفقر والحاجة ، وإما أنْ تتركه أنت بالموت ، لذلك يقول تعالى في نعيم الآخرة :

{ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ } [الواقعة : 33] .

وهكذا نلحظ على استهلال هذه السورة أن الحق سبحانه بدأ بالكلام عن الفلاح في الآخرة كأنه قدَّم ثمرة الإيمان أولاً ، ووضع الجزاء بداية بين يديك كأنه سبحانه يقول لك : هذا جزاء مَنْ آمن بي واتبع منهجي . كما جاء في قوله تعالى في استهلال سورة (الرحمن) : { الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان } [الرحمن : 1 – 4] كيف وقد خلق الله الإنسان أولاً ، ثم علَّمه القرآن؟

قالوا : لأن الذي يصنع صنعة يضع لها قانونها ، ويُحدِّد لها مهمتها أولاً قبل أن يشرع في صناعتها ، فمثلاً – ولله المثل الأعلى – الذي يصنع الثلاجة ، قبل أن يصنعها حدد عملها ومهمتها وقانون صيانتها والغاية منها .

والقرآن هو منهج الإنسان ، وقانون صيانته في حركة الحياة؛ لذلك خلق الله المنهج ووضع قانون الصيانة قبل أن يخلق الإنسان .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12)

سبق أن تكلمنا عن خَلْق الإنسان ، وعرفنا أن الخالق – عز وجل – خلق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من طين ، ومن أبعاضه خلق زوجه ، ثم بالتزاوج جاء عامة البشر كما قال تعالى : { وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً } [النساء : 1] .

ومسألة خَلْق السماء والأرض والناس مسألة احتفظ الله بها ، ولم يطلع عليها أحد ، كما قال سبحانه : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51] .

فلا تُصْغ إلى هؤلاء المضلين في كل زمان ومكان ، الذين يدَّعون العلم والمعرفة ، ونسمعهم يقولون : إن العالم كان كتلة واحدة تدور بسرعة فانفصل عنها أجزاء كوَّنَت الأرض . . الخ وعن الإنسان يقولون : كان أصله قرداً ، إلى آخر هذه الخرافات التي لا أساس لها من الصحة .

لذلك أعطانا الله تعالى المناعة الإيمانية التي تحمينا أنْ ننساق خلف هذه النظريات ، فأخبرنا سبحانه خبر هؤلاء وحذرنا منهم؛ لأنهم ما شهدوا شيئاً من الخَلْق ، ولم يتخذهم الله أعواناً

فيقولون مثل هذا الكلام . إذن : هذا أمر استأثر الله بعلمه ، فلا تأخذوا علمه إلاَّ مما أخبركم الله به .

وكلمة الإنسان اسم جنس تطلق على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، فكل واحد منا إنسان ، بدليل أن الله تعالى استثنى من المفرد اللفظ جمعاً في قوله تعالى : { والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ . . } [العصر : 1 – 3] فاستثنى من المفرد الجماعة .

ومعنى { خَلَقْنَا } [المؤمنون : 12] أوجدنا من عدم ، وسبق أن قلنا : إن الله تعالى أثبت للبشر صفة الخَلْق أيضاً مع الفارق بين خَلْق الله من عدم وخَلْق البشر من موجود ، وخَلْق الله فيه حركة وحياة فينمو ويتكاثر ، أما ما يخلق البشر فيجمد على حاله لا يتغير؛ لذلك وصف الحق سبحانه ذاته فقال : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] .

أما قَوْل القرآن حكايةً عن عيسى عليه السلام : { أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير . . } [آل عمران : 49] فهذه من خاصياته عليه السلام ، والإيجاد فيها بأمر من الله يُجريه على يد نبيه .

فالمعنى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان . . } [المؤمنون : 12] أي : الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام { مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ . . } [المؤمنون : 12] والسلالة : خلاصة الشيء تُسَلُّ منه كما يُسَلُّ السيف من غِمْده أي : الجراب الذي يُوضَع فيه ، فالسيف هو الأداة الفتاكة الفاعلة ، أما الغِمْد فهو مجرد حافظ وحامل لهذا الشيء الهام .

فالسلالة – إذن – هي أجود ما في الشيء ، وقد خلق الله الإنسان الأول من أجود عناصر الطين وأنواعه ، وهي زُبْد الطين ، فلو أخذتَ قبضة من الطين وضغطتَ عليها بين أصابعك يتفلَّتْ منها الزبد ، وهو أجود ما في الطين ويبقى في قبضتك بقايا رمال وأشياء خشنة .

« ولما أحب سيدنا حسان بن ثابت أنْ يهجوَ قريشاً لمعاداتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إئذن لي يا رسول الله أنْ أَهْجُوهم من على المنبر فقال صلى الله عليه وسلم : أتهجوهم وأنا منهم؟ فقال حسان : أسلُّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين » .

وتُطلَق السلالة على الشيء الجيد فيقولون : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعني : في مقام المدح ، حتى في الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجِّلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها ، ومن هنا جاءت شهرة الخيل العربية الأصيلة .

وقد أثبت العلم الحديث صِدْق هذه الآية ، فبالتحليل المعمليّ التجريبي أثبتوا أن العناصر المكوِّنة للإنسان هي نفسها عناصر الطين ، وهي ستة عشر عنصراً ، تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهي بالمنجنيز ، والمراد هنا التربة الطينية الخصْبة الصالحة للزراعة؛ لأن الأرض عامة بها عناصر كثيرة قالوا : مائة وثلاثة عشر عنصراً .

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13)

يعني : بعد أن جعلناه بشراً مُسْتوياً فيه روح جعلناه يتكاثر من نفسه ، وكما خلقناه من خلاصة الطين في الإنسان الأول نخلقه في النسْل من خلاصة الماء وأصفى شيء فيه ، وهي النطفة؛ لأن الإنسان يأكل ويشرب ويتنفس ، والدم يمتص خلاصة الغذاء ، والباقي يخرج على هيئة فضلات ، ثم يُصفَّى الدم ويرشح في الرئة وفي الكلى ، ومن خلاصة الدم تكون طاقة الإنسان وتكون النطفة التي يخلق منها الإنسان . إذن : فهو حتى في النطفة من سلالة مُنْتقاة .

والنطفة التي هي أساس خَلْق الإنسان تعيش في وسط مناسب هو السائل المنوي ، لذلك قال سبحانه : { أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى } [القيامة : 37] ثم جعلنا هذه النطفة { فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ } [المؤمنون : 13] قرار : يعني مُستقر تستقر فيه النطفة ، والقرار المكين هو الرحم خلقه الله على هذه الهيئة ، فحصّنه بعظام الحوض ، وجعله مُعدّاً لاستقبال هذه النطفة والحفاظ عليها .

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14)

يقول العلماء : بعد أربعين يوماً تتحول هذه النطفة إلى علقة ، وسُمِّيَتْ كذلك لأنها تعلَق بجدار الرحم ، والعلماء يسمونها الزيجوت ، وهي عبارة عن بويضة مُخصَّبة ، وتبدأ في أخذ غذائها منه .

ومن عجائب قدرة الله في تكوين الإنسان أن المرأة إذا لم تحمل ينزل عليها دم الحيض ، فإذا ما حملتْ لا ترى الحيض أبداً ، لماذا؟ لأن هذا الدم ينزل حين لم تكُنْ له مهمة ولا تستفيد به الأم ، أمَا وقد حدث الحمل فإنه يتحول بقدرة الله إلى غذاء لهذا الجنين الجديد .

ثم يقول سبحانه : { فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً . . } [المؤمنون : 14] وهي قطعة صغيرة من اللحم على قَدْر ما يُمضَغ ، وسبق أن قلنا : إن المضغة تنقسم بعد ذلك إلى مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : { ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ . . } [الحج : 5] هذا على وجه التفصيل ، أما في الآية التي معنا فيُحدِّثنا عن أطوار الخلق عامة ، حتى لا نظن أن القرآن فيه تكرار كما يدَّعِي البعض .

المضْغة المخلَّقة هي التي يتكّون منها جوارح الإنسان وأعضاؤه ، وغير المخلَّقة تظل كما قلنا : احتياطياً لصيانة ما يتلف من الجسم ، كما يحدث مثلاً في الجروح وما شابه ذلك من عطب يصيب الإنسان ، فتقوم غير المخلَّقة بدورها الاحتياطي .

ثم يقول تعالى : { فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ . . } [المؤمنون : 14] لأنه كان في كل هذه الأطوار : النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم العظام واللحم ما يزال تابعاً لأمة متصلاً بها ويتغذّى منها ، فلما شاء الله له أنْ يُولَد ينفصل عن أمه

ليباشر حياته بذاته؛ ولذلك نجد لحظة انفصال الجنين عن أمه في عملية الولادة مسألة صعبة؛ لأنه سيستقبل حياة ذاتية تستلزم أن تعمل أجهزته لأول مرة ، وأول هذه الأجهزة جهاز التنفس .
ومن رحمة الله بالجنين أن ينزل برأسه أولاً ليستطيع التنفس ، ثم يخرج باقي جسمه بعد ذلك ، فإن حدث العكس ونزل برجليه فربما يموت؛ لأنه انفصل عن تبعيته لأمه ، وليس له قدرة على التنفس ليحتفظ بحياته الذاتية الجديدة؛ لذلك في هذه الحالة يلجأ الطبيب إلى إجراء عملية قيصرية لإنقاذ الجنين من هذا الوضع ، وقبل أن يختنق .
ولما كانت مسألة خَلْق الإنسان فيها كثير من العِبَر والآيات ودلائل القدرة طوال هذه المراحل التي يتقلّب فيها الإنسان ، ناسب أنْ تختم الآية بقوله تعالى : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] لأنك حين تقف وتتأمل قدرة الله في خَلْق الإنسان لا تملك إلا أنْ تقول : سبحان الله ، تبارك الله الخالق .
« لذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قرأ هذه الآية سبق عمر فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال صلى الله عليه وسلم للكاتب : اكتبها فقد نزلتْ »

، لأنها انفعال طبيعي لقدرة الله ، وعجيب صُنْعه ، وبديع خلقه ، وهذا نوع من التجاوب بين السليقة العربية واللسان العربي وبين أسلوب القرآن الذي جاء بلسان القوم .
ويقال : إن سيدنا معاذ بن جبل نطق بها أيضاً ، وكذلك نطق بها رجل آخر هو عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، مع اختلاف في نتيجة هذا النطق : لما نطق بها عمر ومعاذ رضي الله عنهما كان استحساناً وتعجباً ينتهي إلى الله ، ويُقِرّ له سبحانه بالقدرة وبديع الصُّنْع .
أما ابن أبي السرح فقد قالها كذلك تعجباً ، لكن لما وافق قولُه قولَ القرآن أُعْجِب بنفسه ، وادعى أنه يُوحَى إليه كما يُوحَى إلى محمد ، ولم لا وهو يقول كما يقول القرآن ، ومع ذلك هو ما يزال مؤدباً يدَّعي مجرد أنه يوحى إليه ، لكن زاد تعاليه وجَرَّه غرور إلى أنْ قال : سأنزل مثلما أنزل الله ، فليس ضرورياً وجود الله في هذه المسألة ، فارتدّ والعياذ بالله بسببها ، وفيه نزل قول الله تعالى : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنَزلَ الله . . } [الأنعام : 93] .
« وظل ابن أبي السرح إلى فتح مكة حيث شفع فيه عثمان رضي الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى رسول الله حِرْص عثمان عليه سكت ، ولم يقُلْ فيه شيئاً ، وعندها أخذه عثمان رضي الله عنه وانصرف ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته : » أما كان فيكم مَنْ يُجهز عليه؟ « فقالوا : يا رسول الله لو أومأتَ لنا برأسك؟ يعني : أشرْتَ إلينا بهذا ، انظر هنا إلى منطق النبوة ، قال صلى الله عليه وسلم : » لا ينبغي أن يكون لنبي خائنة الأعين « يعني : هذا تصرُّف لا يليق بالأنبياء ، فلو فعلتموها من أنفسكم كان لا بأس .

ثم بعد ذلك تحل بركة عثمان على ابن أبي السرح فيُؤمن ويَحْسُن إسلامه ، ثم يُولِّي مصر ، ويقود الفتوحات في إفريقيا ، ويتغلب على الضجة التي أثاروها في بلاد النوبة ، وكأن الله تعالى كان يدخره لهذا الأمر الهام .

وبعد هذه العجائب التي رأيناها في مراحل خَلْق الإنسان وخروجه إلى الحياة والإقرار لله تعالى بأنه أحسن الخالقين ، يُذكِّرنا سبحانه بأن هذه الحياة لن تدوم ، فيقول تبارك وتعالى : { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ }

.

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15)

ولك أنْ تسأل : كيف يُحدِّثنا الحق – تبارك وتعالى – عن مراحل الخَلْق ، ثم يُحدِّثنا مباشرة عن مراحل الموت والبعث؟

نقول : جعلهما الله تعالى معاً لتستقبل الحياة وفي الذِّهْن وفي الذاكرة ما ينقض هذه الحياة ، حتى لا تتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولتكُنْ على بالك ، فتُرتِّب حركة حياتك على هذا الأساس .

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى : { تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الذي خَلَقَ الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . } [الملك : 1 – 2] كأنه سبحانه ينعى إلينا أنفسنا قبل أنْ يخلق فينا الحياة ، وقدَّم الموت على الحياة حتى الحياة وتستقبل قبلها الموت الذي ينقضها فلا تغتر بالحياة ، وتعمل لما بعد الموت .

وقد خاطب الحق – سبحانه وتعالى – نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ } [الزمر : 30] البعض يظن أن ميَّت بالتشديد يعني مَنْ مات بالفعل ، وهذا غير صحيح ، فالميِّت بتشديد الياء هو ما يؤول أمره إلى الموت ، وإنْ كان ما يزال على قيد الحياة ، فكلنا بهذا المعنى ميِّتون ، أمّا الذي مات بالفعل فهو ميْت بسكون الياء ، ومنه قول الشاعر :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إنما الميْتُ ميِّتُ الأحْياءِ

ومعنى : { بَعْدَ ذلك } [المؤمنون : 15] يعني : بعد أطوار الخَلْق التي تقدمت من خَلْق الإنسان الأول من الطين إلى أنْ قال سبحانه : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] .

والمتأمل في هذه الآية وهي تُحدِّثنا عن الموت الذي لا ينكره أحد ولا يشكّ فيه أحد ، ومع ذلك أكدها الحق – تبارك وتعالى – بأداتين من أدوات التوكيد : { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ } [المؤمنون : 15] فأكّدها بإنّ وباللام ، ومعلوم أننا لا نلجأ إلى التوكيد إلا حين يواجهنا منكر ، فيأتي التأكيد على قَدْر ما يواجهك من إنكار ، أما خالي الذهن فلا يحتاج إلى توكيد .

تقول مثلاً لخالي الذهن الذي لا يشك في كلامك : يجتهد محمد ، فإنْ شك تؤكد له بالجملة

الاسمية التي تفيد ثبوت واستقرار الصفة : محمد مجتهد ، وتزيد من تأكيد الكلام على قدر الإنكار ، فتقول : إن محمداً مجتهد ، أو إن محمداً لمجتهد ، أو والله إن محمداً لمجتهد . هذه درجات للتأكيد على حسْب حال مَنْ تخاطبه .

إذن : أكّد الكلام عن الموت الذي لا يشكّ فيه أحد ، فقال : { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ } [المؤمنون : 15] ومع ذلك لما تكلَّم عن البعث وهو محلّ الشك والإنكار قال سبحانه : { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ }

.

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)

ولم يقُلْ : لتبعثون كما قال { لَمَيِّتُونَ } [المؤمنون : 15] فكيف يؤكد ما فيه تصديق وتسليم ، ولا يؤكد ما فيه إنكار؟

قالوا : نعم؛ لأن المتكلم هو الله تعالى ، الذي يرى غفلتكم عن الموت رغم وضوحه ، فلما غفلتم عنه كنتم كالمكذِّبين به المنكرين له ، لذلك أكد عليه ، لذلك يقال : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » فالكل يعلم الموت ويعاينه ، لكن يبعده عن نفسه ، ولا يتصوّره في حقه .

أما البعث والقيامة فأدلتها واضحة لا يصح لأحد أنْ ينكرها؛ لذلك جاءت دون توكيد : { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ } [المؤمنون : 16] فأدلة البعث أوضح من أن يقف العقل فيها أو ينكرها؛ لذلك سأطلقها إطلاقاً دون مبالغة في التوكيد ، أمّا مَنْ يتشكك فيه أو ينكره ، فهذا نؤكد له الكلام ، فانظر إلى بصر الحق – سبحانه وتعالى – بعقليات خَلْقه وبنفوسهم ومَلَكَاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ . . }

.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17)

نلحظ أن للعدد سبعة مواقف في هذه السورة وأسراراً يجب أن نتأملها ، ففي استهلال السورة ذكر سبحانه سبعة أصناف : { قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ . . } [المؤمنون : 1 – 2] .

وفي مراحل خَلْق الإنسان نجده مَرَّ بسبعة أطوار : سلالة من طين ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم لحماً ، ثم أنشأناه خَلْقاً آخر .

وهنا يقول : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ . . } [المؤمنون : 17] .

وفي موضع آخر قال : { الله الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ . . } [الطلاق :

. [12

فهذه سبعة للغاية ، وسبعة للمغيَّا له ، وهو الإنسان ، وسبعة للسماوات والأرض المخلوقة للإنسان .

وطرائق : جمع طريقة أي : مطروقة للملائكة ، والشيء المطروق ما له حجم يتسع بالطَّرْق ، كما تطرق قطعة من الحديد مثلاً ، فانظر إلى السماء واتساعها . وقُلْ : سبحان مَنْ طرقها .

وتلحظ أن الحق سبحانه لم يذكر هنا الأرض ، لماذا؟ قالوا : لأن الأرض نقف عليها ثابتين لا نخاف من شيء ، إنما الخوف من السماء أنْ تندكّ فوقنا؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : { وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غَافِلِينَ } [المؤمنون : 17] فلن نغفل عن السماء من فوقكم ، وسوف نُمسكها بأيدينا ، كما قال سبحانه : { إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ . . } [فاطر : 41] .

ثم يعطينا الحق – تبارك وتعالى – الدليل الحسيّ على هذه الآية ، وكيف أن الله تعالى رفع السماء فوقنا بلا عَمَد ، ومثال ذلك الطير يُمسكه الله في السماء : { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن . . } [الملك : 19] .

نعلم أن الطير يطير في السماء بحركة الجناحين التي تدفع الهواء وتقاوم الجاذبية فلا يسقط ، كالسباح الذي يدفع بذراعيه الماء ليسبح ، فإذا ما قبض الطائر جناحيه ومع ذلك يظل مُعلّقاً في السماء لا يسقط فمَنْ يُمسِكه في هذه الحالة؟ هذه صورة تشاهدونها لا يشكّ فيها أحد ، فإذا قلت لكم أني أمسك السماء أن تقع على الأرض فصدّقوا وآمنوا ، واستدلوا على الغيب بالمشاهد .

وكأن الحق سبحانه في قوله : { وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غَافِلِينَ } [المؤمنون : 17] يقول : اطمئنوا إلى السماء من فوقكم ، فقد جعلتُ لها التأمينات اللازمة التي تُؤمّن معيشتكم تحت سقفها ، اطمئنوا لأنها بأيدينا وفي رعايتنا .

لكن ، ما المراد بقوله { عَنِ الخلق } [المؤمنون : 17] أهو الإنسان أم خَلْق السماء؟ المراد : ما كُنَّا غافلين عن خَلْق السماء ، فبنيناها على ترتيبات ونظم تحميكم وتضمن سلامتكم .

والغفلة : تَرْك شيء لأنه غاب عن البال ، وهذه مسألة لا تكون أبداً في حق الله – عز وجل – لأنه لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض . . }

.

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18)

يقول تعالى عن الماء : { وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ . . } [المؤمنون : 18] فهل الماء مَقرُّه السماء؟ لا ، الماء مقرُّه الأرض ، كما جاء في قول الله تعالى : { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ . . } [فصلت : 9 – 10] .

لما يستدعي الخالق – عز وجل – الإنسان إلى هذا الوجود جعل له في الأرض مُقوّمات استبقاء حياته من الهواء والقوت والماء ، والإنسان كما قلنا يستطيع أن يصبر على الطعام ، وصبره أقل على الماء ، لكن لا صبرَ له على الهواء؛ لذلك شاءت قدرة الله ألاّ يُملّكه لأحد؛ لأنه مُقوّم الحياة الأول ، فالغلاف الجوي والهواء المحيط بالأرض تابع لها وجزء منها داخل تحت قوله : { وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . } [فصلت : 10] بدليل أنهم حينما يخرجون عن نطاق الأرض يمتنع الهواء .

ومن حكمة الخالق – عز وجل – وقدرته أنْ جعل الماء على الأرض مالحاً؛ لأن الملح أساس في صلاح الأشياء التي يطرأ عليها الفساد ، فالماء العذب عُرضة للتغيُّر والعطن ، وبالملح نصلح ما نخشى تغيُّره فنضعه على الطعام ليحفظه ونستخدمه في دباغة الجلود . . الخ

لذلك قال الشاعر :

يَا رِجَالَ الدينِ يا مِلْحَ البَلَدِ ... مَنْ يُصلح الملحَ إذَا المِلْحُ فَسَد

إذن : أصل الماء في الأرض ، لكن ينزل من السماء بعد عملية البَخْر التي تُصفيه فينزل عَذْباً صالحاً للشرب وللري ، وقلنا : إن الخالق سبحانه جعل رقعة الماء على الأرض أكبر من رقعة اليابسة حتى تتسع رقعة البَخْر ، ويتكون المطر الذي يكفي حاجة أهل الأرض .

ومن رحمة الله بنا أن ينزل الماء من السماء { بِقَدَرٍ } [المؤمنون : 18] يعني : بحساب وعلى قَدْر الحاجة ، فلو نزل هكذا مرة واحدة لأصبح طوفاناً مُدمّراً ، كما حدث لقوم نوح ولأهل مأرب . وفي موضع آخر يقول سبحانه : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } [الحجر : 21] .

ثم يقول سبحانه : { فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض . . } [المؤمنون : 18] لأننا نأخذ حاجتنا من ماء المطر ، والباقي يتسرب في باطن الأرض ، كما قال سبحانه : { فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض } [الزمر : 21] ومن عجيب قدرة الله في المياه الجوفية أنها تسير في مسارب مختلفة ، بحيث لا يختلط الماء العَذْب بالماء المالح مع ما يتميز به الماء من خاصية الاستطراق ، والعاملون في مجال حفر الآبار يجدون من ذلك عجائب ، فقد يجدون الماء العَذْب بجوار المالح ، بل وفي وسط البحر لأنها ليست مستطرقة ، إنما تسير في شعيرات ينفصل بعضها عن بعض .

والمياه الجوفية مخزون طبيعي من الماء نُخرجه عند الحاجة ، ويُسعِفنا إذا نَضُبَ الماء العَذْب الموجود على السطح { فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض .

. } [المؤمنون : 18] ليكون احتياطياً لحين الحاجة إليه ، فإذا جَفَّ المطر تستطيعون أن تستنبطوه .

ثم يُذكِّرنا الحق سبحانه بقدرته على سَلْب هذه النعمة { وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ } [المؤمنون : 18] يعني : سيروا في هذه النعمة سَيْراً لا يُعرِّضها للزوال ، وقال في موضع آخر : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ } [الملك : 30]

وحين تَعُدّ نِعَم الله التي أمتنّ علينا بها بداية من نعمة الماء : { وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ } [المؤمنون : 18] تجدها أيضاً سبعة .

ويبدو أن لهذا العدد أسراراً في هذه السورة ، فقد ذكر من أوصاف المؤمنين سبعة ، ومن مراحل خَلْق الإنسان سبعاً ، ومن السماء والأرض سبعة ، وهنا يذكر من نعمه علينا سبعة؛ لذلك كان للعلماء وقفات عند هذا العدد بالذات .

وأذكر ونحن في المملكة السعودية وكنت أستاذاً في كلية الشريعة ومعي بعض الأساتذة ورئيس بعثتنا الشيخ زكي غيث – رحمه الله وغفر الله له – ورئيس بعثة المعارف الأستاذ صلاح بك الباقر ، وكان دائماً ما يجلس معنا شيخ علماء المملكة في هذا الوقت السيد إسحق عزوز ، وكان يجمعنا كل ليلة الفندق الذي نقيم فيه ، وكنا نتدارس بعض قضايا العلم .

وقد أثار الشيخ إبراهيم عطية قضية هذا العدد في القرآن الكريم ، وكان يقرأ في تفسير القرطبي فوجد فيه : قال عمر بن الخطاب لابن عباس : يا ابن عباس أتعرف متى ليلة القدر؟ فقال ابن عباس : أغلب الظن أنها ليلة السابع والعشرين ، فلما سمعنا هذا الكلام قلنا : هذه سبعة ، وهذه سبع وعشرون ، فلما اختلفنا اقترح علينا الشيخ محمد أبو علي – أطال الله عمره – أن نذهب لنصلي في الحرم بدل أن نصلي في الفندق عملاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان كلما حزبه أمر يقوم إلى الصلاة ، وقلنا : ربما يفتح الله علينا في هذه المسألة .

وبعد أن صلينا جلسنا نناقش هذه المسألة ، فإذا برجل لا نعرفه على سمة المجاذيب غير مهتم بنفسه ، يجلس بجوارنا ويُنصت لما نقول ، ثم شاركنا الكلام وقال : ألم يقُل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التمسوها في العشر الأواخر من رمضان » إذن : فدعكم من العشرين يوماً ، واحسبوا في العشر الأواخر ، ثم نظرنا فلم نجده ، كأن وحدة الزمن التي توجد بها ليلة القدر هي هذه العشر ، وكأنها بهذا المعنى ليلة السابع ، وهذه أيضاً من أسرار هذا العدد { وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } [يوسف : 76] .

أطال الله في عمر مَنْ بقي من هؤلاء ، وغفر الله لمن ذهب .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ . . }

.

فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19)

الجنة : المكان المليء بالأشجار العالية والمزروعات التي تستر مَنْ يسير فيها ، أو تستره عن الخارج ، فلا يحتاج في متطلبات حياته إلى غيرها ، فهي من الكمال بحيث تكفيه ، فلا يخرج عنها . واختار هذه الأنواع { نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ } [المؤمنون : 19] لما لها من منزلة عند العرب ، وقال { فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ } [المؤمنون : 19] لأنه لم يحصر جميع الأنواع .

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (20)

الطور : جبل منسوب إلى سيناء ، وسيناء مكان حسن؛ لأن الله بارك فيها ، والطور كلَّم الله عليه موسى ، فهو مكان مبارك ، كما بارك الله أرض بيت المقدس فقال : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ إِنَّهُ هُوَ السميع البصير } [الإسراء : 1] .
ومعنى { تَنبُتُ بالدهن } [المؤمنون : 20] الدهن هو الدَّسَم ، والمراد هنا شجرة الزيتون التي يستخرجون منها الزيت المعروف { تَنبُتُ بالدهن } [المؤمنون : 20] الدهن هو الدَّسَم ، والمراد هنا شجرة الزيتون التي يستخرجون منها الزيت المعروف { وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ } [المؤمنون : 20] يعني : يتخذونه إداماً يغمسون فيه الخبز ويأكلونه ، وهو من أشْهَى الأكلات وألذّها عند مَنْ يزرعون الزيتون في سيناء وفي بلاد الشام ، وقد ذُقْنا هذه الأكْلة الشهيرة في لبنان ، عندما ذهبنا إليها في موسم حصاد الزيتون .

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21)

الأنعام : يُراد بها الإبل والبقر ، وألحق بالبقر الجاموس ، ولم يُذكَر لأنه لم يكُنْ موجوداً بالبيئة العربية ، والغنم وتشمل الضأن والماعز ، وفي سورة الأنعام يقول تعالى : { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين . . } [الأنعام : 143] .
ويقال فيها : أنعام ونَعَم (بفتح النون والعين)
والعبرة : شيء تعتبرون به وتستدلُّون به على قدرة الله وبديع صُنْعه في خَلْق الأنعام .
لكن ، ما العبرة في خَلْق هذه الأنعام؟ الحق – سبحانه وتعالى – تكلَّم عن خَلْق الإنسان ، وأنه تعالى خلقه من صفوة وخلاصة وسلالة من الطين ومن النطفة ، وهكذا في جميع أطوار خَلْقه .
وفي الأنعام ترى شيئاً من هذا الاصطفاء والاختيار ، فالأنعام تأكل من هنا وهناك وتجمع شتى الأنواع من المأكولات ، ومن هذا الخليط يخرج الفَرْث ، وهو مُنتِن لا تطيق رائحته ويتكون دم الحيوان ، ومن بين الفَرْث والدم يُصفِّي لك الخالق – عز وجل – لبناً خالصاً ، وهذه سلالة أيضاً

وتصفية .

قال تعالى : { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ } [النحل : 66] .

ونلحظ أن الآية التي معنا تقول : { نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا } [المؤمنون : 21] وفي آية النحل : { نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ } [النحل : 66] ذلك لأننا نأخذ اللبن من إناث الأنعام ليس من كل الأنعام ، فالمعنى { مِّمَّا فِي بُطُونِهَا } [المؤمنون : 21] أي : الإناث منها و { مِّمَّا فِي بُطُونِهِ } [النحل : 66] أي : بطون البعض؛ ولذا عاد الضمير مذكراً . { نُّسْقِيكُمْ } [المؤمنون : 21] من سقى ، وفي موضع آخر { فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ } [الحجر : 22] من الفعل أسقى . البعض يقول إنهما مترادفان ، وهما ليسا كذلك لأن لكل منهما معنى ، فسقى يعني : أعطاه الشراب ، أمَّا أسقى فيعني جهز له ما يشربه لحين يحب أن يشرب .

لذلك لما تكلَّم الحق سبحانه عن شراب الجنة ، قال : { وحلوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً } [الإنسان : 21] .

ولما تكلم عن ماء المطر قال سبحانه : { وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ } [الحجر : 22] يعني : جعله في مستودع لحين الحاجة إليه . كما قلنا في (مُرضِع) بالكسر ، و (مُرضَع) بالفتح ، فمرضع بالكسر للتي ترضع بالفعل ، ومنه قوله تعالى : { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ } [الحج : 2] .

أما مرضَع بالفتح ، فهي الصالحة للرضاعة .

ثم يقول تعالى : { وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } [المؤمنون : 21] نلحظ أن آية النحل ركزت على مسألة تصفية اللبن من بين فَرْث ودم ، أما هنا فقد ركزت على منافع أخرى للأنعام ، فكل آية تأخذ جانباً من الموضوع ، وتتناوله من زاوية خاصة ، نوضح ذلك لمن يقولون بالتكرار في القرآن الكريم ، فالآيات في الموضوع الواحد ليست تكراراً ، إنما هو تأسيس بلقطات مختلفة ، كل لقطة تؤدي في مكانها موقعاً من العِظَة والعبرة ، بحيث إذا جمعتَ كل هذه المكررات الظاهرة تعطيك الصورة الكاملة للشيء .

والمنافع في الأنعام كثيرة : منها نأخذ الصوف والوبر ، وكانوا يصنعون منه الملابس والفرش والخيام ، قبل أن تُعرف الملابس والمنسوجات الحديثة ، ومن ملابس الصوف سُميت الصوفية لمَنْ يلبسون الثياب الخشنة ، وهم الآن يصنعون من الصوف ملابس ناعمة كالحرير يرتديها المترفون .

ومن منافع الأنعام أيضاً الجلود والعظام وغيرها ، يقول تعالى : { والله جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأنعام بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَاثاً وَمَتَاعاً إلى حِينٍ } [النحل : 80] .

{ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } [المؤمنون : 21] أي : لحماً ، وذكر اللحم في آخر هذه المنافع؛ لأنه آخر ما يمكن الانتفاع به من الحيوان ، وسبق أنْ ذكرنا أن الحيوان الذي أحلّه الله لنا إذا تعرض لما يزهق روحه ، فإنه يرفع لك رقبته ، ويكشف لك عن موضع ذَبْحه كأنه يقول لك : أسرع واستفد مني قبل أنْ أموت .

وفي لقطة أخرى لمنافع الأنعام يقول سبحانه : { وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس } [النحل : 7] إذن : كل آية تحدثت عن الأنعام تعطينا فائدة لتظل مربوطاً بالقرآن كله .

وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22)

{ وَعَلَيْهَا } [المؤمنون : 22] أي : على الدواب تُحملون ، فنركب الدواب ، ونحمل عليها متاعنا ، لكن لما كانت الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، فإن الحق – سبحانه وتعالى – ما تركنا في البحر ، إنما حملنا فيه أيضاً { وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ } [المؤمنون : 22] فكما أعددتُ لكم المطايا على اليابسة الضيقة أعددتُ لكم كذلك ما تركبونه في هذه المساحة الواسعة من الماء .

ولما كان الكلام هنا عن الفُلْك فقد ناسب ذلك الحديث عَمَّنْ له صلة بالفُلْك ، وهو نوح عليه السلام : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَقَالَ ياقوم اعبدوا الله . . }

.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23)

بعد أنْ حدَّثنا القرآن الكريم عن خَلْق الإنسان وخَلْق الحيوان ، وحدثنا عن بعض نعمه التي امتنّ بها علينا تدرج بنا إلى صناعة الفُلْك؛ لأنه قد يسأل سائل : وكيف تكون هذه الفُلْك أي : تخلق كالإنسان والحيوان بالتوالد ، أم تنبت كالزرع؟ فأوضح الخالق سبحانه لأنه وُجدت بالوحي في قوله تعالى : { فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } [المؤمنون : 27] .

ومعنى { بِأَعْيُنِنَا } [المؤمنون : 27] أنها صنعة دقيقة ، لم يترك فيها الحق سبحانه نبيَّه يفعل ما يشاء ، إنما تابعه ولاحظه ووجَّهه إلى كيفية صناعتها والمواد المستخدمة فيها ، كما قال سبحانه : { وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ } [القمر : 13] وهي الحبال ، كانوا يربطون بها ألواح الخشب ، ويضمون بعضها إلى بعض ، أو المسامير تُشَدُّ بها الألواح بعضها إلى بعض .

لكن ، مهما أُحكِمَتْ ألواح الخشب بعضها إلى بعض ، فلا بُدَّ أنْ يظل بينها مسامّ يتسرب منها الماء ، فكيف نتفادى ذلك في صناعة الفُلْك خاصة في مراحلها البدائية؟ يقولون : لا بُدَّ لصانع الفُلْك أنْ يجفف الخشب جيداً قبل تصنيعه فإذا ما نزل الخشبُ الماءَ يتشرب منه ، فيزيد حجمه

فيسدّ هذه المسام تماماً ، ولا يتسرب منها الماء .

ومن عجائب القرآن ومعجزاته في مسألة الفُلْك قوله تعالى : { وَلَهُ الجوار المنشئات فِي البحر كالأعلام } [الرحمن : 24] يعني : كالجبال العالية . وهذه الفُلْك لم تكُنْ موجودة وقت نزول القرآن إنما أخبر الله بها ، مما يدل على أنه تعالى الذي امتنّ علينا بهذه النعمة ، علم ما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان من تطور في صناعة الفلك ، وأنها ستكون عالية شاهقة كالجبال .

وطالما أن الكلام معنا عن الفُلْك ، فطبيعي ومن المناسب أن نذكر نوحاً عليه السلام؛ لأنه أول من اهتدى بالوحي إليه إلى صناعة الفُلْك ، فقال سبحانه : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ . . } [المؤمنون : 23] لما تكلم الحق سبحانه عما في الأنعام من نِعَم وفوائد ، لكنها تؤول كلها – بل والدنيا معها – إلى زوال ، أراد سبحانه أن يعطينا طرفاً من الحياة الباقية والنعيم الدائم الذي لا يزول فذكر منهج الله الذي أُرسِل به نوح ، وهو واحد من أولى العَزْم من الرسل .

والإرسال : هو أنْ يكلِّف مُرسِل مُرْسَلاً إلى مُرْسَل إليه ، فالمكلف هو الحق سبحانه ، والمكلف بالرسالة نوح عليه السلام ، والمرسل إليهم هم قومه ، والله لا يرسل إلى قوم إلا كانوا يهمونه ، وكيف لا وهم عباده وخَلْقه ، وقد جعلهم خلفاء له في الأرض؟

والذي خلق خَلْقاً ، أو صنع صَنْعة لا بُدَّ أنْ يضع لها قانون صيانتها ، لتؤدي مهمتها في الحياة ، وتقوم بدورها على الوجه الأكمل ، كما مثَّلنا لذلك – ولله تعالى المثل الأعلى – بصانع الثلاجة أو التلفزيون حين يضع معه كتالوجاً يحوي تعليمات التشغيل وطريقة الصيانة وكيفية إصلاح الأعطال .

فالذي خلق الإنسان وجعله خليفة له في الأرض أَوْلَى بهذا القانون وأَوْلَى بصيانة خَلْقه؛ لذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتُك من أجلي ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » يعني : ما دام كل شيء من أجلك يعمل لك ويُؤدِّي مهمته ، فعليك أيضاً أن تؤدي مهمتك التي خلقتُك من أجلها .

لذلك وضع لك ربُّك قانون صيانتك بافعل كذا ولا تفعل كذا ، فعليك أن تلتزم الأمر فتؤديه فهو سِرُّ الجمال في الكون ، وسِرُّ السعادة والتوافق في حركة الحياة ، وعليك أن تجتنب النهي فلا تقربه؛ لأنه سيؤدي إلى قُبْح ، وسيكشف عورة من عورات المجتمع ، أما الأمور التي سكت عنها فأنت حُرٌّ فيها تفعل أو لا تفعل؛ لأن ذلك لا يأتي بقبيح في المجتمع ، وهذه المسائل تُسمَّى المباحات ، وقد تركها الله لحريتك واختيارك .

والحق – تبارك وتعالى – لما استدعى الإنسان إلى هذا الكون خلق له مقومات حياته من مُقوِّمات استبقاء الحياة من طعام وشراب وهواء واستبقاء النوع بالتناسل ، وقد شمل قانون الصيانة كل هذه المقومات ، فنظمها وحدد ما يحل وما يحرم . فقال : كُلْ هذه ولا تأكل هذه ، واشرب هذا

ولا تشرب ذاك ، ولو شاهدنا المخترعين في مسائل المادة نجد الصانع يحدد مقومات صنعته ، فمثلاً هذا الجهاز يعمل على 110 فولت ، وهذا يعمل 220 فولت ، وهذه الآلة تعمل بالبنزين ، وهذه بالسولار ، فلو غيَّرت في هذه المقومات تفسد الآلة ولا تؤدي مهمتها .

كذلك – ولله المثل الأعلى – عليك أن تلتزم بقانون ومنهج خالقك عز وجل ، ولا تَحِدْ عنه ، وإلا فسد حالك وعجزتَ عن أداء مهمتك في الحياة . فإن أردنا أن تستقيم لنا الخلافة التي خلقنا الله لها وهي خلافة مُصلحة لا مُفسدة ، فعلينا بقانون الصيانة الذي وضعه لنا خالقنا عز وجل .

لذلك ، إنْ رأيت في المجتمع عورة ظاهرة في أي ناحية من نواحي الحياة فاعلم أنها نتيجة طبيعية للخروج عن منهج الله ، وتعطيل حكم من أحكامه ، فمثلاً حين ترى الفقراء والجوْعى والمحاويج فاعلم أن في الأمر تعطيلاً لحكم من أحكام الله ، فهم إما كسالى لا يحاولون السَّعْي في مناكب الأرض ، وإما غير قادرين حرمهم القادرون واستأثروا بالثروة دونهم .

البعض يقول : إذا كان الحق سبحانه قد حرَّم علينا بعض الأشياء ، فلماذا خلقها؟ ويُمثِّلون لذلك بالخنزير مثلاً وبالخمر . وخطأ هؤلاء أنهم يظنون أن كل شيء خُلِق ليُؤكل ، وهذا غير صحيح؛ لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء لمهمة تؤديها في الحياة ، وليس بالضرورة أنْ تُؤكل ، فالخنزير خلقه الله لينظف البيئة من القاذورات ، لذلك لا تراه يأكل غيرها .

أما الخمر فلم تُخلق خمراً ، إنما هي ثمرة العنب الحلوة التي تؤكل طازجة ، أخذها الإنسان وتدخّل في هذه الطبيعة وأفسدها بتخميره ، فصار الحلال بذلك محرماً .

نعود إلى قول الله تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ } [المؤمنون : 23] القوم : هم الرجال ، خاصة من المجتمع ، وليس الرجال والنساء ، بدليل قوله تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ . . } [الحجرات : 11] فالنساء في مقابل القوم أي : الرجال .

ومن ذلك قول الشاعر :

وَمَا أَدْرِي وسَوْفَ أَخَالُ أَدْرِي ... أَقَوْمٌ آلُ حِصنٍ أَمْ نِسَاءُ

لكْن هل أُرسِل نوح عليه السلام إلى الرجال دون النساء؟ أُرسِل نوح إلى الجميع ، لكن ذُكِر القوم لأنهم هم الذين سيحملون معه أمر الدعوة ويسيحون بها ، ويُبلّغونها لمن لهم ولاية عليهم من النساء ، والرجال مَنُوط بهم القيام بمهام الأمور في عمارة الكون وصلاحه .

والإضافة في { قَوْمِهِ . . } [المؤمنون : 23] بمعنى اللام يعني : قوم له؛ لأن الإضافة تأتي بمعنى من مثل : أردب قمح يعني من قمح ، وبمعنى في مثل : مكر الليل يعني في الليل ، وبمعنىاللام مثل : قلم زيد يعني لزيد .

فالمعنى هنا : قوم له؛ لأنه منهم ومأمون عليهم ومعروف لهم سيرته الأولى ، فإذا قال لهم لا يتهمونه ، إذن : فمن رحمة الله بالخَلْق أن يرسل إليهم واحداً منهم ، كما قال سبحانه : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . } [التوبة : 128] ففي هذا إيناس وإلْفٌ للقوم على خلاف ما إنْ كان الرسول مَلَكاً مثلاً ، فإن القوم يستوحشونه ولا يأنسون إليه .

لذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يُسمَّى بين قومه وقبل بعثته بالصادق الأمين؛ لأنه معروف لهم ماضيه وسيرته ومُقوِّمات حياته تُشجِّع على أنْ يُصدِّقوه فيما جاء به ، وكيف يصدقونه في أمر الدنيا ، ولا يُصدقونه في البلاغ عن الله؟

إذن : { إلى قَوْمِهِ } [المؤمنون : 23] أننا لم نأْتِ لكم برسول من جنس آخر ، ولا من قبيلة أخرى ، بل منكم ، وتعرفون ماضيه وتاريخه ، فتأنسون بما يجيء به ، ولا تقفون منه موقف العداء .

أو يكون المعنى : إلى قوم منه؛ لأنهم لا يكونون قوماً قوّامين على شئون إصلاح الحياة ، إلا إذا استمعوا منهجه ، فهم منه؛ لأنهم سيأخذون منه منهج الله .

ثم يقول سبحانه : { فَقَالَ ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ . . } [المؤمنون : 23] (يا قوم) استمالة وتحنين لهم { اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ . . } [المؤمنون : 23] والعبادة طاعة عابد لأمر معبود ، والعبادة تقتضي تكليفاً بأمر ونهي . فالألوهية تكليف وعبادة ، أما الربوبية فعطاء وتربية؛ لذلك قال سبحانه { هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [هود : 34] أي : ربكم جميعاً : ربّ المؤمن ، وربّ الكافر ، ربّ الطائع ، ورب العاصي .

وكما قلنا : الشمس والقمر والأرض والمطر . . الخ كلها تخدم الجميع ، لا فرْقَ بين مؤمن وكافر؛ لأن ذلك عطاء الربوبية ، وإنْ سألت الكافر الجاحد : من خلقك؟ من رزقك؟ فلن يملك إلا أن يقول : الله ، إذن : فليخْزَ هؤلاء على أعراضهم ، وليعلموا أنه تعالى وحدة المستحق للطاعة وللعبادة .

فمقتضيات الربوبية والإيمان بها تقتضي أن نؤمن بالألوهية .

كما أن الطفل الصغير ينشأ بين أبيه وأمه ويشبّ ، فلا يجد غيرهما يخدمه ويقضي حاجته ويُوفِّر متطلباته ، بل ويزيل عنه الأذى ويسهر على راحته . كل ذلك بروح سعيدة ونفس راضية مطمئنة ، ربما يجوعان لتشبع ، ويعريان لتكسى ، ويحرمان نفسيهما ليوفرا لك الحياة الكريمة ، فإذا ما كبر الصغير وبلغ الحُلُم ومبلغ الرجال نجده يعقُّهما ، ويخرج عن طاعتهما ، ويأخذه من أحضانهما أصدقاء السوء ، ويُزيّنون له التمرد على أبيه وأمه .

ونقول لمثل هذا العاق : اخْزَ على عِرْضك واسْتَحِ ، فليس هكذا يكون رد الجميل ، وأين كان هؤلاء الأصدقاء يوم أنْ كنتَ صغيراً تحتاج إلى من يعولك ويميط عنك الأذى ، ويسهر على

راحتك؟ قد كان ينبغي عليك ألاَّ تسمع إلا لمن أحسن إليك .

وهذا مثال لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية – ولله المثل الأعلى – فكيف تأخذ من ربك عطاء الربوبية ، ثم تتمرد عليه سبحانه في الألوهية ، فتعصي أمره وتكفر بنعمه؟ كان من الواجب عليك الوفاء للنعمة .

ولا بد أن تعلم أن ربك – عز وجل – مأمون عليك في التكليف بالأمر والنهي ، لأنك عبده وصنعته ، وأنك حين تُؤدِّي ما عليك تجاه الألوهية لا ينتفع الله سبحانه من ذلك بشيء ، إنما تعود منفعتها عليك ، وهكذا إذا ما رددت أمور الطاعة والعبادة والتكاليف لوجدتها تعود في النهاية أيضاً إلى عطاء الربوبية؛ لأنها تعود عليك أنت بالنفع .

فنحن نأخذ الأوامر والنواهي على أنها تكاليف وأعباء يقتضيها الإيمان بالألوهية ، نقول : نعم هي تكاليف من الله لكن لصالحك ، فلو أنصفتَ لوجدتَ الألوهية من الربوبية ، فحين يُحرِّم مثلاً عليك شرب الخمر ويحميك من فساد العقل ، هل ينتفع سبحانه من ذلك بشيء؟

لذلك يقول تعالى عن هؤلاء : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله . . } [لقمان : 25] .

ويقول : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله . . } [الزخرف : 87] .

فما دام هو سبحانه خالقكم ورازقكم وخالق السموات والأرض ، فلماذا تعصونه؟ وهل نقص عصيانكم من مُلْكه شيئاً؟ وهل زاد في مُلْكه شيء بطاعة مَنْ أطاع؟ هل زاد في مُلْك الله بطاعة الطائعين أرض أو سماء ، أو شمس أو قمر؟

إن الحق سبحانه قبل أن يخلقكم خلق لكم بصفات الكمال فيه كل مُقوِّمات حياتكم واستدعاكم إلى كون مُعَدٍّ لاستقبالكم ولمعيشتكم . إذن : فربُّكَ – عز وجل – لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية .

لذلك يقول في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا في صعيد واحد ، وسألني كل واحد مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كمغرز إبرة أحدكم إذا غمسه في البحر ، وذلك أنِّي جواد واجد ماجد ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردتُه أن أقول له : كن فيكون » .

إذن : حين تطيعني فالخير لك؛ لأنك ضمنتَ بهذه الطاعة حياة أخرى خالدة باقية بعد هذه الحياة الفانية التي مهما أترفت فيها فهي إلى زوال ، فإما أنْ تفوت نعيمها بالموت ، وإما أنْ

يفوتك بالحاجة والفقر ، أما في الآخرة فالنعيم دائم بَاقٍ لا يفوتك ولا تفوته؛ لأنها نعمة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

لذلك قال سبحانه : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] فكأن عطاء الألوهية ربوبية متعدية إلى زمن آخر غير زمن الدنيا ، فلا تظن أن طاعتك ستفيدني في شيء ، أو أن معصيتك ستضرني بشيء ، ومن هنا قال تعالى : { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [النحل : 118] .

وقوله تعالى : { مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ } [المؤمنون : 23] أي : معبود غيره { أَفَلاَ تَتَّقُونَ } [المؤمنون : 23] هذا استفهام يحمل معنى التهديد والتوبيخ ، لكن كيف يُوبِّخهم وهو لم يَزَلْ في مرحلة الأمر بعبادة الله ، ولم يسمع منهم بعد بوادر الطاعة أو العصيان؟ قالوا : يبدو أنه رأى منهم إعراضاً فأمرهم بتقوى الله .

والتقوى معناها أنْ تجعل بينك وبين ربك وقاية تقيك صفات جبروته وقَهْره وتحميك من أسباب بَطْشه وانتقامه ، فلست مطيقاً لهذه الصفات . والوقاية التي تجعلها بينك وبين هذه الصفات هي أن تنفذ منهج الله بطاعة الأوامر واجتناب النواهي .

ومن عجيب تركيبات التقوى في القرآن الكريم أنْ يقول سبحانه : { واتقوا الله } [البقرة : 194] ويقول : { فاتقوا النار . . } [البقرة : 24] قالوا : نعم اتق الله ، واتق النار؛ لأنك تتقي الله من متعلقات صفات قهره وغضبه ومنها النار ، فحين تتقي الله بالمنهج فقد اتقيْتَ النار أيضاً .

ثم يقول سبحانه : { فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ . . }

.

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24)

الملأ : من الملء يعني : الشيء الذي يملأ الشيء ، فالملأ يعني الذين يملأون العيون بشرفهم ومكانتهم وعظمتهم وأبهتِهم ، ومن ذلك قولهم : فلان مِلءُ العين ، أو مِلْءُ السمع والبصر ، ويقولون للرجل إذا بلغ في الحُسْن مبلغاً : فلان قَيْد العيون يعني : حين تراه لا تصرف بصرك إلى غيره من شِدَّة حسنه كأنه قيَّد بصرك نحوه . أما في المقابل فيقولون : فلان تتقحمه العين ولا تراه وكأنه غير موجود .

إذن : الملأ : هم الذين يملؤون صدور المجالس أُبَّهة وفخامة ووجاهة وسيادة ، لكن ، لماذا هؤلاء بالذات هم الذين تعصَّبوا ضده وواجهوه؟

قالوا : لأن منهج الله ما جاء إلا لإصلاح ما فسد في الكون وما استشرى فيه من شر ، فالحق – تبارك وتعالى – يُنزِل منهجاً على لسان رسول أول ، ويطلب من قومه أن يُبلِّغوا منهج رسولهم من بعده ، لكن تأتي الغفلة على هذا المنهج فيخرج الناس عنه ويأتي خروجهم عن منهج ربهم على عِدَّة صور :

فمنهم مَنْ يخرج عن منهج ربه ويصنع الذنب ، إلا أنه يعاود نفسه ويراجعها ويلومها وسرعان ما يتوب ويندم ، فزاجره من نفسه وواعظه من داخله ، وهؤلاء الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

ومنهم مَنْ يخرج على منهج ربه خروجاً لا رجعةَ له ولا زاجر ، وهذا نسميه بلغتنا (فاقد) يعني : لم يَعُدْ له زاجر من شرع ولا من ضمير . ويبقى بعد ذلك زاجر المجتمع حين يرى مثل هؤلاء الخارجين عن منهج الحق عليه أنْ يتصدَّى لهم ، ويقاطعهم ولا يودهم ولا يحترمهم ، وإلا لو ظَلَّ المنحرف ومرتكب القبائح على حاله من احترام الناس وتقديرهم ، ولو ظلَّ على مكانته في المجتمع لتمادى في غَيِّه وأسرف على نفسه وعلى مجتمعه فيستشري بذلك الشر في المجتمع ، ويعُمّ الفساد وتشيع الفوضى .

ألاَ ترى الشرع الحكيم حين جعل الدية في القتل على العاقلة يعني : عائلة القاتل ، لا على القاتل وحده؟ لماذا؟ لكي يأخذوا على يد ولدهم إن انحرف أو بدَتْ عنده بوادر الاعتداء؛ لأنهم جميعاً سيحملون هذه التبعة .

ونقول : خُصَّ الملأ بالذات؛ لأنهم هم المنتفعون بالشر والفساد في المجتمع ، ومن مصلحتهم أنْ يستمر هذا الوضع لتبقى لهم سلطتهم الزمنية ومكانتهم؛ لذلك هم أول مَنْ يقابلون الرسالات بالجحود والنكران . ألم يقل الحق سبحانه عنهم في آية أخرى : { مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا . . } [هود : 27] .

فهؤلاء الذين يُسمُّونهم أراذل هم المستضعفون والفقراء والمطحونون والمهمومون بأمور الخَلْق والدين والقيم ، فما إنْ تسمع آذانهم عن رسالة إلا تلهَّفوا عليها وارتموا في أحضانها لأنها جاءت لتنقذهم؛ لذلك يكونون أول مَنْ يؤمن . وإنْ جاء المنهج لإنصاف هؤلاء ، فقد جاء أيضاً لينزع من أصحاب السلطان والقهر والجبروت سلطانهم وتعاليهم ، فلا بُدَّ أن يواجهوه ويعاندوه .

ومعنى : { الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ . . } [المؤمنون : 24] كفروا : يعني جحدوا وجود الله { مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } [المؤمنون : 24] فأول شيء صَدَّهم عن الرسول كونه بشراً ، إذن : فماذا كنتم تنتظرون؟ وقد شرح هذا المعنى في قوله تعالى : { وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 94] .

ولا بُدَّ في الرسول أن يكون من جنس المرسَل إليهم؛ ليصح أن يكون لهم أُسْوة ، فيقلدوه

ويهتدوا به ، وإلا لو جاء الرسول مَلكاً فكيف تتحقق فيه القدوة؟ وكيف تطيعونه وأنتم تعلمون أنه مَلَكٌ لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ، وليست لديه شهوة ، ولا مُقوِّمات المعصية؟

ولنفرض أن الله نزَّل عليكم ملَكاً ، فكيف ستشاهدونه وتتلقوْن عنه؟ لا بُدَّ – إذن – أن يأتيكم في صورة رجل لتتمكنوا من مشاهدته والتلقِّي عنه ، وهكذا نعود في نقاش هذه المسألة إلى أنه رجل؛ لذلك قال سبحانه : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ } [الأنعام : 9] وتظل الشبهة باقية .

إذن : من الحُمْق أن نقول بأن يكون الرسول مَلَكاً .

أما قولهم : { بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } [المؤمنون : 24] نعم ، هو بشر ، لكن ليس كمثلكم ، فأنتم كاذبون في هذه المثلية ، لأنه بشر اصطفاه الله بالوحي؛ لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤخذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم ، وأُعْطَى من الله فأقول : أنا لست كأحدكم » .

ويقول تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : { قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ } [فصلت : 6] ومن هنا كانت الأفضلية في أنه بَشر يُوحَى إليه ، وما بشريته إلا للإيناس والإلْف .

ثم يتابع الحق سبحانه مقالة هؤلاء الكافرين من قوم نوح : { يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ } [المؤمنون : 24] يتفضّل : يعني ينسب نفسه إلى الفضل والشرف والسيادة ليكون متبوعاً وهم تابعون { وَلَوْ شَآءَ الله } [المؤمنون : 24] يعني : لو شاء أنْ يرسل رسولاً { لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً } [المؤمنون : 24] أي : رسلاً ، وقد رَدَّ الله تعالى عليهم هذا القول ، فقال تبارك وتعالى : { قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } [الإسراء : 95] .

ثم يقولون : { مَّا سَمِعْنَا بهذا في آبَآئِنَا الأولين } [المؤمنون : 24] المراد بهذا : يعني أن يأتي مَنْ يقول اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، لأن آباءنا الأولين كانوا يعبدون الأصنام ، ولم يأْتِ مَنْ يقول لنا هذا الكلام مثل نوح .

وهذا دليل على أنهم مُقلِّدون للآباء ، ليس لديهم تفكير واستقلال في الرأي ينظرون به إلى الأشياء نظرة الحق والعدالة ، وفي موضع آخر قال تعالى عنهم : { إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ } [الزخرف : 23] .

ولو تأملنا حال المجتمعات ، ومنها مجتمعنا الذي نعيش فيه لوضح لنا كذب هؤلاء في ادعائهم التقليد للآباء ، كيف؟ تأمل حال الأجيال المختلفة تجد كل جيل له راية وتطلعاته ورغباته التي ربما اختلف فيها الأبن عن أبيه ، فالأبناء الآن لهم رأي مستقل ، فالولد يختار مثلاً الكلية التي

يرغبها ، الملابس التي يحبها ، وإنْ خالفتْ رأي أبيه ، بل ويصل الأمر إلى اتهام الآباء بالجمود والتخلف إنْ لزم الأمر ، وهذا موجود في كل الأجيال .

إذن : لماذا لم تقولوا في مثل هذه الأمور : إنا وجدنا آباءنا على أمة؟ لماذا كانت لكم ذاتية ورأْيٌ مستقل في أمور الدنيا دون أمور الدين؟ إنكم تتخذون الذاتية فيما يُلبِّي رغباتكم وشهواتكم وانحرافاتكم ، وتتخذون التقليد فيما يُقلِّل تكليفكم؛ لأن التكليف سيُقيِّد هذه الرغبات والشهوات ويقضي على هذه الانحرفات؛ لذلك يتمرد هؤلاء على منهج الله .

لذلك ، نعجب لما نراه ونسمعه من حال أبنائنا اليوم ، وكيف أفلتَ الزمام من الآباء والأمهات ، فالشاب يسير على هواه في أمور انحرافية ، فإن وجَّهه أبوه أعرض عنه واتهمه بأنه من جيل قديم وقد ذهب زمانه بلا رجعة ، وقد تعدى الأمر من الأولاد إلى البنات ، فصِرْن أيضاً يتمردْنَ على هذه القيم ولا يهتممن بها .

فقولهم : { مَّا سَمِعْنَا بِهذا فِي آبَآئِنَا الأولين } [المؤمنون : 24] .

فقولهم : { إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ } [الزخرف : 23] هم كاذبون أيضاً في هذه المقولة؛ لأنهم لو صَدَقوا لقلَّدوهم في كل شيء وما عليهم في أمور الدنيا وفي أمور الدين والقيم والأخلاق .

لذلك الحق – تبارك وتعالى – يعالج هذه القضية في مواضع عدة من كتابه الكريم ، وبأساليب مختلفة ، منها قوله سبحانه : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَآ أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ . . } [البقرة : 170] .

لأن هذا يريحهم من مشقة التكاليف ، وإنْ كانت العبادة : طاعة عابد لمعبود في أمره ونهيه ، فما أسهلَ عبادة الأصنام؛ لأنها آلهة كما يدعون لكن ليس لها منهج ، وليس معها تكاليف ، فبأيِّ شيء أمرك الصنم؟ وعن أيِّ شيء نهاك؟ وماذا أعدَّ من جزاء لمن أطاعه؟ وماذا أعدَّ من عقاب لمن عصاه ، إذن : معبود بلا منهج وبلا تكاليف ، وهذا دليل كذبهم في عبادة الأصنام وغيرها من آلهتهم .

الم يقولوا : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى } [الزمر : 3] فهذا حُمْق وسَفَه وجهل؛ لأن الكلام منطقياً لا يستقيم ، كيف تقولون نعبدهم وليس لهم منهج ، وليس لهم تكاليف ، والعبادة طاعة عابد لمعبود؟

إذن : ما هو إلا خِوَاء وإفلاس عقديّ؛ لذلك يردُّ الحق – تبارك وتعالى – عليهم فيقول سبحانه : { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } [البقرة : 170] .

وفي موضع آخر يقول – سبحانه وتعالى – عنهم : { قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ . . } [المائدة : 104] وهذه أبلغ من سابقتها ، لأنهم يُصعِّدون كفرهم ويُصِرون عليه ، فقولهم : { بَلْ

نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ . . } [البقرة : 170] فلربما يراجعون أنفسهم فيهتدون إلى الحق ، ويخالفون الآباء .

لكن هنا :

{ حَسْبُنَا . . } [المائدة : 104] يعني : كافينا ، ولن نغيره ولن نحيد عنه؛ لذلك يأتي كل آية بما يناسبها : ففي الأولى قال تعالى رداً عليهم : { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً } [البقرة : 170] وفي الأُخْرى قال رداً عليهم : { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً . . } [المائدة : 104] .

فذكر العقل في الأولى؛ لأن الإنسان يأتمر فيه بنفسه ، وذكر في الأخرى العلم؛ لأن الإنسان في العلم يأتمر بعقله ، وعقل العلم أيضاً ، فالعلم – إذن – أوسع من العقل؛ لذلك ذكره مع قولهم { حَسْبُنَا . . } [المائدة : 104] الدالة على المبالغة والإصرار على الكفر .

كما نلحظ عليهم في قولهم : { مَّا سَمِعْنَا بهذا . . } [المؤمنون : 24] أن الغفلة قد استحكمت فيهم؛ لأن نوحاً عليه السلام يعتبر الجد الخامس بعد آدم عليه السلام ، فبينهما فترة طويلة ، فكيف ما سمعوا طوال هذه الفترة برسول أو نبي ، يقول : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره؟

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25)

{ إِنْ هُوَ . . } [المؤمنون : 25] يعني : ماهو و { جِنَّةٌ } : يعني جنون ، وهو ستر العقل الذي ستر العقل الذي يسيطر على حركة الإنسان في الحياة فيسير حسب تقنيناتها (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، أما المجنون فيعمل ما يخطر له دون أنْ يعرض الأعمال على العقل أو التفكير؛ لذلك من عدالة الله في خَلْقه أننا لا نؤاخذ المجنون على تصرُّفاته حين يعتدى على أحد منا بالسبِّ أو الضرب مثلاً ، ولا نملك إلا أن نبتسم له ، وندعو الله أن يعافينا مما ابتلاه به .

فإنْ كان هذا الحال المجنون في حركة حياته ، فهل يكون ذو الخلق الذي يسير وَفْق قوانين الحياة ومحكوماً بنظم وقيم خلقية ، هل يكون مجنوناً؟ ومن العجيب أن تهمة الجنون هذه سائرة على لسان المكذِّبين للرسل في كل زمان ومكان ، وقد اتُّهِم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فردَّ الله عليهم ونفى عن رسوله هذه الصفة في قوله : { ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : 1 – 4] .

فكيف يكون ذو الخلق مجنوناً؟ ولو كان صلى الله عليه وسلم مجنوناً ، فلماذا استأمنوه على ودائعهم ونفائسهم ، واطمأنوا إليه ، وسمَّوْه الصادق الأمين؟ إنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم يعلمون خُلقه ، وأنه محكوم بقيم من الحق والخير لا تتزحزح .

وما دام الأمر لا يعدو أن يكون رجلاً به جِنَّة { فَتَرَبَّصُواْ بِهِ حتى حِينٍ } [المؤمنون : 25] أي : انتظروا واتركوه وشأنه ، فربما عاد إلى صوابه ، وترك هذه المسألة من تلقاء نفسه حين يرانا منصرفين عنه غير مُهتمين به ، أو دَعُوه فإنْ كان على حق ونصرة الله وأظهر أمره عندها نتبعه ، وإنْ كانت الأخرى فها نحن مُعرِضون عنه من بداية الأمر .

قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26)

بعد أنْ كذَّبه قومه دعا الله ان ينصره { بِمَا كَذَّبُونِ } [المؤمنون : 26] يعني : انصرني بسبب تكذيبهم ، واجعل تكذيبهم لا مدلولَ له فينتصر عليهم رغم تكذيبهم ، أو : يا رب عوِّضني بتكذيبهم نصراً ، يعني : أبْدِلني من كذبهم نصراً ، كما تقول : اشتريت كذا بكذا ، فأخذت هذا بدل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا . . } .

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27)

استجاب الله تعالى دعاء نبيه نوح – عليه السلام – في النُّصْرة على قومه ، فأمره بأن يصنع الفلك . والفُلْك هي السفينة ، وتُطلق على المفرد والجمع ، قال تعالى : { فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك المشحون } [الشعراء : 119] وقال : { وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [فاطر : 12] فدلَّتْ مرة على المفرد ، ومرة على الجمع .

وقوله تعالى : { بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا . . } [المؤمنون : 27] دليل على أن نوحاً – عليه السلام – لم يكن نجاراً كما يقول البعض ، فلو كان نجاراً لهداه عقله إلى صناعتها ، إنما هو صنعها بوحي من الله وتوجيهاته ورعايته ، كما قال سبحانه : { وَلِتُصْنَعَ على عيني } [طه : 39] فالمعنى : اصنع الفُلْك ، وسوف أوفقك إلى صناعتها ، وأهديك إلى ما يجب أن يكون ، وأُصحِّح لك إنْ أخطأت في وضع شيء في غيرموضعه ، إذن : أَمَرْتُ وأَعَنْتُ وتابعتُ . والوحي : هو خطاب الله لرسوله بخفاء .

ثم يقول تعالى : { فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور } [المؤمنون : 27] .

وهنا لم يتعرض السياق للفترة التي صنع فيها نوح السفينة ، والتي جاءت في قوله تعالى : {

وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ } [هود : 38] ذلك لأنهم لا يعلمون شيئاً عن سبب صناعتها .

وفي موضع آخر يُعْلِمنا – سبحانه وتعالى – عن كيفية صُنْعها فيقول : { وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ } [القمر : 13] وقلنا : إن الدُّسُر : الحبال التي تُضَمُّ بها ألواح الخشب بعضها إلى بعض شريطة أن تكون جافة ، وتُضَم إلى بعضها بحكمة حتى إذا ما نزل الماء وتشرَّبت منه يزيد حجمها فتسدُّ المسام بين الألواح ، كما نراهم مثلاً يصنعون براميل الزيت من شرائح الخشب .

وقد صنع أحدهم سفينة من البَرْدى بهذه الطريقة ، وسافر بها إلى أمريكا واستخدم فيها الحبال بدلاً من المسامير .

ثم يقول سبحانه : { فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا . . } [المؤمنون : 27] يعني : بإنجاء المؤمنين بك ، وإهلاك المكذبين { وَفَارَ التنور . . } [المؤمنون : 27] والتنور : هو الفرن الذي يخبزون فيه الخبز ، ويقال : إنه كان موروثاً لنوح من أيام آدم ، يفور بالماء يعني : يخرج منه الماء ، وهو في الأصل محلٌّ للنار ، فيخرج منه الماء وكأنه يغلي . لكن هل كل الماء سيخرج من التنور؟ الماء سيخرج من كل أنحاء الأرض وسينزل من السماء ، وفوران التنور هو إيذان بمباشرة هذه العملية وبداية لها .

إذا حدث هذا { فاسلك فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين . . } [المؤمنون : 27] يعني : احمل وأدخل فيها زوجين ذكراً وأنثى من كل نوع من المخلوقات ، كما في قوله تعالى : { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ } [المدثر : 42] يعني : أدخلكم ، وقال سبحانه : { اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ . . } [القصص : 32] يعني : أدخلها ، وقال سبحانه : { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المجرمين } [الحجر : 12] .

ومن مادة (سلك) أخذنا في أعرافنا اللغوية .

نقول : سلَّك الماسورة أو العين يعني : أدخل فيها ما يزيل سدَّتها .

والتنوين في { مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين . . } [المؤمنون : 27] يعني : من كل شيء نريد حِفْظ نوعه واستمراره؛ لأن الطوفان سيُغرق كل شيء ، والحق – تبارك وتعالى – يريد أن يحفظ لعباده المؤمنين مُقوِّمات حياتهم وما يخدمهم من الحيوانات والأنعام وجميع أنواع المخلوقات الأخرى من كل ما يلِدُ أو يبيض .

ومعنى { زَوْجَيْنِ } [المؤمنون : 27] ليس كما يظنُّ البعض أن زوج يعني : اثنين ، إنما الزوج يعني فرد ومعه مثله ، ومنه قوله تعالى : { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مَّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ

الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين . . } [الأنعام : 143 – 144] .
فسمَّى كلَّ فرد من هذه الثمانية زوجاً؛ لأن معه مثله .
هذا في جميع المخلوقات ، أما في البشر فلم يقُلْ زوجين ، إنما قال { وَأَهْلَكَ } [المؤمنون : 27] أياً كان نوعهم وعددهم ، لكن الأهلية هنا أهلية نسب ، أم أهلية إيمانية؟
الأهلية هنا يُراد بها أهلية الإيمان والاتباع ، بدليل أن الله تعالى شرح هذه اللقطة في آية أخرى ، فقال على لسان نوح عليه السلام : { فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي . . } [هود : 45] .
فقال له ربه : { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } [هود : 46]
فبنوة الأنبياء بنوة عمل واتباع ، فإنْ جاءت من صُلْبه فأهلاً وسهلاً ، وإنْ جاءت من الغير فأهلاً وسهلاً . « لذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول عن سلمان الفارسي : » سلمان منا آل البيت « » فقد تعدى أن يكون مسلماً إلى أن صار واحداً من آل البيت .
وكذلك أدخل فيها أهلك من النسب بدليل أنه استثنى منهم : { إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول مِنْهُمْ } [المؤمنون : 27] وكان له امرأتان ، واحدة كفرت به وخانته هي وولدها كنعان ، والتي ذُكرت في قول الله تعالى في سورة التحريم : { ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا . . } [التحريم : 10] .
وكنعان هو الذي قال : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء وهذه اللقطة لم تذكر هنا؛ لأن أحداث القصة جاءت مُفرَّقة في عِدَّة مواضع ، بحيث لو جُمعت تعطي الصورة العامة للقصة ، فإنْ قُلْتَ : فلماذا لم تأتِ مرة واحدة كما في قصة يوسف عليه السلام؟
نقول : جاءت قصة يوسف كاملة في موضع واحد ليعطينا بها الحق – سبحانه وتعالى – نموذجاً للقصة الكاملة المحبوكة التي تدل على قدرته تعالى على الإتيان بالقصة مرة واحدة لمن أراد ذلك ، فإنْ أردتها كاملة فنحن قادرون على ذلك ، وها هي قصة يوسف ، إنما الهدف من القصص في القرآن هو تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : { كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً }

[الفرقان : 32] ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم سيقابل مواقف تكذيب وعداء وعناد من قومه ، وسيتعرض لأزمات شديدة ويحتاج إلى ما يُسلِّيه ويُثبِّته أمام هذه الأحداث .
لذلك جاءت لقطات القصص القرآني في عدة مواضع لتسلية رسول الله ، والتخفيف عنه كلما تعرَّض لموقف من هذه المواقف ، وبجَمْع هذه اللقطات المتفرقة تتكون لديك القصة الكاملة المستوية .
وقد أدخل نوح معه زوجته الأخرى المؤمنة وأولاده : سام وحام ويافث وزوجاتهم ، فهؤلاء ستة ونوح وزوجه فهم ثمانية ، ومعهم اثنان وسبعون من المؤمنين وأصول الإيمان الباقي مع نوح عليه

السلام .

ولما كان الحكم بغرق مَنْ كفر من أهله أمراً لا استئناف فيه ، قال تعالى بعدها : { وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ } [هود : 37] لكن ظلموا مَنْ؟ ظلموا أنفسهم حين كفروا بالله ، والحق سبحانه يقول : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .

صحيح أنت حين كفرت أخذتَ حقَّ الله في أنه واحد أحد موجود ، وإله لا معبود غيره ، وأعطيتَه لغيره ، لكن هذا الظلم لم يضر الله تعالى في شيء إنما أضرَّ بك وظلمتَ به نفسك ، ومنتهى الحُمْق والسفه أن يظلم الإنسان نفسه .

ثم يقول سبحانة : { فَإِذَا استويت أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الفلك فَقُلِ الحمد للَّهِ . . } .

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28)

{ استويت } [المؤمنون : 28] يعني : استعليتَ وركبتَ أنت ومَنْ معك على الفُلْك واطمأنّ قلبك إلى نجاة المؤمنين معك { فَقُلِ الحمد للَّهِ } [المؤمنون : 28] فلا بد للمؤمن أن يستقبل نِعَم الله عليه بالحمد ، وبألاَّ تُنسيه النعمةُ جلالَ المنعِم ، فساعةَ أنْ يستتب لك الأمر على الفُلْك وتطمئن بادر بحمد الله .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ كذلك زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [يونس : 12] .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يعطينا حصانة ، ويجعل لنا أسوة بذاته سبحانه ، حتى إذا ما تعرضنا لنكران الجميل ممَّنْ أحسنَّا إليه لا نغضب؛ لأن الناس ينكرون الجميل حتى مع الله عز وجل .

لذلك لما قال موسى – عليه السلام – يا ربّ أسألك ألاّ يُقال فيَّ ما ليس فيَّ . يعني : لا يتهمني الناس ظلماً ، فردَّ عليه ربه عز وجل : « يا موسى ، كيف ولم أصنع ذلك لنفسي » .

إذن : فهذه مسألة لا يطمع فيها أحد ، ولو أن كل فاعل للجميل يضِنُّ به على الناس لأنهم ينكرونه لَفَسد الحال ، وتوقفت المصالح بين الخَلْق ، وضَنَّ أهل الخير بخيرهم؛ لذلك وضع لنا ربنا – عز وجل – الأُسْوة بنفسه سبحانه .

والإنسان إنْ كان حسيساً لا يقف عند إنكار الجميل ، إنما يتعدّى ذلك فيكره مَنْ أحسن إليه ويحقد عليه ، ذلك لأن الإنسان مجبول على حب النفس والتعالي والغطرسة ، فإذا ما رأى مَنْ أحسن إليه كرهه؛ لأنه يدكُّ فيه كبرياء نفسه ، ويَحدُّ من تعاليه .

ومن هنا قالوا : « اتق شرَّ من أحسنت إليه » لماذا؟ لأنه يخزَى ساعة يراك ، وهو يريد أنْ يتعالى ، ووجودك يكسر عنده هذا التعالي .

إذن : وطِّنْ نفسك على أن الجميل قد يُنكَر حتى لو كان فاعله رب العزة سبحانه ، فلا يحزنك أنْ يُنكَر جميلك أنت .

وعن ذلك قال الشاعر :

يَسِير ذَوُو الحاجَاتِ خلفَكَ خُضَّعاً ... فَإنْ أدركُوهَا خلَّفوكَ وهَرْوَلُوا

وأفضلُهم مَنْ إنْ ذُكِرْت بسيءٍ ... توقَّفَ لا ينفي وقد يتقوّل

فَلا تَدعِ المعْروفَ مهما تنكَّروا ... فَإنَّ ثوابَ اللهِ أرْبَى وأجزَلُ

فالمعنى : إذا استويتَ أنت ومَنْ معك ، واستتبَّ لك الأمر على الفُلْك ، فإياك أنْ تغترّ أو تنأى بجانبك فتنسى حَمْد الله على هذه النعمة؛ لذلك أمرنا حين نركب أي مركب أن نقول : « بسم الله مجريها ومرساها » لأنك ما أجريتها بمهارتك وقوتك ، إنما باسم الله الذي ألهم ، وباسم الله الذي أعان ، وباسم الله الذي تابعني ، ورعاني بعينه ، وما دُمْتَ تذكر المنعم عند النعمة وتعترف لصاحب الفضل بفضله يحفظها لك .

أما أنْ تنكرها على صاحبها ، وتنسبها لنفسك ، كالذي قال : { إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِي . . } [القصص : 78] فيقول : ما دام الأمر كذلك ، فحافظ أنت عليه .

حتى في ركوب الدَّابّة يُعلِّمنا صلى الله عليه وسلم أنْ نقول : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .

وقوله تعالى : { الذي نَجَّانَا مِنَ القوم الظالمين } [المؤمنون : 28] وذكر النجاة لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة .

ثم يُعلِّمه ربه دعاءً آخر يدعو به حين تستقر به السفينة على الجُودي ، وعندما ينزل منها ليباشر حياته الجديدة على الأرض : { وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ . . }

.

وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29)

وفي موضع آخر قال سبحانه : { قِيلَ يانوح اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ . . } [هود : 48] لأنك ستنزل منها وليست هي مكان معيشتك .

وكذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم فقال كما حكى القرآن : { وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ . . } [الإسراء : 80] .

فلا بُدَّ أن تذكر في النعمة المنعِمَ بها ، لذلك فالذين يُصابون في نعم الله عليهم بأعين الحاسدين ، ثِقْ تمام الثقة أنهم حين رأوْا نعمة الله عليهم لم يذكروا المنعِم بها ، ولو أن الإنسان حين يرى نعمة من نعم الله عليه في ماله أو ولده فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ووضع النعمة في حماية المنعم لضمِن دوام نعمته وسلامتها من أعين الحاسدين؛ لأنه وضعها تحت قانون الصيانة الإلهية .

ومعنى : { مُنزَلاً مُّبَارَكاً . . } [المؤمنون : 29] الشيء المبارك : الذي يعطي فوق ما يتصور من حجمه ، كأن يعيش شخص براتب بسيط عيشة كريمة ويُربِّي أولاده أفضل تربية ، فيتساءل الناس : من أين ذلك؟ ونقول : إنها البركة التي تحلّ في القليل فيصير كثيراً ، صحيح أن الوارد قليل لكن يُكثِّره قلة المنصرف منه .

وقد مثّلنا لذلك بواحد يرتزق من الحلال ، فيُيسِّر الله أمره ، ويقضي مصالحه بأيسر تكلفه ، فإذا مرض ولده مثلاً يشفيه الله بقرص أسبرين وكوب من الشاي ، ولا يفزع لمرضه؛ لأنه مطمئن القلب ، راضي النفس ، واثق في معونة الله . أما الذي يتكسب من الحرام ويأكل الرشوة . . الخ إنْ مرض ولده يُهرع به إلى الأطباء ويتوقع في ولده أخطر الأمراض ، فإنِ ارتشى بعشرة صرف عليها مائة .

وسبق أن قلنا : إن هذه البركة هي رزق السَّلْب الذي لا يزيد من دخلك ، إنما يُقلِّل من مصروفاتك .

وكلمة { وَأَنتَ خَيْرُ المنزلين } [المؤمنون : 29] أم أنه سبحانه المُنزِل الوحيد؟ الله خير المنزلين يعني : أباح أن يقال للعبد أيضاً مُنزِل حين يُنزل شخصاً في مكان مريح ، كأن يُسكنه مثلاً في شقة مريحة ، أو يستقبله ضيفاً عليه . . الخ . وإنْ كنتَ منزِلاً بهذا المعنى ، فالله عز وجل هو خير المنزلين؛ لأنه سبحانه حين يُنزلك ينزل على قَدْره تعالى ، وعلى قَدْر كرمه وعطائه .

إذن : الحق – تبارك وتعالى – لم يضِنّ عليه خَلْقه أنْ يصفهم بما وصف به نفسه ، فلم يضنّ عليك أنْ يصفك بالخَلْق فقال : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين . . } [المؤمنون : 14] فأثبت لك صفة الخَلْق ، لأنك توجد معدوماً مع أنك تُوجده من موجود الله ، كأنْ تصنع من الرمل والنار كوباً من الزجاج مثلاً ، لكن ما توجده يظل جامداً على حالته لا ينمو ولا يتناسل ، وليست فيه حياة ، ومع ذلك سماك ربك خالقاً ، وكذلك قال : { وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين } [الأنبياء : 89] وقال : { خَيْرُ الماكرين } [آل عمران : 54] .

وكما أن الله عز وجل لم يضنّ عليك بهذه الصفات ، فلا تضنّ عليه سبحانه بأنه خير المنزلين ، وخير الوارثين ، وخير الماكرين ، وأحسن الخالقين .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ }

.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30)

{ فِي ذلك . . } [المؤمنون : 30] يعني : فيما تقدم { لآيَاتٍ . . } [المؤمنون : 30] عبر وعظات وعجائب ، لو فكّر فيها المرء بعقل محايد لانتهى إلى الخير { وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ } [المؤمنون : 30] فلا تظن أن الابتلاء مقصور على الظلمة والكافرين الذين أخذهم الله

وأهلكهم ، فقد يقع الابتلاء بمَنْ لا يستحق الابتلاء ، وحين يبتلي اللهُ أهلَ الخير والصلاح فما ذلك إلا ليزداد أجرهم وتُرفع مكانتهم ويُمَحّص إيمانهم .

ومن ذلك الابتلاءات التي وقعت بالمسلمين الأوائل ، فإنها لم تكُنْ كراهية لهم أو انتقاماً منهم ، إنما كانت تصفية لمعدنهم وإظهاراً لإيمانهم الراسخ الذي لا يتزعزع؛ لأنهم سيحملون دعوة الله إلى أنْ تقوم الساعة ، فلا بُدَّ من تمحيصهم وتصفيتهم .

كما قال سبحانه : { أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } [العنكبوت : 2] لا ، لابُدَّ من الابتلاء الذي يُمَيِّز الصادقين ممَّنْ يعبد الله على حَرْف ، لا بُدَّ أن يتساقط هؤلاء من موكب الدعوة ، ولا يبقى إلا المؤمنين الراسخون على إيمانهم الذين لا تزعزعهم الأحداث .

إذن : المعنى { وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ } [المؤمنون : 30] يعني : أهل الإيمان الذين لا يستحقون العذاب؛ لأننا نحب أن نرفع درجاتهم ونُمحِّص إيمانهم ليكونوا أَهْلاً لدعوة الله؛ لذلك يقول الحق – تبارك وتعالى – في الحديث القدسي : « وعزتي وجلالي ، لا أُخرج عبدي من الدنيا وقد أردتُ به الخير حتى أوفيه ما عمله من السيئات ، من مرض في جسمه وخسارة في ماله ، وفقد في ولده ، فإذا بقيتْ عليه سيئة ثقَّلت عليه سكرات الموت حتى يأتيني كيوم ولدته أمه . . وعزتي وجلالي ، لا أخرج عبدي من الدنيا وقد أردتُ به الشر حتى أوفيه ما عمله من الحسنات ، صحةً في جسمه ، وبركة في ماله وولده ، فإذا بقيتْ له حسنة خففتُ عليه سكرات الموت حتى يأتيني وليست له حسنة » .

إذن : فالابتلاء كما يكون انتقاماً من الكفرة والظلمة يكون كذلك تربيباً للنفع ، وتمحيصاً للإيمان ، وإرادة للثواب .

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ }

.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (31)

أي : من بعد قوم نوح عليه السلام ، وقلنا : إن القرن : الزمن الذي يجمع أُنَاساً متقاربين في مسائل الحياة ، وانتهى العلماء إلى أن القرن مائة عام ، أو إلى ملك مهما طال ، أو رسالة مهما طالتْ ، كلها تسمى قَرْناً .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعبدوا الله . . }

.

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32)

جاء بعد قوم نوح عليه السلام قوم عاد ، وقد أرسل الله إليهم سيدنا هوداً عليه السلام ، كما جاء في قوله تعالى : { وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً . . } [الأعراف : 65] وقد دعاهم بنفس دعوة نوح : { أَنِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ . . } [المؤمنون : 32] وقال لهم أيضاً : { أَفَلاَ تَتَّقُونَ } [المؤمنون : 32] .

إذن : هو منهج مُوحَّد عند جميع الرسالات ، كما قال سبحانه : { شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ . . } [الشورى : 13] .

فدين الله واحد ، نزل به جميع الرسل والأنبياء ، فإنْ قلتَ : فما بال قوله تعالى : { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً . . } [المائدة : 48] .

نقول : نعم ، لأن العقائد والأصول هي الثابتة التي لا تتغير : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أمّا المنهج والشريعة الخاصة بالفروع فهي محلُّ التغيير بين الرسل؛ لأنها أمور تتعلق بحركة الحياة ، والحق – تبارك وتعالى – يعطي لكل بيئة على لسان رسولها ما يناسبها وما يعالج أمراضها وداءاتها .

والشِّرْعة : هي القانون الذي يحكم حركة حياتك ، أمّا الدين فهو الأمر الثابت والموحّد من قبل الله – عز وجل – والذي لا يملك أحد أنْ يُغيِّر فيه حرفاً واحداً .

لذلك ، كانت آفة الأمم أنْ يجعلوا أنفسهم فِرَقاً مختلفة وأحزاباً متباينة ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم : { إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ . . } [الأنعام : 159] .

وتأمل : { فَرَّقُواْ دِينَهُمْ . . } [الأنعام : 159] ولم يقُلْ : فرّقوا شريعتهم ولا منهجهم ، ذلك لأن الدين واحد عند الله ، أمّا المناهج والشرائع فهي مجال الاختلاف على حَسْب ما في الأمة من داءات ، فهؤلاء كانوا يعبدون الأوثان ، وهؤلاء كانوا يُطفِّفون الكيل والميزان ، وهؤلاء كانوا يجحدون نِعَم الله . . الخ .

وسبق أنْ أوضحنا أن اختلاف الداءات في هذه الأمم ناتج عن العزلة التي كانت تبعدهم ، فلا يدري هذا بهذا ، وهم في زمن واحد . أمّا في رسالة الإسلام – هذه الرسالة العامة الخاتمة – فقد جاءت على موعد من التقاء الأمم وتواصل الحضارات ، فما يحدث في أقصى الشمال يعرفه مَنْ في أقصى الجنوب؛ لذلك توحدت الداءات ، فجاء رسول واحد خاتم بتشريع صالح لجميع الزمان ولجميع المكان ، وإلى قيام الساعة .

وآفة المسلمين في التعصُّب الأعمى الذي يُنزِل الأمور الاجتهادية التي ترك الله لعباده فيه حريةً واختياراً منزلةَ الأصول والعقائد التي لا اجتهادَ فيها ، فيتسرَّعون في الحكم على الناس واتّهامهم بالكفر لمجرد الاختلاف في وجهات النظر الاجتهادية .

نقول : من رحمة الله بنا أنْ جعل الأصول واحدة لا خلافَ عليها ، أما الفروع والأمور

الاجتهادية التي تتأتّى بالفهم من المجتهد فقد تركها الله لأصحاب الفهم ، { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرسول وإلى أُوْلِي الأمر مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ . . }

[النساء : 83] .

وإلا لو أراد الحق سبحانه لَمَا جعل لنا اجتهاداً في شيء ، ولجاءتْ كل مسائل الدين قهرية ، لا رَأْيَ فيها لأحد ولا اجتهاد ، أمّا الحق – سبحانه وتعالى – فقد شاءت حكمته أن يجمعنا جَمْعاً قهرياً على الأمور التي إنْ لم نجمع عليها تفسد ، أما الأمور التي تصلح على أي وجه فتركها لاجتهاد خَلْقه .

فعلينا – إذن – أنْ نحترم رأي الآخرين ، وألاَّ نتجرأ عليهم بل لنحترم ما اختاره الله لنا من حرية الفكر والاجتهاد .

وأُسْوتنا في هذه المسألة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلف هذه الأمة في غزوة الأحزاب ، فلما هَبَّتْ الريح على معسكر الكفار فاقتلعت خيامهم وشتتت شملهم وفَرُّوا من الميدان انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، لكن سرعان ما أمره ربه بالتوجه إلى بني قريظة لتأديبهم ، وأخبره – سبحانه وتعالى – أن الملائكة ما زالت على حال استعدادها ، ولم يضعوا عنهم أداة الحرب ، فجمع رسول الله الصحابة وقال لهم : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة » .

وفعلاً ، سار الصحابة نحو بني قريظة فيما بين العصر والمغرب ، فمنهم مَنْ خاف أنْ يدركه المغرب قبل أنْ يصلي العصر ، فصلى في الطريق ومنهم مَن التزم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بألاَّ يصلي إلا في بني قريظة ، حتى وإن أدركه المغرب ، حدث هذا الخلاف إذن بين صحابة رسول الله وفي وجوده ، لكنه خلاف فرعي ، لَمَّا رفعوه إلى رسول الله وافق هؤلاء ، ووافق هؤلاء ، ولم ينكر على أحد منهم ما اجتهد .

إذن : في المسائل الاجتهادية ينبغي أن نحترم رأي الآخرين؛ لذلك فالعلماء – رضي الله عنهم – وأصحاب الفكر المتزن يقولون : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأْي غيري خطأ يحتمل الصواب .

فليت المسلمين يتخلصون من هذه الآفة التي فرَّقتهم ، وأضعفتْ شوكتهم بين الأمم . ليتهم يذكرون دائماً قول الله تعالى : { إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ . . } [الأنعام : 159] .

ولما تكلم الحق – تبارك وتعالى – عن مسألة الوضوء ، قال سبحانه : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المرافق وامسحوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكعبين . . } [المائدة : 6] .

نلحظ أنه تعالى عند الوجه قال { فاغسلوا وُجُوهَكُمْ . . } [المائدة : 6] دون أن يحدد للوجه

حدوداً ، لماذا؟ لأن الوجه لا خلافَ عليه بين الناس ، لكن في الأيدي قال : { وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المرافق . . } [المائدة : 6] فحدد اليد إلى المرفق؛ لأنها محل خلاف ، فمن الناس مَنْ يقول : الأيدي إلى الكتف . ومنهم مَنْ يقول : إلى المرفق . ومنهم مَنْ يقول : هي كف اليد .

لذلك حدَّدها ربنا – عز وجل – ليُخرِجنا من دائرة الخلاف في غَسْل هذا العضو ، ولو تركها – سبحانه وتعالى – دون هذا التحديد لكانَ الأمر فيها مباحاً : يغسل كل واحد يده كما يرى ، كذلك في الرأس قال سبحانه : { وامسحوا بِرُؤُوسِكُمْ . . } [المائدة : 6] وتركها لاحتمالات الباء التي يراها البعض للإلصاق ، أو للتعدية ، أو للتبعيض .

إذن : حين ترى مخالفاً لك في مثل هذه الأمور لا تتهمه؛ لأن النص أجاز له هذا الاختلاف ، وأعطاه كما أعطاك حقَّ الاجتهاد .

ثم قال الحق سبحانه : { وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الآخرة وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحياة الدنيا . . }

.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33)

تكلمنا عن معنى { الملأ } [المؤمنون : 33] وهم عَيْن الأعيان وأصحاب السلطة والنفوذ في القوم ، والذين يضايقهم المنهج الإيماني ، ويقضي على مكانتهم ، ويقف في وجه طغيانهم وسيطرتهم واستضعافهم للخلق .

{ وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ الذين كَفَرُواْ . . } [المؤمنون : 33] تماماً كما حدث مع سابقيهم من قوم نوح { وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الآخرة وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحياة الدنيا . . } [المؤمنون : 33] مادة : ترف مثل فرح ، نقول : ترف الرجل يترف إذا تنعّم ، فإذا زِدْتَ عليها الهمزة (أترف) نقول : أترفته النعمة ، أترفه الله ، يعني : كانت النعمة سبب طغيان ، ووسَّع الله عليه في النعمة ليتسع في الطغيان .

وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى : { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ . . } [الأنعام : 44] يعني من منهج الحق { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ } [الأنعام : 44] .

ذلك ، ليكون الأَخْذ أقوى وأعنف وأبلغ في الإيلام والحسرة ، وسبق أن ذكرنا تشبيهاً أضحك الحاضرين كثيراً ، ولله تعالى – المثل الأعلى – ، قلنا : إن الله تعالى إذا أراد أنْ يُوقع معانداً لا يُوقعه من فوق الحصيرة ، إنما يوقعه من فوق كرسي عالٍ ومكانة رفيعة ، ليكون (الهُدْر) أقوى وأشدّ .

فإن أخذ الإنسان العادي الذي لا يملك ما يتحسرعليه من مال أو جاه أو منصب ، فالأمر هيّن ، أمّا حين يُرقّيه ويُعلي منزلته ويُترِفه في النعيم ، ثم يأخذه على هذه الحال فلا شكَّ أنه أخْذ عزيز مقتدر ، وهذا أشدُّ وأنكَى .

إذن : أترفناهم يعني : وسَّعنا عليهم وأمددناهم بالنعم المختلفة ليزدادوا في كفرهم وطغيانهم ، على حَدِّ قوله تعالى : { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حتى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ } [المؤمنون : 54 – 56] .

إن الله تعالى يمدُّ لهؤلاء في وسائل الغيّ والانحراف ليزدادوا منها ، ويتعمقوا في آثامها لنتعمق نحن في عذابهم والانتقام منهم .

ثم يحكي القرآن عنهم هذه المقولة التي سارت على ألسنتهم جميعاً في كل الرسالات : { مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . } [المؤمنون : 33] وكأن هذه الكلمة أصبحتْ لازمة من لوازم المكذّبين للرسل المعاندين لمنهج الله ، ثم يؤكدون على بشرية الرسول فيقولون : { يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ } [المؤمنون : 33] ألم يقُل كفار مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : { مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق . . } [الفرقان : 7] .

سبحان الله ، كأنهم يتكلمون بلسان واحد مع اختلاف الأمم وتباعد الأزمان ، لكن كما يقولون : الكفر ملة واحدة .

وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (34)

خاسرون إنْ أطعتم بشراً مثلكم ، لكنه بشر ليس مثلكم ، إنه بشر يُوحَى إليه ، فأنا لا أتبع فيه بشريته ، إنما أتبع ما ينزل عليه من الوحي .

.

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (35)

إنهم ينكرون البعث بعد الموت الذي يعدهم به نبيهم ، لكن ما الإشكال في مسألة البعث؟ أليست الإعادة أهونَ من البَدْء؟ وإذا كان الخالق – عز وجل – قد خلقكم من لا شيء فلأنْ يُعيدكم من الرفات أهون ، وإن كانت كلمة أهون لا تليق في حق الله تعالى؛ لأنه سبحانه لا يفعل أموره عن علاج ومزاولة ، إنما عن كلمة « كُنْ » لكن الحديث في هذه المسألة يأتي بما تعارفتْ عليه العقول ، وبما يُقرّب القضية إلى الأذهان .

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36)

{ هَيْهَاتَ . . } [المؤمنون : 36] اسم فعل بمعنى بَعُد ، يعني بَعُد هذا الأمر ، وهو أن نرجع بعد الموت ، وبعد أن صِرْنا عظاماً ورُفَاتاً .

والكلمة في اللغة إما اسم أو فعل أو حرف : الاسم ما دَلَّ على معنى مستقل بالفهم غير مرتبط بزمن ، فحين تقول : سماء نفهم أنها كل مّا علاك فأظلَّك . والفعل كلمة تدل أيضاً على معنى مستقل بالفهم لكنه مرتبط بزمن ، فحين نقول : أكل نفهم المقصود منها ، وهي متعلقة بالزمن الماضي ، أما الحرف فكلمة تدل على معنى غير مستقل بذاته ، فالحرف (على) يدل على معنى الاستعلاء ، لكن استعلاء أي شيء؟

فالمعنى – إذن – لا يستقل بذاته ، إنما يحتاج إلى مَا يوضحه ، كذلك (في) تدل على الظرفية ، لكن لا تُحدد بذاتها هذه الظرفية ، كذلك من للابتداء وإلى للغاية ، ولكل من الاسم والفعل والحرف علامات خاصة يُعرف بها .

وغير هذه الثلاثة قسم رابع جاء مخالفاً لهذه القاعدة؛ لذلك يسمونه الخالفة وهو اسم الفعل مثل (هيهات) أي بَعُد ، فهو اسم يدل على معنى الفعل دون أن يقبل علامات الفعل ، ومثله شتان بمعنى تفرق ، أف بمعنى أتضجّر . . الخ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم أنهم قالوا : { إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا . . } .

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37)

لقد استبعد هؤلاء أمر البعث؛ لأنهم لا يعتقدون في حياة غير حياتهم الدنيا ، فالأمر عندهم محصور فيها { إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا . . } [المؤمنون : 37] إن : حرف نفي يعني . ما هي ، كما جاء في قوله تعالى : { مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ . . } [المجادلة : 2] يعني : ما أمهاتهم إلا اللائي ولدْنَهم .

وقوله : { نَمُوتُ وَنَحْيَا . . } [المؤمنون : 37] قد يظن البعض أنهم بهذا القول يؤمنون بالبعث ، لأنهم قالوا : (نموت ونحيا) فكيف يُنكرونه؟

والمراد : نموت نحن ، ويحيا من خلف بعدنا من أولادنا ، بدليل قولهم بعدها : { وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } .

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38)

يعني : الرجل الذي أخبركم بمسألة البعث { افترى على الله كَذِباً . . } [المؤمنون : 38] وعجيب منهم هذا القول ، فهم يعرفون الله ويعترفون { افترى على الله . . } [المؤمنون : 38

] فكيف يكون إلهاً دون أنْ يُبلغكم رسالة على لسان رسوله؟ وإلاَّ ، فكيف يكون إلهاً دون أنْ يُبلغكم رسالة على لسان رسوله؟ وإلاَّ ، فكيف ستعرفون منهج الله؟ قالوا : بالعقل ، لكن العقل في هذه المسألة لا يصح .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك – ولله المثل الأعلى : هَبْ أننا نجلس في حجرة مغلقة ودَقَّ جرس الباب ، لا شكَّ أننا سنتفق جميعاً على أن طارقاً بالباب ، وهذا يسمى « تعقل » ، لكنا سنختلف في التصوُّر : أهو رجل؟ أم امرأة؟ أم طفل ، أهو بشير أم نذير؟ . . . . الخ .

إذن : نتفق حين نقف عند التعقُّل ، لكن كيف نعرف مَنْ بالباب؟ نجعله هو يخبر عن نفسه حين نقول : مَنِ الطارق؟ يقول : أنا فلان ، وجئتُ لكذا وكذا . فمَنِ الذي يبلغ عن التعقل؟ صاحبه .

وكذلك عقلك يؤمن بأن الكون له خالق واحد تدلُّ عليه آيات الكون ، فأنتَ لو نظرتَ إلى لمبة الكهرباء هذه التي تنير غرفة واحدة ، وتأملَ لوجدتَ وراءها مصانع وعدداً وآلات وعمالاً ومهندسين ومخترعين ، ومع ذلك لها قدرة محدودة ، ولهّا عمر افتراضي وربما كسرت لأيِّ سبب وطفئتْ .

أفلا تنظر كذلك إلى الشمس وتتأمل ما فيها من آيات وعجائب ، وكيف أنها تنير نصف الكرة الأرضية في وقت واحد دون أنْ تتعطلَ ودون أنْ تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، ومع ذلك لم يدَّعها أحد لنفسه ، أفلاَ يدل ذلك على أن وراء هذا الخَلْق العظيم خالقاً أعظم؟

إذا كنا نُؤرِّخ لمكتشف الكهرباء ومخترع المصباح الكهربائي ، ونذكر ماذا صنع؟ وكيف توصّل إلى ما توصّل إليه ، أليس يجدر بنا أنْ نبحث في خالق هذا الكون العجيب؟

إنك لو حاولتَ أنْ تنظر إلى قرص الشمس أثناء النهار ، فإنَّ نظرك يكلُّ ولا تستطيع ، وإذا اشتدت حرارتها لا يطيقها أحد ، مع أن بينك وبين الشمس ثماني دقائق ضوئية ، كل ثانية فيها ثلاثمائة ألف كيلومتر ، فأيّ طاقة هذه التي تنبعث من الشمس؟

ومن عجائبها أيضاً أنك تشعر بحرارتها على الأرض المنبسطة فإذا ما ارتفعت فوق جبل مثلاً أو منطقة عالية تقلّ درجة الحرارة مع أنك تقترب من الشمس ، على خلاف ما لو أوقدتَ ناراً مثلاً فتجد أن حرارتها تنخفض كلما ابتعدت عنها ، أما الشمس فكلما اقتربت منها قلَّتْ درجة الحرارة ، فمَنْ يقدر على هذه الظاهرة؟

فإذا جاء مَنْ يخبرني أنه خالق هذه الشمس أقول له : إذن هي لك ، إلى أن يأتي منازع يدَّعيها لنفسه ، ولم يأت منازع يدَّعيها إلى الآن .

وقولهم : { افترى . . } [المؤمنون : 38] مبالغة منهم في حقِّ رسولهم؛ لأن الافتراء : تعمُّد الكذب ، والكذب كما قلنا : أن يأتي الكلام مخالفاً للواقع ، وقد يأتي الكلام مخالفاً للواقع لكن حسب علم صاحبه ، فهو في ذاته صادق .

قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (39)

سبحان الله ، كأن تاريخ الرسالات يعيد نفسه مع المكذِّبين ، وكأنه (أكلشيه) ثابت على ألسنة الرسل : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فيتهمونه ويُكذِّبونه ويقولون : ما أنت إلا بشر مثلنا ، فتأتي النهاية واحدة : ربِّ انصرني بما كذَّبون ، يعني : أبدلني بتكذيبهم نَصْراً .

هذه قَوْلة هود – عليه السلام – حين كذَّبه قومه ، وقوْلة نوح ، وقوْلة كل نبي كذَّبه القوم؛ لأن الرسول حين يُكذَّب من الرسل إليهم لا يفزع إلا إلى مَنْ أرسله؛ لأن مَنْ أرسله وعده بالنصرة والتأييد : { وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 173] .

وقال : { وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ . . } [الحج : 40] وقال سبحانه : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون } [الصافات : 171 – 172] .

فالمعنى : انصرني لأنك أرسلتني ، وقد كذَّبني القوم بعد أن استنفدتُ في دعوتهم كل أسبابي ، ولم يَعُدْ لي بهم طاقة ، ولم يَعُد لي إلا معونتك . والإنسان حين يستنفد كل الأسباب التي منحه الله إياها دون أن يصل إلى غايته فقد أصبح مضطراً داخلاً في قوله سبحانه : { أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ . . } [النمل : 62] .

إذن : لا تلجأ إلى الله إلا بعد أنْ تؤدي ما عليك أولاً ، وتفرغ كل ما طاقتك في سبيل غايتك ، لكن لا تقعد عن الأسباب وتقول : يا رب فالأرض أمامك والفأس في يدك ومعك عافية وقدرة ، فاعمل واستنفد أسبابك أولاً حتى تكون في جانب المضطر الذي يُجيب الله دعاءه .

لذلك نسمع كثيراً مَنْ يقول : دعوتُ الله ولم يستجب لي ، ونقول له : أنت لم تَدْعُ بدعاء المضطر ، أنت تدعو بدعاء مَنْ في يده الأسباب ولكنه تكاسل عنها؛ لذلك لا يُستجاب لك .

وهذه نراها حتى مع البشر ، ولله تعالى المثل الأعلى : هَبْ أنك صاحب مال وتجارة وجاءتك بضاعة من الجمرك مثلاً ، وجلست تراقب العمال وهم يُدخِلونها المخازن ، فليس من مهامك الحمل والتخزين فهذه مهمة العمال ، لكن هَبْ أنك وجدت عاملاً ثقُلَ عليه حِمْله وكاد الصندوق أن يوقعه على الأرض ، ماذا يكون موقفك؟ لا شكَّ أنك ستفزع إليه وتأخذ بيده وتساعده؛ لأنه فعل كل ما في وُسْعه ، واستفرغ كل أسبابه وقواه ، فلم تضِنّ أنت عليه بالعون .

كذلك ربك – عز وجل – يريد منك أن تؤدي ما عليك ولا تدعه لشيء قد جعل لك فيه أسباباً؛ لأن الأسباب يد الله الممدودة لخَلْقه ، فلا ترد يد الله بالأسباب لتطلب الذات بلا أسباب .

لذلك جاء قول الرسل الذين كُذبوا : { قَالَ رَبِّ انصرني . . } [المؤمنون : 39] ليس وأنا قاعد متخاذل متهاون ، ولكن { بِمَا كَذَّبُونِ } [المؤمنون : 39] يعني : فعلت كل مَا في وُسْعي

، ولم يَعُدْ لي بهم طاقة .
فتأتي الإجابة على وجه السرعة : { قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ } .

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (40)

{ عَمَّا قَلِيلٍ . . } [المؤمنون : 40] يعني : بعد قليل ، ف (عن) هنا بمعنى بعد ، كما جاء في قوله تعالى : { لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ } [الانشقاق : 19] يعني : بعد طبق .
أما { مَّا . . } [المؤمنون : 40] هنا فقد دلَّتْ على الظرف الزمني؛ لأن المراد بعد قليل من الزمن .
{ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ } [المؤمنون : 40] حين يقع بهم ما كانوا به يُكذِّبون ، ويحلّ عليهم العذاب يندمون ، لأنهم لن يستطيعوا تدارك ما فاتهم ، فليس أمامهم إذن إلا الندم ، وهذه المسألة دلَّتْ على أن الفطرة الإنسانية حين لا تختلط عليها الأهواء تنتهي في ذاتها إلى الحق ، وإنْ أخرجها الغضب إلى الباطل ، فإنها تعود إلى توازنها وإلى الجادة حين تهدأ ثورة الغضب .
والحق – تبارك وتعالى – يعطينا أدلةً وإشارات حول هذه القضية في قصة ولدي آدم عليه السلام فيقول : { واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابني ءَادَمَ بالحق إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخر قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ المتقين } [المائدة : 27] .
إلى أنْ قال سبحانه : { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ . . } [المائدة : 30] فجاء القتل أثراً من آثار الغضب ، والمفروض أنه بعد أن قتله شفى نفسه ، وينبغي له أن يُسَرَّ لأنه حقق ما يريد ، لكن { فَأَصْبَحَ مِنَ النادمين } [المائدة : 31] .
أي : بعد أن هدأتْ ثورة الغضب بداخله ندم على ما فعل ، لماذا؟ لأن هذه طبيعة النفس البشرية التي لا يُطغيها ولا يُخرجها عن توازنها إلا الهوى ، فإنْ خرج الهوى عادت إلى الاستقامة وإلى الحق ، وكأن الله تعالى خلق في الإنسان مقاييس يجب ألاَّ تُفسدها الأهواء ولا يُخرِجها الغضب عن حَدِّ الاعتدال ، لذلك يقولون : آفة الرأي الهوى .
لقد استيقظ قابيل ، لكن بعد أنْ رأى عاقبة السوء التي وصل إليها بتسرُّعه ، لكن الذكي يستيقظ قبل رَدِّ الفعل .
لكن ، لماذا اختار لهم وقت الصباح بالذات : { لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ } [المؤمنون : 40] المتتبع لما حاق بالأمم المكذِّبة من العذاب والانتقام يجد أنه غالباً ما يكون في الصباح ، كما قال تعالى : { أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ المنذرين } [الصافات : 176 – 177] .
وقال سبحانه : { وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ } [القمر : 38] .
وقال سبحانه : { فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ } [القلم : 21] .

ذلك ، لأن الصباح يعقب فترة النوم والخمول الحركي ، فيقومون من نومهم فيفاجئهم العذاب ، ويأخذهم على حين غفلة وعدم استعداد للمواجهة ، على خلاف إنْ جاءهم العذاب أثناء النهار وهم مستعدون .

وندمهم على أنهم كذَّبوا أمراً ما كان ينبغي أن يُكذِّب وقد جَرَّ عليهم الوَيْلات ، والندم على خير فات من طبيعة النفس البشرية التي عادةً ما تغلبها الشهوة ويُغريها الحمق بردِّ الحق ، ويمنعها الكِبْر من الانصياع للرسول خاصة وهو بشر مثلهم ، ويريد في ظنهم أنْ يستعلي عليهم ، لكن حين يواجهون عاقبة هذا التكذيب ونتيجة هذا الحمق يندمون ، ولاتَ ساعة مَنْدم .

إذن : فشهوة النفس تجعل الإنسان يقف موقفاً ، إذا ما جُوزي عليه بالشدة يندم أنه لم يُنفذ ولم يطع ، يندم على غطرسته في موقف كان ينبَغي عليه أنْ يتنازل عن كبريائه؛ لذلك يقولون : من الشجاعة أنْ تجبن ساعة .

ويحسن ذلك إذا كنت أمام عدو لا تقدر على مجابهته ، ونذكر للرئيس الراحل السادات مثل هذا الموقف حين قال : لا أستطيع أن أحارب أمريكا ، فالبعض فهم هذا القول على أنه ضَعْف وجُبْن ، وهو ليس كذلك ، إنما هو شجاعة من الرجل ، شجاعة من نوع راقٍ؛ لأن من الشجاعة أيضاً أن تشجع على نفسك ، وهذه شجاعة أعلى من الشجاعة على عدوك ، وتصور لو دخل السادات مثل هذه الحرب فهُزِم كيف سيكون ندمه على شجاعة متهورة لا تحسب العواقب .

وقد رأينا عاقبة الجرأة على دخول حرب غير متكافئة .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة بالحق فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً . . } .

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41)

ما دام الحق – تبارك وتعالى – توعّدهم وحدَّد لهم موعداً ، فلا بُدَّ أن يقع بهم هذا الوعيد في الوقت ذاته ، وإلاَّ لو مَرَّ دون أن يصيبهم ما يندمون لأجله لانهدم المبدأ من أساسه ، ما دام أن الله تعالى قالها وسجَّلها على نفسه سبحانه في قرآن يحفظه هو .

{ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ } [المؤمنون : 40] فلا بُدَّ أن ينزل بهم العذاب في الصباح .

لذلك { فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة بالحق . . } [المؤمنون : 41] لا بالظلم والعدوان ، وفي موضع آخر قال سبحانه عنهم : { وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } [الحاقة : 6] والمعنيان يلتقيان ، لأن الريح الصرصر لها صوت مزمجر كأنه الصيحة والصراخ .

{ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً . . } [المؤمنون : 41] الغثاء : ما يحمله السيل من قش وأوراق وبقايا النبات ، فتكون طبقة طافية على وجه الماء تذهب بها الريح في إحدى الجوانب ، والغثاء هو الزَّبَد الذي قال الحق سبحانه وتعالى عنه : { فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس

فَيَمْكُثُ فِي الأرض . . } [الرعد : 17] .

وفي الحديث الشريف قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « يوشك أن تتداعَى عليكم الأمم كما تتداعَى الأكلة إلى قصعتها – يعني : يدعو بعضهم بعضاً لمحاربتكم كأنكم غنيمة يريدون اقتسامها – فقالوا : أمِنْ قِلَّة نحن يا رسول الله؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » يعني : شيئاً هيّناً لا قيمةَ له يذهب سريعاً .

وقوله تعالى : { فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظالمين } [المؤمنون : 41] أي : بُعداً لهم عن رحمتنا ونعيمنا الذي كُنَّا نُمنّيهم به ونَعِدهم به لو آمنوا ، وليس البُعد عن العذاب؛ لأن البعد مسافة زمنية أو مكانية ، نقول : هذا بعيد ، أي : زمنه أو مكانه ، المراد هنا البُعْد عن النعيم الذي كان ينتظرهم إنْ آمنوا .

والظلم : كما قلنا أخذْ حَقِّ الغير ، والشرك هو الظلم الأعظم؛ لأنه ظلم في مسألة القمة ، والبعض من السطحيين يظن أن الشرك ظلم عظيم؛ لأنك ظلمتَ الله سبحانه وتعالى ، لأنك أنكرتَ وجوده وهو موجود ، وأشركتَ معه غيره وهو واحد لا شريك له ، نعم أنت ظلمتَ ، لكن ما ظلمتَ الله؛ لأنه سبحانه لا يظلمه أحد ، وإنْ كان الظلم – كما نقول – أَخْذ حَقِّ الغير ، فحقُّ الله محفوظ وثابت له سبحانه قبل أن يُوجَد مَنْ يعترف له بهذا الحق ، حقُّ الله ثابت مهما علاَ الباطل وتبجَّح أهل الضلال .

لذلك يقول عز وجل : { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كَفَرُواْ السفلى . . } [التوبة : 40] وفي المقابل : { وَكَلِمَةُ الله هِيَ العليا . . } [التوبة : 40] ولم يقُل قياساً على الأولى : وكلمةَ الله العليا؛ لن معنى ذلك أن كلمة الله مرفوعةً على صورة الجملة الاسمية الدالّة على الثبوت { وَكَلِمَةُ الله هِيَ العليا . . } [التوبة : 40] أي : دائماً ومهما عَلَتِ كلمة الكافرين . لماذا؟

قالوا : لأن عُلُو كلمة الكافرين في ذَاته عُلُوٌّ لكلمة الله ، فإذا علا الكفر واستشرى شرُّه وفساده يعض الناس ويُوقِظ غفلتهم ويُنبههم إلى خِسَّة الكفر ودناءته وما جرّه عليهم من ظلم وفساد فينكروه ويعودوا إلى جادة الطريق ، وإلى الحق الثابت لله عز وجل .

إذن : فكلمة الله هي العليا مهما كانت الجولة لكلمة الذين كفروا ، وكما يقولون : والضد يُظهر حُسْنه الضدّ . والله عز وجل لا يُسْلِم الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْره الناس عليه ، فإنْ لم يغاروا عليه غار هو عليه .

وما داموا ما ظلموا الله ، ولا يستطيعون ذلك ، فما ظلموا إلا أنفسهم ، وإنْ عُقل ظلمك لغيرك وأخذك لحقه فلا يُعقَل ظلمك لنفسك؛ لأنه أبشع أنواع الظلم وأبلغها .

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (42)

قبل عدة آيات قال الحق تبارك وتعالى : { ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ } [المؤمنون : 31] فجاءتْ قرناً بصيغة المفرد؛ لأن الحديث مقصور على عاد قوم هود ، أما هنا فقال تعالى : { ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً . . } [المؤمنون : 42] لأن الكلام سيأتي عن أمم ورسالات مختلفة ومتعددة ، فجاءت (قروناً) بصيغة الجمع ، متتابعة أو متعاصرة ، كما تعاصر إبراهيم ولوط ، وكما تعاصر موسى وشعيب عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } .

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (43)

تأملوا هذه الآية جيداً وارْعَوْها انتباهكم ، فلكل أمة أجلٌ تنتهي عنده تماماً ، مثل أجَل الأفراد الذي لا يتقدّم ولا يتأخّر ، فقرْن بعد قَرْن ، وأمة بعد أمة ، تمرُّ بأطوار شتى كأطوار حياة الإنسان ، ثم تنتهي إلى زوال ويعقبها غيرها .

فلكل أمة رسول يحمل إليها دعوة الله ومنهجه ويجاهد في سبيل نشرها إلى أنْ ينصره الله وتنتشر دعوته ويتمسَّك الناس بها ، ثم تصيبهم غفلة وفتور عن منهج الله ، فينصرفون عنه ويختلفون ويتفرقون ، فيكون ذلك إيذاناً بزوالها ثم يخلفها غيرها؟

كذلك في مسألة الحضارات التي تندثر ليحلَّ محلَّها حضارات أخرى أقوى ، نسمع عن حضارة قديمة في مصر وفي الصين وفي اليمن ، نسمع عن الحضارة الرومانية والفينيقية . . الخ حضارات تتوالى وتأخذ حظها من الرُّقيّ والرفاهية ، وتُورِث أصحابها رخاوة وطراوة ، وتبدلهم بالجَلَد والقوة لِيناً وضَعْفاً ، فيغفلوا عن أسباب رُقيّهم وتقدُّمهم ، فتنهدم حضارتهم ويحلُّ محلَّها أقوى منها وأصلب .

وهذا مثال ونموذج في حضارة بلغت أوج عظمتها : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد } [الفجر : 6 – 10] .

وإلى الآن ، ونحن نرى آثار الحضارة الفرعونية ، وكيف أنها تجذب انتباه أصحاب الحضارات الحديثة وتنال إعجابهم ، فيأتون إليها من كل أنحاء العالم ، مع أن حضارة عاد كانت أعظم منها؛ لأن الله تعالى قال في حقها : { التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد } [الفجر : 8] .

ومع ذلك لا نرى لهم أثراً يدل على عِظَم حضارتهم ، ولم يكُنْ لهذه الحضارة مناعة لتحمي نفسها ، أو تحتفظ لها بشيء ، فانهارت وبادتْ ولم يَبْقَ منها حتى أثر .

كذلك أتباع الرسل يمرُّون بمثل هذه الدورة ، فبعد قوة الإيمان تصيبهم الغفلة ويتسرب إليهم الضعف وسوء الحال ، إلى أن يرسل الحق سبحانه رسولاً جديداً .

{ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } [المؤمنون : 43] .

المعنى في الجملة الأولى واضح ، فأيُّ أمة لا يمكن أنْ تسبق أجلها الذي حدَّده الله لها ، ولا يمكنْ أن تنتهي أو تقوَّص قبل أنْ يحلَّ هذا الأجل .

لكن ما المراد بقوله سبحانه : { وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } [المؤمنون : 43] كيف يتأتَّى ذلك؟ فهمنا : لا تسبق أجلها يعني أجلها أن تقوض بعد عشرين سنة ، فلا يمكن أن تُقوَّض قبل خمس عشرة ، أما كونها تستأخر بعد أن بلغتْ العشرين إلى عشرة ، فكيف يتم ذلك؟

نقول : لا تستأخر يعني : من حيث الحكم هي لا تسبق الأجل وهي محكوم عليها بأنها لا تستأخر؛ لأن الاستئخار بعد بلوغ الأجل مستحيل ، كما لو قلنا : شخص بلغ سِنَّ العشرين لا يقدر أن يموت في العاشرة . فالمعنى : الأصل فيه أنه لا يستأخر .

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً . . } .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (44)

{ تَتْرَا . . } [المؤمنون : 44] يعني : متوالين يتبع بعضهم بعضاً؛ لذلك ظنَّها البعض فعلاً وهي ليست بفعل ، بدليل أنها جاءت في قراءة أخرى (تتراً) بالتنوين والفعل لا يُنوَّن ، إذن : هي اسم ، والألف فيها للتأنيث مثل حُبْلى .

أضِفْ إلى ذلك أن التاء الأولى تأتي في اللغة بدلاً من الواو ، كما جاء في الحديث الشريف من نصيحة النبي صلى الله عليه وسلم : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجدْه تجاهك – أو وجاهك » يعني : مواجهك .

فإذا أُبدلَتْ التاء الأولى في (تتراً) واواً تقول (وتراً) يعني : متتابعين فَرْداً ، والوتر هو الفَرْد .

ثم يقول سبحانه : { كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ . . } [المؤمنون : 44] فهذه طبيعة ولازمة من لوازم المرسل إليهم ، وما من رسول أُرسل إلى قوم إلا كذّبوه ، ثم يلجأ إلى ربه : { قَالَ رَبِّ انصرني بِمَا كَذَّبُونِ } [المؤمنون : 39] .

ولو لم يُكذَّب الرسول ما كان هناك ضرورة لإرساله إليهم ، وما جاء الرسول إلا بعد أن استشرى الباطل ، وعَمَّ الطغيان ، فطبيعي أنْ يُكذِّب من هؤلاء المنتفعين بالشر المستفيدين من الباطل والذين يدافعون عنه بكل قواهم ، وكأن تكذيبهم للرسل دليل على صواب مجيء الرسل ، وإلا لما كان هناك ضرورة لرسالات جديدة .

وقوله تعالى : { فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً . . } [المؤمنون : 44] يعني : يمضي واحد ويأتي غيره من الرسل ، أو نهلك المكذِّبين ثم يأتي بعدهم آخرون ، فيكذبون فنهلكهم أيضاً .

{ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ . . } [المؤمنون : 44] أحاديث : إما جَمْعاً لحديث كما نقول : أحاديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم أو جمع : أحدوثة . وهي المقولة التي يتشدَّق بها الجميع ، وتلوكُها كل الألسنة ، ومن ذلك قول الإنسان إذا كثُر كلام الناس حوله : (جعلوني حدوتة) يعني على سبيل التوبيخ والتقريع لهم .

فقوله : { وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ . . } [المؤمنون : 44] كأنه لم يبْقَ منهم أثر إلا أنْ نتكلم عنهم ، ونذكرهم كتاريخ يُحْكَى ، وفي موضع آخر قال تعالى : { فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ . . } [سبأ : 19] .

ثم يقول تعالى عنهم كما قال عن سابقيهم : { فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ } [المؤمنون : 44] يعني : بُعْداً لهم عن رحمة الله ، وبُعْداً لهم عن نعيم الله الذي كان ينتظرهم ، ولو أنهم آمنوا لنالوه .

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ أَرْسَلْنَا موسى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا . . } .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (45)

تكررت قصة موسى – عليه السلام – كثيراً ومعه أخوه هارون ، كما قال : { اشدد بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي } [طه : 31 – 32] والبعض يظن أن موسى جاء برسالة واحدة ، لكنه جاء برسالتين : رسالة خاصة إلى فرعون ملخّصها : { فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ . . } [طه : 47] .

وجاء له بمعجزات تثبت صِدْق رسالته من الله ، ولم يكن جدال موسى لفرعون في مسألة الإيمان جزءاً من هذه الرسالة ، إنما جاء هكذا عرضاً في المناقشة التي دارتْ بينهما .

والرسالة الأخرى هي رسالته إلى بني إسرائيل متمثلة في التوراة .

وقوله : { بِآيَاتِنَا . . } [المؤمنون : 45] قلنا : إن الآيات جمع آية ، وهي الشيء العجيب الملفت للنظر الفائق على نظرائه وأقرانه ، والذي يكرم ويفتخر به . والآيات إما كونية دالّة على قدرة الله في الخَلْق كالشمس والقمر . . إلخ كما قال سبحانه : { وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار . . } [فصلت : 37] .

ومهمة هذه الآيات الكونية أنْ تلفت نظر المخلوق إلى بديع صنع الخالق وضرورة الإيمان به ، فمنها نعلم أن وراء الكون البديع خالقاً وقوة تمده وتديره ، فَمنْ يمدُّ هذه الشمس بهذه القوة الهائلة؟ إن التيار الكهربائي إذا أنقطع تُطْفأ هذه اللمبة ، فمَنْ خلق الشمس من عدم ، وأمدّها بالطاقة من عدم؟

إذن : وراء هذا الكون قوة ما هي؟ وماذا تطلب منا؟ وهذه مهمة الرسول أنْ يُبلغنا ، ويُجيب لنا عن هذه الأسئلة .

وتُطلق الآية أيضاً على المعجزة التي تثبت صِدْق الرسول في البلاغ عن الله .

وتُطلق الآية على آيات القرآن الحاملة للأحكام والحاوية لمنهج الله إلى خَلْقه .

ثم يقول تعالى : { وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } [المؤمنون : 45] فعطف { وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } [المؤمنون : 45] على { بِآيَاتِنَا } [المؤمنون : 45] وهذا من عطف الصفة على الموصوف لمزيد اختصاص؛ لأن الآيات هي السلطان ، فالسلطان : الحجة . والحجة على الموجود الأعلى آيات الكون ، والحجة على صِدْق الرسول المعجزات ، والحجة على الأحكام الآيات الحاملة لها .

وسَمَّى معجزة موسى عليه السلام (العصا) سلطاناً مبيناً أي : محيطاً؛ لأنها معجزة متكررة رأينا لها عدة حالات : فهذه العصا الجافة مرة تنقلب إلى حيّة تلقَفُ الحيّات ، ومرة يضرب بها البحر فينفلق ، ومرة يضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء ، وفوق ذلك قال عنها : { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } [طه : 18] .

ومن معاني السلطان : القَهْر على عمل شيء أو الإقناع بالحجة لعمل هذا الشيء ، لذلك كانت حجة إبليس الوحيدة يوم القيامة أن يقول لأتباعه : { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي . . } [إبراهيم : 22] يعني : كنتم رَهْن الإشارة ، إنما أنا لا سلطان لي عليكم ، لا سلطانَ قهر ، ولا سلطان حجة .

لذلك قال في النهاية : { مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . . } [إبراهيم : 22] والإنسان يصرخ إذا فزَّعه أمر لا حيلة له به ، فيصرخ استنفاراً لمعين يُعينه ، فمَنْ أسرع إليه وأعانه يقال : أصرخه . يعني : أزال سبب صراخه .

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46)

{ فِرْعَوْنَ . . } [المؤمنون : 46] لقب لكل مَنْ كان يحكم مصر ، مثل كِسْرى في الفرس ، وقيصر في الروم ، وتكلَّمنا عن معنى (الملأ) وهي من الامتلاء ، والمراد القوم الذين يملؤون العيون مهابةً ومنزلةً ، وهم أشراف القوم وصدور المجالس ، ومنه قولهم : فلان قَيْد النواظر يعني : مَنْ ينظر إليه لا ينصرف عنه إلى غيره .

وقوله تعالى : { فاستكبروا وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ } [المؤمنون : 46] والاستكبار غير التعالي ، فالمستكبر يعلم الحكم ويعترف به ، لكن يأبى أنْ يطيعه ، ويأنف أن يصنع ما أمر به ، أما العالي فهو الذي يظن أنه لم يدخل في الأمر من البداية .

ومن هنا جاء قوله تعالى لإبليس لما أبى السجود لآدم : { أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين } [ص : 75]

والعالون هم الملائكة المهيّمون في الله ، والذين لا يدرون شيئاً عن آدم وذريته .

فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (47)

اعترضوا أيضاً هنا على بشرية موسى وهارون كما حدث من الأمم السابقة ، إنهم يريدون الرسول مَلَكَاً ، كما جاء في موضع آخر : { وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 94] .

ومن الغباء أن يطلبوا ملَكاً رسولاً ، فلو جاءهم الرسول ملكاً ، فكيف سيكون أسْوة للبشر؟ وكيف سيرؤْنَه ويتلقّوْن عنه؟ إذن : لا بُدَّ أنْ يأتيهم في صورة بشر؛ لذلك يقول تعالى : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ } [الأنعام : 9]

وستظل الشبهة قائمة ، فما الذي يجعلك تُصدِّق أنه مَلَك؟

وقوله تعالى : { وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ } [المؤمنون : 47] يعني : كيف نؤمن لموسى وهارون وقومهما – أي : بني إسرائيل – خدم لنا ، يأتمرون بأمرنا ، بل ونُذلّهم ونُذبّح أولادهم ، ونستحيي نساءهم ، ونسومهم سوء العذاب؟

وسمّى ذلك عبادة ، لأن مَنْ يخضع لإنسان ، ويطيع أمره كأنه عبده .

فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48)

أي : بالغرق ، وهذه قصة مشهورة معروفة ، وجعلها الله مُثْلة وعِبرةً .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49)

{ الكتاب . . } [المؤمنون : 49] أي : التوراة ، وفيه منهج الهداية { لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } [المؤمنون : 49] أي : يأخذون الطريق الموصّل للغاية الشريفة المفيدة من أقصر طريق .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً . . } .

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50)

بعد أن أعطانا هذه اللقطة الموجزة من قصة موسى وهارون انتقل إلى المسيح ابن مريم ، والقرآن في حديثه عن عيسى عليه السلام مرة يقول : ابن مريم ، ومرة يقول : عيسى بن مريم . وتسمية عيسى عليه السلام بأمه هي التي جعلتْ سيدتنا وسيدة نساء العالمين مريم ساعة تُبشَّر بغلام تستنكر ذلك ، وتقول : كيف ولم يمسسني بشر؟ ولم يخطر ببالها أنها يمكن أنْ تتزوّج وتُنجب ، لماذا؟ لأن الله سماه ابن مريم ، وما دام سماه بأمه ، إذن : فلن يكون له أب .

وليس أصعب على الفتاة من أن تجد نفسها حاملاً ولم يمسسها رجل؛ لأن عِرْض الفتاة أغلى وأعزّ ما تملك ، لذلك مهّد الحق – تبارك وتعالى – لهذه المسألة ، وأعدَّ مريم لاستقبالها ، وأعطاها المناعة اللازمة لمواجهة هذا الأمر العجيب ، كما نفعل الآن في التطعيم ضد الأمراض ،

وإعطاء المناعة التي تمنع المرض .

فلما دخل زكريا – عليه السلام – على مريم فوجد عندها رزقاً لم يأْتِ به ، وهو كفيلها والمسئول عنها ، سألها : { أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله . . } [آل عمران : 37] وكان هذا الردّ من مريم عن فَهْم تام لقضية الرزق ، ولم يكُنْ كلام دراويش ، بدليل أنها قالت بعدها : { إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

وفي هذا الموقف درس لكل أب ولكل وليّ أمر ورب أسرة أن يسأل أهل بيته عن كل شيء يراه في بيته ولم يأْتِ هو به ، حتى لا يدعَ لأولاده فرصة أنْ تمتد أيديهم إلى ما ليس لهم .

لقد انتفع زكريا – عليه السلام – بهذا القول وانتبه إلى هذه الحقيقة ، نعم زكريا يعلم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، لكن ذلك العلم كان معلومة في حاشية الشعور ، فلما سمعها من مريم خرجتْ إلى بُؤرة شعوره ، وعند ذلك دعا الله أن يرزقه الولد وقد بلغ من الكِبَر عِتياً ، وامرأته عاقر .

وكذلك انتفعت بها مريم حين أحسَّتْ بالحمل دون أن يمسسْها بشر فاطمأنتْ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب .

وقوله تعالى : { وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ . . } [المؤمنون : 50] فأخبر سبحانه عن المثنى بالمفرد { آيَةً . . } [المؤمنون : 50] لأنهما مشتركان فيها : مريم آية لأنها أنجبت من غير زوج ، وعيسى آية لأنه وُلِد من غير أب ، فالآية إذن لا تكون في أحدهما دون الآخر ، وهما فيها سواء .

لذلك يراعي النص القرآني هذه المساواة فيُقَدِّم عيسى في آية : { وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً . . } [المؤمنون : 50] ويقدم مريم في آية أخرى : { وَجَعَلْنَاهَا وابنهآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : 91] هذه العدالة في النص لأنهما سواء في الخيرية لا يتميز أحدهما على الآخر .

والآية هي الأمر العجيب الذي يُثبت لنا طلاقة قدرة الخالق في الخَلْق ، وحتى لا يظن البعض أن مسألة الخَلْق مسألة (ميكانيكية) من أب وأم ، لذلك كان وجه العجب في خَلْق عيسى أن يخرج عن هذه القاعدة ليجعله الله دليلاً على قدرته تعالى ، فإنْ أراد أنْ يخلق خلق من العدم ، أو من أب فقط ، أو من أم فقط ، وحتى في اكتمال العنصرين يوجد الأب والأم ، لكن لا يوجد الإنجاب ، إذن : المسألة إرادة لله عز وجل ، وطلاقة لقدرة إلهية لا حدودَ لها .

يقول سبحانه : { لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً . . } [الشورى : 50] .

والآن نلاحظ أن البعض يحاول منع الإنجاب بشتى الوسائل ، لكن إنْ قُدِّر له مولود جاء رغم أنف الجميع ، ورغم إحكام وسائل منع الحمل التي تفننوا فيها .

ثم يقول سبحانه : { وَآوَيْنَاهُمَآ إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ . . } [المؤمنون : 50] من الطبيعي بعد أن حملتْ مريم بهذه الطريقة أنْ تُضطهد من قومها وتُطارد ، بل وتستحي هي من الناس وتتحاشى أن يراها أحد ، ألا ترى قوله تعالى عن ابنة شعيب : { فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحيآء . . } [القصص : 25] على استحياء ، لأنها ذهبت لاستدعاء فتىً غريب عنها ، فما بالك بمريم حين يراها القوم حاملاً وليس لها زوج؟ إنها مسألة أصعب ما تكون على المرأة .

لذلك لما سئل الإمام محمد عبده وهو في باريس : بأيّ وجه قابلتْ عائشة قومها بعد حادثة الإفك؟ فألهمه الله الجواب وهداه إلى الصواب ، فقال : بالوجه الذي قابلتْ به مريمُ قومَها وقد جاءتْ تحمل ولدها؛ ذلك لأنهم أرادوا أنْ يأخذوها سُبة ومطعناً في جبين الإسلام .

ولما كانت مريم بهذه الصفة تولاها الله ودافع عنها ، فهذا يوسف النجار وكان خطيب مريم حين يرى مسألة حَمْلها ، وهو أَغْير الناس عليها بدل أنْ يتشكك فيها ويتهمها يتحوّل قلبه عليها بالعطف ، كما قال تعالى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ . . } [الأنفال : 24] .

فإذا به يخدمها ويحنُو عليها؛ لأن الله أنزل المسألة على قلبه منزل الرضا ، وكل ما قاله في مجادلة مريم وفي الاستفسار عَمَّا حدث بطريقة مهذبة : يا مريمُ أرأيتِ شجرة بدون بذرة؟ فضحكتْ مريم وقد فهمت ما يريد وقالت : نعم الشجرة التي أنبتت أول بذرة إنه كلام أهل الإيمان والفهم عن الله .

لذلك آواها الله وولدها { وَآوَيْنَاهُمَآ إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } [المؤمنون : 50] وساعةَ تسمع كلمة الإيواء تفهم أن شخصاً اضطر إلى مكان يلجأ إليه ويأوي إليه ، وكذلك كانت مريمُ مضطرة تحتاج إلى مكان يحتويها وهي مضطهدة من قومها . ولا بُدَّ في مكان الإيواء هذا أنْ تتوفر فيه مُقوّمات الحياة ، خاصة لمثل مريم التي تستعد لاستقبال وليدها ، ومقومات الحياة : هواء وماء وطعام .

فانظر كيف أعدَّ الحق – سبحانه وتعالى – لمريم مكان الإيواء : { وَآوَيْنَاهُمَآ إلى رَبْوَةٍ .

. } [المؤمنون : 50] وهي المكان العالي عن الأرض المنخفض عن الجبل ، فهو معتدل الجو؛ لأنه بين الحرارة في الأرض المستوية والبرودة في أعلى الجبل .

{ ذَاتِ قَرَارٍ . . } [المؤمنون : 50] يعني : توفرتْ لها أسباب الاستقرار من ماء وطعام ، فالماء يأتيها من أعلى الجبال ويمرُّ عليها ماءً معيناً ، يعني : تراه بعينك ، والطعام يأتيها من ثمار النخلة التي نزلت بجوارها .

ومعلوم أن الربوة هي أنسب الأماكن حيث يمر عليها الماء من أعلى ، ولا يتبقى فيها مياه جوفية تضرُّ بمزروعاتها؛ لأنها تتصرف في الأرض المنخفضة عنها .

لذلك ضرب لنا الحق – تبارك وتعالى – المثل للأرض الخصبة التي تؤتي المحصول الوافر ، فقال :

{ وَمَثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابتغآء مَرْضَاتِ الله وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ . . } [البقرة : 265] .

إذن : اختار الله تعالى لمريم القرار الذي تتوفر فيه مقومات الحياة على أعلى مستوى بحيث لا تحتاج أن تنتقل منه إلى غيره .

وبعد ذلك يتكلم الحق – سبحانه وتعالى – عن قضية عامة بعد أن تكلَّم عن القرار ومُقوِّمات الحياة ، وهي الطعام والشراب والهواء ، فناسب ذلك أن يتكلم سبحانه عن المطعم : { يأيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً . . } .

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51)

لكن ، كيف يخاطب الحق – تبارك وتعالى – الرسل جميعاً في وقت واحد؟ نقول : لأن القرآن الكريم هو كلام الله القديم ، لم يأْتِ خاصاً بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأنْ نزل عليه فهو إذن خطاب لكل رسول جاء .

وبعد أن أمرهم الحق سبحانه بالأكل من الطيب أمرهم بالعمل الصالح : { واعملوا صَالِحاً . . } [المؤمنون : 51] ثم يقول سبحانه : { إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [المؤمنون : 51] كأن الحق سبحانه يقول : اسمعوا كلامي فيما آمركم به ، فأنا عليم وخبير بكل ما يُصلحكم؛ لأنني الخالق الذي أعلم كيف تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير ، ولا تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير إلا إذا أخذتم المطعم من الحلال الطيب .

وكما قلنا : إن صانع الآلة يضع لها الوقود المناسب لتشغيلها ، وإلاّ تعطلتْ عن أداء مهمتها .

فلكي تؤدي الصالح في حركة حياتك عليك أنْ تبدأ بالمطْعَم الطيب الذي يبني ذراتك من الحلال ، فيحدث انسجاماً بين هذه الذرات ، وتعمل معاً متعاونة غير متعاندة ، وإن انسجمتْ ذراتُك وتوافقتْ أعانتك على الصالح .

فإنْ دخل الحرام إلى طعامك وتلوثتْ به ذراتُك تنافرتْ وتعاندت ، كما لو وضعتَ للآلة وقوداً غير ما جُعِل لها ، فافهموا هذه القضية؛ لأنني أنا الخالق فآمِنُوا لي كما تؤمنون بقدرة الصانع حين يصنع لكم صناعة ، ويضع لكم قانون صيانتها .

إذن : أمر الحق سبحانه أولاً رسله بالأكل من الطيبات؛ لأن العمل الصالح يحتاج إلى جهاز سليم متوافق من داخله؛ لذلك في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أن أم عبد الله أخت شداد بن أوس ، أرسلت إلى النبي في يوم صامه وهو حارّ شيئاً من اللبن يفطر عليه ، وهو صلى الله عليه وسلم يعلم أنها فقيرة لا تَملك شيئاً فأرسل إليها : من أين لك هذا اللبن؟ فأرسلت إليه : من شاة عندي ، فبعث إليها : ومن أين لك بالشاة؟ قالت : اشتريتها بمال دبّرته . فشرب رسول الله من اللبن .

وإنْ كنا نحن لا نتحرى في مَطْعمنا كُلَّ هذا التحري ، لكن هذا رسول الله الذي يُنفذ منهج الله كما جاءه ، وعلى أكمل وجه . وفي الحديث الشريف : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : { يأأيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [المؤمنون : 51] وقال : { يأأيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . } [البقرة : 172] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّي بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك؟ » .

نعم ، كيف يُستجاب له وهو يدعو الله بجهاز إرسال فاسد مُشوّش دَنَّسه وخالطه الحرام؟

وفي حديث سيدنا سعد رضي الله عنه لما قال لرسول الله : يا رسول الله ادْعُ الله لي أنْ أكون مُستجاب الدعوة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا سعد أطِبْ مطعمك تكُنْ مُستجاب الدعوة » .

ثم يُذيّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى : { إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [المؤمنون : 51] يعني : أعلم ما يُصلحكم ، وما يجلب لكم الخير .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً . . } .

وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52)

بعد أن تكلَّم الحق – سبحانه وتعالى – عن المعركة بين الإيمان والكفر أراد هنا أن يتكلم عن معركة أخرى لا تقلّ خطورة عن الأولى ، وهي معركة الفُرْقة والاختلاف بين صفوف المؤمنين ، ليحذرنا من الخلافات التي تشقُّ عصانا ، وتفُتُّ في عَضُد الأمة وتُضعفها أمام أعدائها ، ونسمعهم الآن يقولون عنَّا بعدما وصلنا إليه من شيع وأحزاب – ليتفقوا أولاً فيما بينهم ، ثم يُبشّروا بالإسلام .

الأمة : الجماعة يجمعهم زمن واحد أو دين واحد ، وتُطلَق على الفرد الواحد حين تجتمع فيه خصال الخير التي لا تجتمع إلا في أمة ، لذلك سمَّى الله تعالى نبيه إبراهيم أمة في قوله تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين } [النحل : 120] .

أما قوله سبحانه : { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً . . } [المائدة : 48] فكيف نقول : إنها أمة واحدة؟

قالوا : لأن الدين يتكّون من أصول وعقائد ، وهذه واحدة لا تختلف باختلاف الأديان ، وأخلاق وفروع . وهذه تختلف من دين لآخر باختلاف البيئة؛ لأنها تأتي بما يناسب حركة الحياة في كل عصر .

يقول تعالى : { شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ . . } [الشورى : 13]

إذن : فالأمة واحدة يعني في عقائدها وإن اختلفتْ في الشريعة والمنهج ، والأحكام الجزئية التي تتعرض لأقضية الحياة . ومن ذلك قوله تعالى : { وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . . } [آل عمران : 50] .

وكانوا في الأمم السابقة إذا وقعت نجاسة على ثوب يقطعون الموضع الذي وقعت عليه ، فلما جاء الإسلام خفَّف عن الناس هذا العَنت ، وشرع لهم أنْ يغسلوه فيطهر .

وما دام أن أمتكم أمة واحدة { وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فاتقون } [المؤمنون : 52] يعني : اتقوا الله في هذه الأمة الواحدة وأبقوا على وحدتها ، واحذروا ما يُفرّقها من خلافات حول فروع إن اختلف البعض عليها اتهموا الآخرين بالكفر؛ لأنهم يريدون أنْ يَنْهبوا من الدين الجامع سلطة زمنية لأنفسهم .

والحق – تبارك وتعالى – يقول : { إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ . . } [الأنعام : 159] .

فالأمور التي أحكمها الله باللفظ الصريح المُحْكَم أصول لا خلافَ عليها ولا اجتهادَ فيها ، وأما الأمور التي تركها سبحانه للاجتهاد فيجب أن نحترم فيها اجتهاد الآخرين ، وإلا لو أراد الحق سبحانه لجعل الأمر كله مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأي أو اجتهاد .

ومعنى { وَأَنَاْ رَبُّكُمْ . . } [المؤمنون : 52] أن من عطاء ربوبيتي أنْ جعلْتُ لكم أموراً محكمة وعقائد ثابتة؛ لأن الاختلاف فيها يفسد المجتمع ، وتركتُ لكم أموراً أخرى تأتون بها أو تتركونها ، كُلٌّ حسب اجتهاده؛ لأن الاختلاف فيها لا يترتب عليه فساد في المجتمع ، وسبق أن مثَّلنا لهذه الأمور .

وقوله : { فاتقون } [المؤمنون : 52] يعني : بطاعة الأمر ، فما أحكمتُه فأَحْكِموه ، وما جعلتُ لكم فيه اجتهاداً فاقبلوا فيه اجتهاد الآخرين .

لكن ، هل سمعنا قوْل الله وأطعْنَا؟ يقول سبحانه : { فتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً . . } .

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53)

{ زُبُراً } [المؤمنون : 53] يعني : قطعاً متفرقة ، ومنه { آتُونِي زُبَرَ الحديد . . } [الكهف : 96] .

{ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [المؤمنون : 53] يعني : كل جماعة تتعصب لرأيها وتفرح به ، وكأنها على الحق وغيرها على الباطل ، يريدون أن تكون لهم سلطة زمنية بين الناس ، ويُصوِّرون لهم أنهم أتوْا بما لم يأت به أحد من قبلهم ، وتنبّهوا إلى ما غفل عنه الآخرون .

{ بِمَا لَدَيْهِمْ . . } [المؤمنون : 53] بالرأي الذي يريدونه ، لا بالحكم الذي يرتضيه الحق

سبحانه وتعالى .

من ذلك قولهم : إن الصلاة في مسجد به قبر أو ضريح باطلة ، وأن ذلك شرك في العبادة . . إلخ ولو أن الأمر كما يقولون فليهدموا القبر في المدينة .

إن على هؤلاء الذين يثيرون مثل هذه الخلافات أنْ يتفهموا الأمور على وجهها الصحيح ، حتى لا نكون من الذين قال الله عنهم : { فتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [المؤمنون : 53] .

وما أفسد استقبال الأديان السابقة على الإسلام إلا مثل هذه الخلافات ، وإلاّ فكل دين سبق الإسلام وخصوصاً الموسوية والعيسوية قد بشَّرَتْ بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكانوا وهم أهل كتاب ورسالة وعلى صلة بالسماء – يجادلون أهل الكفر من عبدة الأصنام يقولون : لقد أطلَّ زمان نبي يظهر فيكم نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم .

ومع ذلك : { فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ . . } [البقرة : 89] لماذا؟ لأنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطتهم الزمنية .

كيف لا ينكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان أحدهم يستعد لتنصيب نفسه ملكاً على المدينة يوم أنْ دخلها رسول الله ، فأفسد عليه ما أراد؟

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54)

{ فَذَرْهُمْ . . } [المؤمنون : 54] يعني : دَعْهم ، والعرب لم تستعمل الماضي من هذين الفعلين ، فورد فيهما يدع ويذر . وقد ورد هذا الفعل أيضاً في قوله تعالى : { وَذَرْنِي والمكذبين أُوْلِي النعمة . . } [المزمل : 11] .

وفي قوله تعالى : { فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بهذا الحديث . . } [القلم : 44] .

والمعنى : ذرهم لي أنا أتولى عقابهم ، وأفعل بهم ما أشاء ، أو : ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقوا العقاب ، وينزل بهم العذاب .

والغمرة : جملة الماء التي تغطي قامة الرجل وتمنع عنه التنفس ، فلا يبقى له من أمل في الحياة إلا بمقدار ما في رئته لأكبر قدر من الهواء؛ لذلك يحرص الإنسان على أنْ يُمرِّن نفسه على أن تتسع رئته لأكبر قدر من الهواء .

ومن ذلك أخذت كلمة المنافسة ، وأصلها أن يغطس اثنان تحت الماء ليختبر كل منهما الآخر : أيّهما يبقى فترة أطول تحت الماء ودون تنفس .

ويقول تعالى : { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون } [المطففين : 26] وتستطيع أن تُجري مع نفسك هذه المنافسة ، بأن تأخذ نفساً عميقاً ثم تعد : واحد ، اثنان وسوف ترى مقدار ما في رئتك من الهواء .

فالمعنى : ذَرْهم في غبائهم وغفلتهم فلن يطول بهم الوقت؛ لأنهم كمن غمره الماء ، وسرعان ما تنكتم أنفاسه ويفارق الحياة؛ لذلك قال تعالى بعدها : { حتى حِينٍ } [المؤمنون : 54] والحين مدة من الزمن قد تطول ، كما في قوله تعالى : { تؤتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا . . } [إبراهيم : 25] .

وقد تقتصر كما في قوله تعالى : { فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } [الروم : 17] وكأن الله تعالى عَبّر بالغمرة ليدل على أن حينهم لن يطول .

ثم ينتقل السياق ليعالج قضية قد تشغل حتى كثيراً من المؤمنين : { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ . . } .

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (56)

هذه قضية شغلت كثيراً من المؤمنين حين يرونَ الكافرين بالله مُرفَّهين مُنعّمين ، في يدهم المال والنفوذ ، في حين أن المؤمنين فقراء ، وربما تشكّك البعض واهتزَّ إيمانه لهذه المتناقضات .

ونقول لهؤلاء : لم تكن هذه صورة المؤمنين في الماضي ، إنهم سادوا الدنيا بعلومهم وثقافاتهم وازدهرتْ حضارتهم على مدى ألف سنة من الزمان ، فلما تخلَّوْا عن دينهم وقِيَمهم حَلَّ بهم ما هم فيه الآن .

لقد تقدم علينا الآخرون؛ لأنهم أخذوا بأسباب الدنيا ، وينبغي علينا نحن المسلمين أن نأخذ أيضاً بهذه الأسباب؛ لأنها من عطاء الربوبية الذي لا يُحرم منه لا مؤمن ولا كافر ، فَمنْ أحسنه نال ثمرته وأخذ خيره .

قال سبحانه : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20] والأسباب يد الله الممدودة لخَلْقه ، فَمنْ ردَّ يد الله إليه فلا بُدَّ أن يشْقى في رحلة الحياة .

وقد يكون تنعُّم هؤلاء مجرد ترف يجرُّهم إلى الطغيان ، كما جاء في قوله تعالى : { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ } [الأنعام : 44] .

لذلك فالحق – تبارك وتعالى – يعالج هنا هذه المسألة : { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات . . } [المؤمنون : 55 – 56] أيظنون أن هذا خير لهم؟ لا ، بل هو إمهال واستدراج ليزدادوا طغياناً .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : { وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدنيا } [التوبة : 85] .

وقوله تعالى : { بَل لاَّ يَشْعُرُونَ } [المؤمنون : 56] (بل) : تفيد الإضراب عما قبلها وإثبات

ما بعدها ، إضراب عن مسألة تنعُّم هؤلاء؛ لأنها نعمة موقوته وزائلة ، وهي في الحقيقة عليهم نقمة ، لأنهم لا يشعرون ، لا يشعرون أن هذه النعمة لا تعني محبتهم ورضانا عنهم ، ولا يشعرون بالمكيدة وبالفخ الذي يُدبَّر لهم .

وسبق أن أوضحنا أن الله تعالى حين يريد الانتقام من عدوه يُمدّه أولاً ، ويُوسِّع عليه ويُعلي مكانته ، حتى إذا أخذه كان أَخْذه مؤلماً وشديداً .

وقوله تعالى : { نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات . . } [المؤمنون : 56] المسارعة ترد في كتاب الله على مَعَانٍ : مرة يتعدَّى الفعل بإلى ، مثل : { وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . } [آل عمران : 133] ومرة يتعدى بفي ، مثل : { يُسَارِعُونَ فِي الخيرات . . } [المؤمنون : 61] فما الفرق بين المعنيين؟

سارع إلى كذا : إذا كنتَ خارجاً عنه ، وتريد أن تخطو إليه خُطًى عاجلة ، لكن إنْ كنتَ في الخير أصلاً وتريد أنْ ترتقي فيه تقول : سارع في الخيرات . فالأولى يخاطب بها مَنْ لم يدخل في حيِّز الخير ، والأخرى لمنْ كان مظروفاً في الخير ، ويريد الارتقاء .

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57)

الخشية : هي أشد الخوف ، والإنسان قد يخاف من شيء ، لكن يبقى عنده أمل في النجاة ، ويتوقّع من الأسباب ما ينقذه ويُؤمِّن خوفه ، لكن حين تخاف من الله فهو خوف لا منفذَ للأمل فيه ، ولا تَهبُّ فيه هَبّة تُشعرك بلطف .

ومعنى { مُّشْفِقُونَ } [المؤمنون : 57] الإشفاق أيضاً الخوف ، وهو خوف يُمدَح ولا يُذم؛ لأنه خوف يحمل صاحبه ويحثّه على تجنُّب أسباب الخشية بالعمل الصالح ، إنه إشفاق من الذنب الذي يستوجب العقوبة ، كالتلميذ الذي يذاكر ويجتهد خوفاً من الرسوب ، وهكذا حال المؤمن يخاف هذا الخوف المثمر الممدوح الذي يجعله يأخذ بأسباب النجاة ، وهذا دليل الإيمان .

أمّا الإشفاق بعد فوات الأوان ، والذي حكاه القرآن عن المجرمين : { وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ ياويلتنا . . } [الكهف : 49] فهذا إشفاق لا فائدة منه؛ لأنه جاء بعد ضياع الفرصة وانتهاء وقت العمل ، فقد قامت القيامة ونُشِرت الكتب ولا أملَ في النجاة إذن .

ثم يقول الحق سبحانه : { والذين هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * والذين هُم بِرَبِّهِمْ . . } .

وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59)

نلحظ في هذه الآيات أن الحق سبحانه حدثنا عن الإشفاق والخشية ، ثم عن الإيمان بآيات الله ، ثم في النهاية عن مسألة الشرك . وقد تسأل : لماذا لم يبدأ بالتحذير من الشرك؟

نقول : لأن الشرك المراد هنا الشرك الخفي الذي يقع فيه حتى المؤمن ، والذي قال الله فيه : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ } [يوسف : 106] فلا تظن أن الشرك فقط أن تجعل لله شريكاً ، أو أن تسجد لصنم ، فمن الشرك شرك خفي دقيق يتسرب إلى القلب ويخالط العمل مهما كان صاحبه مؤمناً .

لذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنا الأدب في هذه المسألة ، فيقول في دعائه : « اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك » .

فالإنسان يشرع في العمل ويخلص فيه النية لله ، ومع ذلك يتسرب إليه شيء من الرياء وتزيين الشيطان؛ لذلك وصف النبي صلى الله عليه وسلم الشرك الخفي بأنه أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء .

كما أن الشرك الأكبر لا يتصور مِمَّن هذه الصفات المتقدمة صفاته .

ثم يقول الحق سبحانه : { والذين يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ . . } .

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60)

{ يُؤْتُونَ . . } [المؤمنون : 60] يعني المال ، وقال بعدها : { مَآ آتَواْ . . } [المؤمنون : 60] حتى لا يجعل لها حداً ، لا العُشْر ولا نصف العُشر ، يريد سبحانه أن يفسح لأريحية العطاء وسخاء النفس ، لذلك جاءت { مَآ آتَواْ . . } [المؤمنون : 60] هكذا مُبْهمة حتى لا نظن أنها الزكاة ، ونعرف أن الله تعالى يفتح المجال للإحسانية والتفضُّل ، وهذا هو مقام الإحسان الذي قال الله تعالى عنه : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ } [الذاريات : 15 – 16] .

والمحسن : الذي يلزم نفسه من الطاعات فوق ما ألزمه الله ، لكن من جنس ما فرض الله عليه ، فإن كان الفرض في الصوم شهر رمضان يصوم المحسن رمضان ويزيد عليه؛ لذلك تجد الدقة في الأداء القرآني ، حيث يقول بعدها : { كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الذاريات : 17 – 18] .

وهذه أمور فوق ما فرض الله عليهم ، ولم يطلب منك أن تقوم الليل لا تنام ، لكن صَلِّ العشاء ونَمْ حتى الفجر ، وهذه المسألة واضحة في قوله تعالى بعدها : { وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذرايات : 19] ولم يقل (معلوم) لأن الآية لا تتكلم عن الحق المعلوم وهو الزكاة ، إنما عن الصدقة والتطوع فوق ما فرض الله .

والإبهام في { مَآ . . } [المؤمنون : 60] جاء أيضاً في قول الله تعالى : { فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا

غَشِيَهُمْ } [طه : 78] ولم يحدد مقدار الماء الذي غشيهم ، وترك المسألة مبهمة ليكون المعنى أبلغ ، ولتذهب الظنون في هَوْلها كل مذهب .

لكن؛ ما داموا قد أعْطوا ومدُّوا أيديهم للآخرين بالعطاء ، فلماذا يقول تعالى : { وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ . . } [المؤمنون : 60] .

نقول : لأن العبرة ليست بمجرد العمل ، إنما العبرة بقبول العمل ، والعمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصاً لوجه الله لا يخالطه رياء ولا سمعة ، فهم إذن يعملون ويتحرَّوْن الإخلاص وأسباب القبول ويتصدّق أحدهم بالصدقة ، بحيث لا تعلم شماله ما أنفقتْ يمينه ، ومع ذلك يخاف عدم القبول ، وهذه أيضاً من علامات الإيمان .

وكأن ربك عز وجل يَغَار عليك أنْ تعمل عملاً لا تأخذ عليه أجراً؛ لأنك إنْ رأيت الناس في شيء من العمل تركك الله وإياهم تأخذ منهم الجزاء ، فهذا إذن جَهْد مُهْدر لا فائدة منه ، وهذه المسألة لا يرضاها لك ربك .

وفي الحديث القدسي : « الإخلاص سِرٌّ من أسراري أودعته قلب مَنْ أحببت من عبادي ، لا يطلع عليه مَلَك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده » .

والوجل : انفعال قسري واضطراب يطرأ على العضو من خوف أو خشية ، والخوف شيء يخيفك أنت ، أما الخشية فهي أعلى من الخوف ، وهي أن تخاف ممن يوقع بك أذى أشد مما أنت فيه .

ومن أهل التفسير مَنْ يرى أن الآية { والذين يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .

. } [المؤمنون : 60] جاءت في الرجل الذي يسرق ، والذي يزني ، والذي يشرب الخمر ، لكن قلبه وَجلٌ من لقاء الله وخشيته ، فما يزال فيه بقية من بقايا الإيمان والحياء من الله تعالى .

وقالوا : إن عائشة رضي الله عنها فهمت هذا من الآية .

لكن هذا الفهم لا يستقيم مع قوله تعالى { يُؤْتُونَ . . } [المؤمنون : 60] أي : يؤتون غيرهم ، فهناك إذن مُؤتٍ ومُؤْتىً له ، ولو أراد السرقة والزنى وشرب الخمر لقال : يَأْتُون .

فالمراد : يؤتون غيرهم ما عليهم من الحق ، سواء أكانت هذه الحقوق لله تعالى كالزكاة والكفارات والنذور والحدود ، أو كانت متعلقة بالعباد كالودائع والأمانات والعدالة في الحكم بينهم . . الخ فيؤدي المؤمن ما عليه من هذه الحقوق ، وقلبه وَجِلٌ أَلاَّ يصاحب الإخلاص عمله فلا يقبل .

ثم يقول تعالى : { أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } [المؤمنون : 60] فالمؤمن يؤدي ما عليه ، ومع ذلك تراه خائفاً وَجِلاً؛ لأنه يثق في الرجوع إلى الله والوقوف بين يديه سبحانه ، وهو ربه الذي يُجازيه على قَدْر إخلاصه ، ويخاف أيضاً أن يفتضح أمره إنْ خالط عملَه شيءٌ من الرياء؛ لأن ربه غيور لا يرضى معه شريكاً في العمل ، وهو سبحانه يعلم كل شيء ويحاسب على ذرات الخير وعلى ذرات الشر .

وهناك أعمال في ظاهرها أنها من الدين ، لكن في طيها شيء من الرياء ، وإنْ لم يَدْرِ الإنسان به ، ومن ذلك قولهم : أفعل هذا لله ثم لك ، أو : توكلت على الله وعليك . . الخ ، فهذه العبارات وأمثالها تحمل في طياتها معاني الشرك التي ينبغي أن نُنزِّه الله منها ، فلا نعطف على الله تعالى أحداً حتى لا نشركه مع الله ، ولو عن غيرقصد .

لذلك يقول تعالى : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ } [يوسف : 106] ويوم القيامة يطمئن أهل الإخلاص إلى الجزاء ، ويُفَاجأ أهل الشرك والرياء بوجود الله تعالى ، ولم يكن على بالهم حين عملوا : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ . . } [النور : 39] إذن : ما دُمْنَا سنفاجأ بوجود الحق ، ولا شيء غير الحق ، فليكُنْ عملنا للحق ، ولا شيء لغير الحق .

{ أولئك يُسَارِعُونَ فِي الخيرات . . } .

أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61)

{ أولئك . . } [المؤمنون : 61] أي : أصحاب الصفات المتقدمة { يُسَارِعُونَ فِي الخيرات . . } [المؤمنون : 61] وفرْق بين أسرع وسارع : أسرع يُسرع يعني : بذاته ، إنما سارع يسارع أي : يرى غيره يسرع ، فيحاول أنْ يتفوق عليه ، ففيه مبالغة وحافز على المنافسة .

وسبق أنْ أوضحنا الفرق بين سارع إلى وسارع في ، فمعنى { يُسَارِعُونَ فِي الخيرات . . } [المؤمنون : 61] أنهم كانوا في حيِّز الخيرات ومظروفين فيه ، لكن يحاولون الارتقاء والازدياد من الخيرات للوصول إلى مرتبة أعلى .

وقوله تعالى : { وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [المؤمنون : 61] هل المسارعة هي عِلَّة أنهم سبقوا إلى الخيرات ، أم أنْ سَبْقهم إلى الخيرات عِلّة المسارعة؟

في اللغة يقولون : سبب ومُسبب ، وشرط وجزاء ، وعلة ومعلول . فحين تقول : إنْ تذاكر تنجح ، فالمذاكرة سبب النجاح ، لكن هل سبقت المذاكرةُ النجاح؟ لا ، بل وُجد النجاح أولاً في بالك ، واستحضرت مميزاته وكيف ستكون منزلتك في المجتمع وبين الناس ، وبذلك وجد عندك دافع وخاطر ، ثم أردت أنْ تحققه واقعاً ، فذاكرت للوصول إلى هذا الهدف .

إذن : فكل شرط وجواب : الجواب سبب في الشرط ، والشرط سبب في الجواب ، الجواب سبب في الشرط دافعاً له ، والشرط سبب في الجواب واقعاً وتنفيذاً ، فالنجاح وُجد دافعاً على المذاكرة ، والمذاكرة جاءت واقعاً ليتحقق النجاح .

وكذلك في { أولئك يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [المؤمنون : 61] فالمعنى : القصد أنْ يسبق فسارع ، سارع في الواقع ليسبق بالفعل ، لكن السبْق قبل المسارعة؛ لأن الذهن متهيء له أولاً وحقائقه واضحة .

إذن : الشرط والجزاء ، والسبب والمسبب ، والعلة والمعلول تدور بين دافع هو الجواب ، وواقع هو الشرط .

ومعنى : { وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [المؤمنون : 61] يعني : هم أهل لهذا العمل وقادرون عليه ، كما لو طلبتُ منك شيئاً فتقول لي : هذا شيء صعب فأقول لك : وأنت لها .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بالحق . . } .

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62)

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن المسارعة والمنافسة بيَّن أنها على قَدْر الوُسْع والطاقة ، وأنه سبحانه ما كلّفك إلا بعد عِلْمه بقدرتك ، وأنك تسع هذا التكليف ، فإياك أنْ تنظر إلى الحكم فتقول : أنا أسعه أو لا أسعه ، لكن أنظر إلى التكليف : ما دام ربك قد كلّفك فاعلم أنه في وُسْعك ، وحين يعلم منك ربك عدم القدرة يُخفِّف عنك التكليف دون أنْ تطلب أنت ذلك .

والأمثلة على تخفيف التكاليف واضحة في الصلاة والصوم والحج . . الخ .

والآن نسمع مَنْ يقول : لم تَعُد الطاقة في هذا العصر تسع هذه التكاليف ، فالزمن تغيّر ، والأعمال والمسئوليات كثرت ، إلى غير ذلك من هذه الأقوال التي يريد أصحابها التنصّل من شرع الله . ونقول ما دام التكليف باقياً فالوُسْع بَاقٍ ، والحق – سبحانه وتعالى – أعلم بوُسْع خَلْقه وطاقاتهم .

إذن : أنا أنظر أولاً إلى التكليف ، ثم أحكم على الوُسْع من التكليف ، ولا أحكم على التكليف من الوُسْع .

ثم يقول سبحانه : { وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بالحق وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } [المؤمنون : 62] المراد هنا كتاب أعمالنا الذي سجّل فيه كل شيء قدّمته الأيدي ، لكن : ما الحكمة من تسجيل الأعمال؟ وهل يُكذِّب العباد ربهم عز وجل فيما سُجِّل عليهم؟

قالوا : الحكمة من تسجيل الأعمال أن تكون حجة على صاحبها ، وليعلم أن الله ما ظلمه شيئاً؛ لذلك سيقول له ربه : { اقرأ كتابك . . } [الإسراء : 14] يعني : بنفسك حتى تُقام عليك الحجة ، ولا يكون عندك اعتراض .

ثم قال بعدها : { وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } [المؤمنون : 62] لأن الظلم لا يُتصوّر من الحق – سبحانه وتعالى – فالظلم نتيجة الحاجة ، وأنت تظلم غيرك حين تريد أن تنتفع بأثر الغير في الخير زيادة عَمَّا عندك ، فالظلم إذن نتيجة الحاجة ، والحق سبحانه هو المعطي ، وهو الغني الذي لا حاجةَ له إلى أحد ، فلماذا يظلم؟

كذلك قد يظلم الضعيف ليأخذ ما في يد غيره ليسُدّ حاجته أو شهوته ، ولو كان قوياً لكفى

نفسه بمجهوده .

ثم يقول الحق سبحانه : { بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هذا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ . . } .

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (63)

{ بَلْ . . } [المؤمنون : 63] حرف يدل على الإضراب عن الكلام السابق ، وإثبات الحكم للكلام بعدها . والغَمْرة كما قلنا : هي جملة الماء الذي يعلو قامة الإنسان حتى يمنع عنه التنفس ويحرمه الهواء ، وهو أول مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة .

فالإنسان يصبر على الطعام شهراً ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام لعشرة ، إنما لا يصبر على النَّفَس إلا بمقدار ما يحتويه الصدر من الهواء ، فإنْ كان كانت رئتك سليمة تتسع لأكبر كمية من الهواء ، وتستطيع أنْ تتحمل عدم التنفس لفترة أطول ، أما إن كانت الرئة مُعتَلّة ، فإنها لا تتسع لكمية كبيرة ، وسرعان ما ينتهي الهواء ويموت الإنسان .

ومن التنفس جاءت المنافسة ، كما في قوله تعالى : { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون } [المطففين : 26] ثم استُعمِلَتْ لكل عمل تُنافِس فيه غيرك؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسي في الحياة .

لذلك الخالق – عز وجل – حينما خلق هذه البِنْية الإنسانية جعل لها نظاماً فريداً في وقودها وغذائها على خلاف صَنْعة البشر ، فلو منعتَ البنزين مثلاً عن السيارة توقفتْ ، أمّا صنعة الخالق – عز وجل – فالجسم يأخذ حاجته من الطعام والماء ، ثم يختزن الباقي لوقت الحاجة ، وقد علم الحق سبحانه شهوتك وحبك للطعام وللشراب ، وأخذْك منهما فوق حاجتك ، فإنْ غاب عنك الطعام تغذَّى جسمك من هذا المخزن الرباني .

لذلك نرى البعض حين يتأخر عنه الطعام يقول : نفس انصدت عن الأكل ، والحقيقة أنه أكل فعلاً ، وتغذى من مخزون الطعام والشراب في جسمه .

ومن حكمة الله أن الطعام الفائض يُختزن في صورة واحدة هي الشحم ، الذي يتحول تلقائياً إلى أيّ عنصر آخر يحتاجه الجسم ، فإذا انتهى الشحم تغذّى الجسم على اللحم والعضلات ، ثم على العظام ، وهي آخر مخزن للقوت في جسم الإنسان؛ لذلك جاء في قصة زكريا عليه السلام : { قَالَ رَبِّ إِنِّيَ وَهَنَ العظم مِنِّي واشتعل الرأس شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً } [مريم : 4] .

أما الهواء فليس له مخزن إلا بقدْر ما تتسع له الرئة ، فإذا نفد منها الهواء بشهيق وزفير فلا حيلة فيه ، ومن رحمة الله بعباده ألاّ يُمَلِّك الهواء لأحد ، فقد يملك الطعام وربما يملك الماء ، أمّا الهواء الذي يحتاجه في كل نفَس ، فقد جعله الله مِلْكاً للجميع ، حتى لا يمنعه أحد عن أحد؛ لأنك لا تستطيع أن تحتال له كما تحتال للطعام وللشراب ، ولو غضب عليك مالك الهواء لمتّ قبل أنْ

يرضى عنك .
ونلحظ هنا أن الغمرة لا تحتويهم هم ، إنما تحتوي القلوب : { بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ . . } [المؤمنون : 63] وهذه بلوى أعظم؛ لأن القلب محلٌّ لحصيلة المدركات التي يأخذها العقل ، ويُميِّز بينها ويختار منها ويُرجّح ، ثم تتحول هذه المدركات إلى عقائد تستقر في القلب وعلى هَدْيها تسير في حركة الحياة .

لذلك إنْ كان القلب نفسه في الغمرة فالمصيبة أشدّ والبلاء أعظم؛ لأنه مُسْتودع العقائد والمبادئ التي تُنير لك الطريق .
والقلب هو محلُّ نظر الله إلى عباده ، لذلك يقول سبحانه : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنس لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا . . } [الأعراف : 179] .
وقال سبحانه : { خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ . . } [البقرة : 7] لأنهم أحبوا الكفر واطمأنوا إليه ، ولأنه سبحانه ربٌّ متولٍّ ربوبية الخلق ، يعطيهم ما أراداوا حتى إنْ كان كفراً؛ لذلك ختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر؛ لأنهم عشقوا الكفر وأحبّوه .
لذلك نقول لأهل المصائب الذين يُصابون في غَالٍ أو عزيز فيحزنون عليه ، ويبالغون بإقامة المآتم والسرادقات ، ويقيمون ذكرى الخميس والأربعين وغيرها ، وربما كان الابن عاقاً لوالديه في حياتهما ، فإذا مات أبوه أو أمه أقام المآتم وشغل الناس ، وهو كما قال الشاعر :
لاَ أَعْرِفنَّك بعْد الموتِ تَنْدِبني ... وفِي حَيَاتِي مَا بَلَّغْتَنِي زَادَا
أو الأم التي فقدت وحيدها مثلاً ، فتعيش حزينة مُكدّرة ، وكأنها عشقتْ الحزن وأحبّته ، نحذر هؤلاء وننصح كل حزين أن يُغلق باب الحزن بمسامير الرضا والتسليم ، فالحزن إنْ رأى بابه مُوارباً دخل وظَلّ معك ولازمك .
وسبق أن وضحنا أن الحق سبحانه لا يرفع بلاءً عن عبده حتى يرضى به ، ولنا القدوة في هذه المسألة بأبينا إبراهيم – عليه السلام – حين ابتلاه ربه بذبح ولده في رؤيا رآها ، واعتبرها هو تكليفاً ، ورضي بقدر الله وسلم لأمره ، ثم أخبر ولده ووحيده بهذه الرؤيا حتى لا يحرمه هذا الأجر ولا يأخذه على غِرّة ، فيتغير قلبه عليه : { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن ياإبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيآ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } [الصافات : 103 – 107] .
فبعد أن رضي إبراهيم وولده بقضاء الله رفع عنهما البلاء ، وجاءهما الفداء من الله لإسماعيل ، بل وزاده بأنْ بشّره بولد آخر هو إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، أجيال متعاقبة جاءتْ فضلاً من الله وجزاءً على الرضا بقضائه وقدره ، وما أحسن ما قال الشاعر في هذا الموقف :
سَلِّمْ لربك حُكْمه فَلحكْمةٍ ... يَقْضِيه حتّى تسْتريح وتَغْنَما

واذكُرْ خليلَ اللهِ في ذَبْح ابنهِ ... إذْ قالَ خالقُه فَلمّا أسْلَما

إذن : إذا كانت القلوب نفسها في غمرة ، فقد خرب جهاز العقائد والمبادئ ، وينشأ عن خرابه خراب حركة الحياة وانحراف السلوك . وقد أخذ القلب هذه الأهمية؛ لأنه معمل الدم ، ومصدر سائل الحياة ، فإنْ فسدَ لا بُدَّ أنْ ينضح على باقي الجوارح ، فتفسد هي الأخرى ، ولو كان القلب صالحاً فلا بُدّ أ نْ ينضحَ صلاحه على الجوارح كلها فتصلح ، كما جاء في الحديث الشريف : « ألا إن في الجسد مُضْغة إذا صَلُحت صَلُح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

ثم يقول سبحانه : { وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذلك هُمْ لَهَا عَامِلُونَ } [المؤمنون : 63] يعني الأمر لا يتوقف بهم عند مسألة العقائد ، إنما لهم أعمال أخرى كثيرة سيقعون فيها ، فالحق سبحانه لا يذكر لهم إلا قمم المخالفات ونماذج منها ، إنما في علمه تعالى وفي لوحه المحفوظ أنهم سيفعلون كذا ويفعلون كذا ، وإنْ كانوا هم أنفسهم لا يعلمون أن ذلك سيحدث منهم لكن ربهم – عز وجل – يعلم بطلاقة القدرة ما كان وما سيكون .

ومن عجائب قدرة الله أنه سبحانه يحكم على عبده الكافر أنه سيعمل كذا وكذا ، ومع ذلك لم يعاند أحد الكفار ، فيقول : إن الله حكم عليَّ بكذا ، ولكني لن أفعل فيكون حكم الله عليه غير صحيح؛ لأن الحق سبحانه لا يتحكم فيما يجريه علينا فحسب ، وإنما في اختيار العبد ومراده ، مع أن العبد حُرٌّ في أن يفعل أو لا يفعل .

وهذه القضية واضحة في قوله تعالى عن أبي لهب : { تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سيصلى نَاراً . . } [المسد : 1 – 3] تفيد المستقبل ، فقد حكم الحق سبحانه عليه أنه سيكون في النار ، وكان أبو لهب في أمة ومَجْمع من القوم الكافرين ، ومنهم مَنْ آمن فمن يضمن أن يسمع أبو لهب هذا الحكم ومع ذلك لا يؤمن ويموت كافراً؟

ثم ألم يَكُنْ بإمكان هذا (المغفل) أن يقف على ملأ ويقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويدخل في الإسلام ، فيكون الحكم فيه غير صحيح؟ لكن هذا كلام الله وحكمه القديم لا يُردّ ولا يخالفه أحد مهما كان أمره في يده وهو قادر على الاختيار ، هذا من طلاقة قدرة الله في فِعْله وعلى خَلْقه في أفعالهم .

فالمعنى : { هُمْ لَهَا عَامِلُونَ } [المؤمنون : 63] حكم لا يُرد ولا يُكذَّب ، حتى وإنْ أخبر به صاحبه؛ لأن علم الله تعالى مستوعبٌ لما كان ولما سيكون ، وكأن الحق سبحانه يقول : إن طلاقة القدرة ليست فيما أفعله فحسب ، إنما يفعله غيري مِمَّنْ أعطيتُه حرية الاختيار .

ثم يقول الحق سبحانه : { حتى إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بالعذاب . . } .

حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64)

يعني : بعد أن أشركوا بالله وكفروا به ، وبعد أنْ أصبحتْ قلوبهم في غمرة وعمىً إذا مسَّهم شيء من العذاب يجأرون ويصرخون ، ومَنْ ذا الذي يطيق لفحة أو رائحة من عذاب الله؟

ومعنى { أَخَذْنَا . . } [المؤمنون : 64] كلمة الأخذ لها مجال واسع في كتاب الله ، والأَخْذ : هو الاستيلاء بعنف على شيء هو لا يحبّ أنْ تستولي عليه ، والأَخْذ يُوحي بالعنف والشدة ، بحيث لا يستطيع المأخوذ الإفلات مهما حاول .

ومن ذلك قوله تعالى : { أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ } [القمر : 42] يعني : أخذاً شديداً يتململ منه فلا يستطيع الفكاك .

وقوله : { وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة . . } [هود : 67] .

ويقول : { إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود : 102] .

ومعنى : { مُتْرَفِيهِمْ . . } [المؤمنون : 64] من الترف وهو التنعُّم؛ لأن الحياة تقوم على ضروريات تستبقي الحياة وكماليات تُسعدِها وتُرفّهها وتُثريها ، فالمتْرَف مَنْ عنده من النعيم فوق الضروريات ، يقال : ترِف الرجل يترَف من باب فَرِح يفرح ، وأترفته النعمة إذا أطغته ، وأترفه الله يعني : وسّع عليه النعمة وزاده منها . وعلى قدر الإتراف يكون الأخذ أبلغَ والألم أشدَّ .

وسبق أن ذكرنا قول الله عز وجل : { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ . . } [الأنعام : 44] يعني : من منهج الله ، لم نُضيّق عليهم إنما : { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ . . } [الأنعام : 44 – 45] .

فهنا تكون النكاية أشدّ ، والحسرة أعظم .

والكلام هنا عن كفار قريش ، فكيف أخذهم الله وهم في ترف من العيش ، حيث تصبُّ عندهم كل خيرات الجزيرة حتى عاشوا عيشة الترف والتنعم؟

أخذهم الله حال ترفهم بالقَحْط والسنين؛ لذلك لما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم أُترفوا بالنعمة وطغَوْا بها قال : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » .

واستجاب الله تعالى دعاء نبيه ، فأصابهم الجدب والقَحْط حتى أكلوا الجيف و (العِلْهز) وهو شعر الذبيحة أو وبرها المخلوط بدمها بعد أنْ جَفَّ وتجمد تحت حرارة الشمس ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : { حتى إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بالعذاب . . } [المؤمنون : 64] .

وقوله تعالى : { إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ . . } [المؤمنون : 64] .

يصرخون ويضجّون ، فهذا أبو سفيان بعد أن أكلوا الجيف والفضلات يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ألستَ رحمةً للعالمين؟ إذن : فادْعُ الله أنْ يُفرّج عنا ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه حتى فرج عنهم .

أو : يراد بالعذاب هنا ما حدث لهم يوم بدر ، حيث أذلَّهم الله ، فقتل منهم مَنْ قتل ، وأسر مَنْ

أسر ، وانهارت سيادتهم وضاعت هيبتهم ، وقد كانوا يُعذِّبون المؤمنين ويقتلونهم ، ويقيمونهم في حَرِّ الشمس ويضعون الأحجار الكبيرة فوق بطونهم ، حتى أنزل الله تعالى في هذه الحالة القاسية التي يعانيها المؤمنون : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر }

[القمر : 45] .

فيستقبلون الآية بتعجُّب : حتى يقول عمر : أيُّ جمع هذا الذي سيُهزم ، فليس هناك أيّ بادرة لنصر المؤمنين ، فلما جاء يوم بدر ورأى المؤمنون ما حاق بالكافرين قال عمر نفسه : صدق الله ، سيُهزم الجمع وقد هُزِم .

وقوله تعالى : { إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ } [المؤمنون : 64] يجأر : يصرخ بصوت عالٍ ، والإنسان لا يصرخ إلا إذا كان في محنة لا تقدر أسبابه على دفعها ، فيصرخ طلباً لمن ينجده ، ويرفع صوته ليُسمِع كل مَنْ حوله ، كما يقولون (يجعر) .

والجؤار مثل الخوار يعني : يصيحون مثل العجول بعد ما كانوا رجالاً وسادة وطغاة ، فلماذا لم تظلّوا سادة ، لماذا تصرخون الآن؟ وكان المنتظر منهم في وقت الشدة أنْ يتماسكوا ، وأن يتجلّدوا حتى لا يشمت بهم العبيد والفقراء الذين آمنوا ، كما يقول الشاعر :

وتجلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمو ... أَنِّي لِريْبِ الدهْرِ لا أتضعْضَعُ

لكن ، هيهات فقد حاق بهم العذاب ، ولن يخدعوا أنفسهم الآن ، فليس أمامهم إلا الصراخ يطلبون به المغيث والمنجي من المهالك .

ثم يقول الحق سبحانه : { لاَ تَجْأَرُواْ اليوم إِنَّكُمْ مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ } .

لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (65)

يرد عليهم الحق سبحانه : { لاَ تَجْأَرُواْ اليوم . . } [المؤمنون : 65] لأن مَنْ يجأر ينادي مَنْ ينصره وأنتم لن تُنصروا { إِنَّكُمْ مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ } [المؤمنون : 65] لا تُنصرون من جهتنا؛ لأني أنصر أوليائي ، وأنصر رسلي ، وأنصر مَنْ ينصرني ، فاقطعوا الظن في نصري لكم؛ لأنني أنا الذي أنزلتُ بكم ما جعلكم تجأرون بسببه ، فكيف أزيله عنكم؟

وفي موضع آخر يتكلم الحق سبحانه عن أهل الكفر الذين تمالئوا عليه ، وشجّع بعضهم بعضاً على التجرّؤ على القرآن وعلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويُصفِّقون لمن يخوض في حقهما : { احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله فاهدوهم إلى صِرَاطِ الجحيم * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ } [الصافات : 22 - 26] .

إذن : لا تجأروا لأنكم لن تُنصروا مِنّا ، وكيف ننصركم بجؤاركم هذا ، وقد انصرفتم عن آياتي؟

قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66)

كيف تستغيثون بالله وتجأرون إليه وأنتم تُلْقى عليكم آياته تشرح لكم وتثبت لكم وجود الله بالآيات الكونية ، وتثبت لكم صِدْق الرسول بالمعجزات ، وتحمل لكم منهج الله في الآيات حاملة الأحكام ، ولكنكم عميتم عن ذلك كله .

ومعنى { فَكُنتُمْ على أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ } [المؤمنون : 66] العقب : مؤخرة القدم ، فبدل أن يمشي إلى الأمام كما خلقه الله وجعل له كشافات يُبصر بها الطريق ، ويهتدي إلى موضع قدميْه ، إذا به يمشي للخلف على عَقبه ، وكأنهم أُخِذوا أَخْذاً غَيَّر عندهم دولاب السير ، لماذا؟ لأنهم عَمُوا عن أسباب الهداية ، فصاروا يتخبطون في متاهات الحياة على غير هدى ، كمَنْ يسير بظهره لا يعرف مواقع قدميْه ، وهكذا فعلوا هم بأنفسهم .

وهذا التراجع يسمونه في قيادة السيارات (مارشادير) ، ويحتاج فيه الإنسان لمن يُوجِّهه ويرشد حركته يميناً أو شمالاً؛ لأنه لا يرى .

فالمعنى : لا تَلُمْ إلا نفسك حيث حرمتها من أسباب الهداية ، فبعد أنْ جاءتك وأصبحت بين يديك أغمضتَ عنها عينيك .

وفي موضع آخر قال سبحانه عن الشيطان : { فَلَمَّا تَرَآءَتِ الفئتان نَكَصَ على عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي برياء مِّنْكُمْ . . } [الأنفال : 48] .

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (67)

مادة : كبر تأتي بكسر الباء للدلالة على العمر تقول : كَبِر فلان . يعني : كان صغيراً ثم كبر ، وبضم الباء للشيء المعنوي وللقيم ، كما في قوله تعالى : { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . . } [الكهف : 5] يعني : عظمت .

ومعنى الاستكبار افتعال الكِبر وطلبه ، مثل : استفهم يعني : طلب الفَهْم ، في حين هو ليس كبيراً في ذاته ، فهو محتاج إلى غيره . فالكبير في ذاته مَنْ تكون عنده وتتوفر له في ذاته مُقوِّمات الحياة وضرورياتها وترفها ، لا يستمدها من أحد .

لكن الإنسان ضروريات حياته ، وأسباب ترفه موهوبة له من غيره ، فلا يصح له أنْ يتكبّر ، فمَنْ أراد أن يتكبّر فليتكبّر بشيء ذاتي فيه من صحة أو مال أو سلطان . . . الخ ، وهذه كلها أمور موهوبة لك ، فالصحيح قد يصبح سقيماً ، والغني قد يصبح فقيراً .

لذلك ، فالكبرياء لله تعالى وحده؛ لأنه الواهب للغير ، والمتفضِّل على الخَلْق بما يمكن أنْ يتكبروا به ، ومن صفات جلاله وكماله سبحانه (المتكبر) ؛ لأنه سبحانه رب الخَلْق أجمعين ، ومن مصلحة الخلق أن يكون المتكبر هو الله وحده ، حتى لا يرفع أحد رأسه على خَلْقه ويتكّبر عليهم

.

وهكذا يحمي الحق سبحانه خَلْقه من خَلْقه ، فإنْ تكبّر عليك ربك ، وأجري عليك قدراً؛ لأنك فعلت شيئاً وأنت واحد ، فاعلم أنه يتكبر على الآخرين جميعاً وهم كثيرون ، إنْ فعلوا بك هذا الشيء ، إذن : فصفة الكبرياء لله عز وجل في صالحك .

ومثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى : من مصلحة الأسرة ألاّ يكون لها إلا كبير واحد يُرجَع إليه ، ومن أقوال العامة (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) لأنه الميزان الذي تستقيم به الأمور ويُسيِّر دفّة الحياة .

وقلنا : إن من أسمائه تعالى (الكبير) ولا نقول : الأكبر مع أنها صيغة مبالغة ، لماذا؟ لأن أكبر صيغة مبالغة عندنا نحن البشر ، نقول : هذا كبير وذاك أكبر ، وهذا قويٌّ وذاك أقوَى ، ولا يقال هذا في صفته تعالى لأنك لو قُلْت : الله أكبر لكان المعنى أنك شرَكت معه غيره ، فهو سبحانه أكبر وغيره كبير ، لذلك لا تُقال : الله أكبر إلا في النداء للصلاة .

إذن : المستكبر : الذي يطلب مؤهلات كبْر وليس لذاتيته شيء من هذه المؤهلات ، والإنسان لا ينبغي له أن يتكبر إلا إذا ملك ذاتيات كبره ، والمخلوق لا يملك شيئاً من ذلك .

ومعنى { مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ . . } [المؤمنون : 67] الهاء في (به) ضمير مُبْهم ، يُعرَّف بمرجعه ، كما تقول : جاءني رجل فأكرمته ، فالذي أزال إبهام الهاء مرجعه إلى رجل . وفي الآية لم يتقدم اسم يعود عليه الضمير ، لكن الكلام هنا عن الرسول الذي أُرسل إليهم ، والقرآن الذي أُنزل عليهم معجزة ومنهاجاً ، إذن : لا يعود الضمير إلا إلى واحد منهما .

أو : أن الضمير في (به) يعود إلى بيت الله الحرام ، وقد كان سبباً لمكانة قريش ومنزلتهم بين العرب ، وأعطاهم وَضْعاً من السيادة والشرف ، فكانوا يسيرون في رحلات التجارة إلى اليمن وإلى الشام دون أن يتعرض لهم أحد ، في وقت انتشر فيه بين القبائل السَّلْب والنهب والغارة وقطع الطريق .

وما كانت هذه المنزلة لتكون لهم لولا بيت الله الحرام الذي يحجُّه العرب كل عام ، وخدمته وسدانته في أيدي قريش؛ لذلك استكبروا به على الأمة كلها ، ليس هذا فقط ، إنما تجرأوا أيضاً على البيت .

ويقول تعالى بعدها : { سَامِراً تَهْجُرُونَ } [المؤمنون : 67] السامر : الجماعة يسْمُرون ليلاً ، وكانوا يجتمعون حول بيت الله ليلاً يتحدثون في حق النبي صلى الله عليه وسلم ، يشتمونه ويخوضون في حقه ، وفي حق القرآن الذي نزل عليه .

وليتهم يسمرون عند البيت بالخير إنما بهُجر ، والهُجْر هو فُحْش الكلام في محمد صلى الله عليه وسلم وفي القرآن .

فأمر هؤلاء عجيب : كيف يفعلون هذا وهم في رحاب بيت الله الذي جعل لهم السيادة والمنزلة؟ كيف يخوضون في رسول الله الذي جاء ليطهر هذا البيت من الأصنام ورجسها؟ إنه سوء أدب مع الله ، ومع رسوله ، ومع القرآن ، يصدق فيه قول الشاعر :

أُعلِّمهُ الرماية كُلَّ يوْمٍ ... فَلَمّا اشْتَدَّ سَاعِدُه رَمَانِي

وَكَمْ علّمتُه نَظْمَ القَوافِي ... فَلَمَّا قَالَ قَافِية هَجَانِي

لقد استكبر هؤلاء على الأمة كلها بالبيت ، ومع ذلك ما حفظوا حُرْمته ، وجعلوه مكاناً للسَّمَر وللهُجْر وللسَّفَه وللطيْش ، ولكل مَا لا يليق به ، فالقرآن عندهم أساطير الأولين ، ومحمد عندهم ساحر وكاهن وَشاعر ومجنون . . وهكذا .

والحق – سبحانه وتعالى – يُنبِّهكم إلى أن ضروريات حياتكم هِبةٌ منه سبحانه وتفضُّل ، فحينما جاءكم أبرهة ليهدم هذا البيت العتيق ، وينقل هذه العظمة وهذه القداسة إلى الحبشة ، ولم يكن لكم طاقة لردِّه ولا قدرةَ على حماية البيت ، فلو هدمه لضاعتْ هيبتكم وسيادتكم بين القبائل ، ولتجرأوا عليكم كما تجرأوا على غيركم ، لكن حمى الله بيته ، ودافع عن حرماته ، حتى إن الفيل نفسه وعى هذا الدرس ، ووقف مكانه لا يتحرك نحو البيت خاصة ، ويوجهونه في أي ناحية أخرى فيسير .

ويُرْوَى أن أحدهم قال للفيل يخاطبه : ابْرك محمود وارجع راشداً – يعني : انفد بجلدك؛ لأنك في بلد الله الحرام ، وكما قال الشاعر :

حُبِسَ الفِيلُ بالمغَمَّس حَتَّى ... صَارَ يحبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورُ

وهكذا ردّهم الله مقهورين مدحورين ، وحفظ لكم البيت ، وأبقى لكم السيادة .

لذلك لاحظ الانتقال من سورة الفيل إلى سورة قريش ، يقول تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } [الفيل : 1 – 5] يعني : مثل التبن والفُتَات الذي تذروه الرياح .

ثم يقول في أول قريش : { لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ } [قريش : 1] يعني ما حَلَّ بأصحاب الفيل ، فاللام في (لإِيلاَف) لام التعليل ، يعني : حَلَّ ما حَلَّ بأصحاب الفيل لتألف قريش ما اعتادته من رحلة الشتاء والصيف { إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف . . } [قريش : 2] وما دام أن الله تعالى قد حماكم وحمى لكم البيت ، وحفظ لكم السيادة كان ينبغي عليكم أنْ تعبدوه وحده لا شريك له { فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 3 – 4] .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ القول أَمْ جَآءَهُمْ مَّا لَمْ يَأْتِ . . } .

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69)

في هذه الآية والآيات بعدها يريد – سبحانه وتعالى – أن يُوبّخهم بعدة أمور واحد بعد واحد بعد الآخر .

أولها : { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ القول . . } [المؤمنون : 68] فالاستفهام هنا للتوبيخ وللتقريع : ماذا جرى لهؤلاء؟ أفلم يعقلوا القول الذي جاءهم في القرآن ، وهم أمة الفصاحة والبلاغة والبيان ، وأمة القول بكل فنونه حتى أقاموا له المواسم والمعارض وعلَّقوه على الجدار؟

لذلك لا يُعقل ألاَّ تفهموا القرآن ، وقد جاءكم بأسلوب على مستوى أعلى من البلاغة والفصاحة ، لا بُدَّ أنكم فهمتموه ووعيْتُم ما فيه ، بدليل قولكم : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .

وهكذا الكذاب يسرقه طبعه ، وينمّ منطقه عما في ضميره ، فاعتراضكم ليس على القرآن إنما على محمد؛ لأنه فقير من أوسط القوم ، فالمسألة – إذن – منازعة سيادة وسلطة زمنية ، لكن ألم يَدْرِ هؤلاء أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما جاء ليسلبهم سلطتهم ، أو يعلو هو عليهم ، إنما جاء ليحكمهم بمنهج الله ، ويتحمل هو الأذى والتعب والمشقة في سبيل راحتهم وسعادتهم؟

لقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم ليأخذ الحكم ويحمل منهج الله تكليفاً لا تشريفاً ، بدليل أنه عاش في مستوى أقلّ منكم ، فلا ترى رسول الله إلا أقلهم طعاماً وأقلهم شراباً ، أقلهم لباساً وأثاثاً ، حتى أقاربه كانوا فقراء ، ومع ذلك حرَّم عليهم الزكاة التي أباحها لعامة المسلمين الفقراء ، كذلك يرث الناس وهم لا يرثون .

وبعد ذلك كله تقولون : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] يبدو أنكم أَلِفْتم العبودية للعظماء وللجبابرة ، أَلِفتم العبودية لغير الله ، وعَزَّ عليكم أن يحرركم الله من هذه العبودية على يد رجل منكسر فقير منكم ، جاء ليصلحكم ويخرجكم من العبودية للمخلوق إلى العبودية للخالق عز وجل .

ألم يقُلْ أحد رؤوس الكفر عن القرآن : « والله إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلى عليه » .

إذن : { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ القول . . } [المؤمنون : 68] توبيخ ، لأنهم فهموا القرآن ، لكن حسدوا محمداً صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليه ، وأن ينال دونهم هذه المكانة ، كما قال سبحانه : { أَمْ يَحْسُدُونَ الناس على مَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ . . } [النساء : 54] .

الأمر الثاني : { أَمْ جَآءَهُمْ مَّا لَمْ يَأْتِ آبَآءَهُمُ الأولين } [المؤمنون : 68] يعني : جاءهم أمر غريب لا عهدَ لهم به ، وهو أن يأتي رسول من عند الله ، وهذه المسألة معروفة لهم ، فمنهم

إبراهيم عليه السلام ، ومنهم إسماعيل وهم مؤمنون بهما ، إذن : ليست مسألة عجيبة ، بل يعرفونها جيداً ، لكن ما منعهم في الأولى منعهم في هذه ، إنه الحسد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك يقول تعالى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله . . }

[الزخرف : 87] .

الأمر الثالث : { أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ } [المؤمنون : 69] .

يعني : أنزَلَ عليهم رسولٌ من السماء لا يعرفون سيرته وخُلقه ونسبه ومسلكه قبل أنْ يُبعث؟ إنهم يعرفونه جيداً ، وقبل بعثته سَمَّوْه « الصادق الأمين » وارتضَوْا حكومته بينهم في مسألة الحجر الأسود ، وكانوا يأتمنونه على ودائعهم ونفائس أموالهم ، ولم يجربوا عليه كذباً أوخيانة أو سَقْطة من سقطات الجاهلية .

وقد شرحت هذه المسألة في قول الله تعالى : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . } [التوبة : 128] يعني : من جنسكم ، ومن نوعكم ، ومن قبيلتكم ، ليس غريباً عنكم وهو معروف لكم : سلوكه وسيرته وخُلقه ، وإذا لم تُجرِّبوا عليه الكذب مع الخَلْق ، أتتصورون منه أنْ يكذب على الخالق؟

وهل رسول الله في أول بعثته لَمَّا أخبر الناس أنه رسول الله جاء القرآن ليحمل الناس على الإيمان به؟ لا ، إنما جاء ليتحدى مَنْ لم يؤمن ، أما مَنْ آمن بداية ، بمجرد أنْ قال محمد : أنا رسول الله قال : صدقت ، وأنه لم يكذب أبداً؛ لذلك كان المقياس عند الصحابة أن يقول رسول الله ، فإنْ قال فالمسألة منتهية لأنه صادق لا يشكّ أحد منهم في صِدْقه .

لذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما قال أبو بكر في مسالة الإسراء والمعراج : إنْ كان قال فقد صدق ، يحملها رسول الله تقديراً لأبي بكر ويقول : « كنت أنا وأبو بكر في الجاهلية كفرسَيْ رهان » يعني : في الخُلُق الطيب والسلوك السَّويّ « فسبقتُه للنبوة فاتبعني ، ولو سبقني هو لاتبعتُه » .

« ولما نزل جبريل – عليه السلام – على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الوحي فأجهده ، فذهب إلى السيدة خديجة – رضي الله عنها – وحكى لها ما حدث له كأنه يستفهم منها عَمَّا حدث ولم يخبرها أنه رسول من عند الله ، ومع ذلك أخذته إلى ورقة بن نوفل ، وكان على علم بالكتب السابقة ، فلما سمع ورقة بن نوفل ما حدث قال : إنه الناموس الذي كان ينزل على موسى وليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومك ، فقال صلى الله عليه وسلم : » أَوَمُخرِجِيّ هم؟ « قال : » ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عُودِي ، وإنْ يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً « .

ومع ذلك يظل رسول الله صلى الله عليه وسلم خائفاً قلقاً أن يكون هذا شيئاً من الشيطان ،

فتُطمئِنه السيدة خديجة ، فهذا لا يعقل مع رسول الله ، لذلك تقول له : » إنك لتصلُ الرحم ، وتُكسِب المعدوم ، وتحمل الكَلَّ ، وتعين على نوائب الدهر ، والله لن يخذلك الله أبداً « .

ومن هنا أعتبروا السيدة خديجة أول مجتهدة في الإسلام؛ لأنها اجتهدتْ واستنبطتْ من مقدمات رسول الله قبل البعثة دليلاً على صِدْقه بعد البعثة؛ لذلك كانت أول مَنْ سُمِّيت بأم المؤمنين ، حتى قال بعض العارفين : خديجة أم المؤمنين بما فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه في هذه السِّن كان في حاجة إلى أم أكثر من حاجته إلى عروس صغيرة تُدلِّله ، وقد قامت خديجة – رضي الله عنها – فعلاً بدور الأم لرسول الله فاحتضنته ، وطمأنته ووقفت إلى جواره في أشدِّ الأوقات وأحرجها .

كما نلحظ في الآية : { أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ . . } [المؤمنون : 69] فأضاف الرسول إليهم يعني : رسول لهم ، أما في الإضافة إلى الله تعالى : رسول الله ، فالمعنى رسول منه ، وهكذا يختلف المعنى باختلاف الإضافة .

أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70)

والمسألة الرابعة في توبيخ الله لهم : { أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ . . } [المؤمنون : 70] يعني : جنون ، والجنون أنْ تتعطل الآلة العقلية التي تزن الحركات على وفق النفع والضر ، فتفعل الخير النافع ، وتترك الشر الضارّ . ولننظر : أيّ خصلة من خصال الجنون في محمد صلى الله عليه وسلم .

ودَعْكَ من قضية الدين والإله إنما خُذْ خُلقه ، والخُلق أمر يتفق عليه الجميع ويحمدونه ، حتى وإنْ كانوا ضد صفته ، فالكذاب يحب الصادق ، ويعترف أن الصدق شرف وكرامة ، والبخيل يحب الكريم ، والغضوب يحب الحليم ، أَلاَ ترى الكاذب يزاول كذبه على الناس ، لكن لا يحب مَنْ يكذب عليه؟

أَلاَ ترى شاهد الزور ينقذ غيره بشهادته ، ومع ذلك يسقط من نظره ويحتقره ، حتى إن أهل الحكمة ليقولون : إن شاهد الزور ترتفع رأسك على الخصم بشهادته ، وتدوس قدمك على كرامته ، ومَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعنْتَه على أمره .

إذن : فالأخلاق مقاييسها واحدة ، فقيسوا محمداً بأخلاقه ، لا بالدين والرسالة التي جاء بها ، انظروا إلى خُلقه فيكم ، ولن يستطيع واحد منكم أنْ يتهمه في خُلقه بشيء ، وما دام لا يُتَّهم في خُلقه فلا يُتهم كذلك في عقله؛ لأن العقل هو ميزان الخُلق وأساسه .

لذلك يقول ربه – عز وجل – في حقِّه : { ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : 1 – 4] فخلُقك العظيم أكبر دليل على أنك لستَ مجنوناً .

إذن : محمد بريء من هذه التهمة ، والمسألة كلها كما قال تعالى : { بَلْ جَآءَهُمْ بالحق . . } [

المؤمنون : 70] فهذا عيبه في نظرهم؛ لأن الحق يغيظ أهل الباطل المنتفعين منه ، والبعض يرى الحق في الخير الذي يأتيه ، فإنْ كان في شيء لا ينتفع منه فهو شَرٌّ؛ لذلك إنْ أردتَ أنْ تحكم على خَصْلة فاحكم عليها وهي عليك ، لا وهي لك ، فمثلاً أن تكره الكاذب سواء كذب لك أو كذب عليك ، إذن : فخُذْ المسائل على أنها لك وعليك .

والحق – سبحانه وتعالى – حينما قيّد حركتك في النظر إلى محارم الآخرين ، لا تتبرم ولا تقُلْ : منعني متعة النظر . . الخ ، لكن انظر إلى أنه قيّد عينيك وأنت واحد ، وقيَّد عيون الآخرين عن محارمك وهم كثيرون .

ويقول تعالى بعدها : { وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } [المؤمنون : 70] وطبيعي أن يكره أهل الباطل الذين استشرى ظلمهم وطغيانهم ، يكرهون الحق الذي جاء ليعدل الميزان ، ويُقوِّم المعْوج في حركة الحياة ، وكراهية أهل الباطل لرسول الله كان ينبغي أن تكون معيار تصديق له لا تكذيب به ، ينبغي أن نقول : طالما أن أهل الباطل يكرهون هذا فلا بُدَّ أنه الحق وإلاّ ما كرهوه .

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71)

إذن : فالمسائل لا تسير على هَوَى المخلوق ، إنما على مرادات الخالق؛ لأن الخالق سبحانه هو صانع هذا الكون ، وكلُّ صانع يغَارُ على صَنْعته ، وهذا مُشَاهد حتى في صنعة البشر ، ولك أنْ تتصوّر ماذا يحدث لو أفسدتَ على صانعٍ ما صنعَه .

وعدالة الأشياء أن تسير على وَفْق مرادات الصانع ، لا هوى المصنوع؛ لأن الأهواء تملكها الأغيار ، فالإنسان لو سار في حركة حياته على وَفْق هواه لأخذ مَا ليس له ، ولَقبل الرشوة ، ومال إلى الفِسْق والانحراف؛ لأنه في الظاهر يرى أنه منتفع بهذا ولا ينظر العاقبة والمحصلة النهائية ، لقد نظر إلى متعة زائلة موقوته ، ونسي تبعة ثقيلة لن يقدر عليها فيما بعد .

لذلك يقول الحق سبحانه : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض وَمَن فِيهِنَّ . . } [المؤمنون : 71] ولك أن تقول : نعم ، اتباع الأهواء يُفسِد الأرض ، ويُفسِد حركة الحياة فيها ، لكن كيف يُفسِد السماء؟ وهل لأحد قدرة عليها؟

ونقول : ألم يكُنْ من أمنيات هؤلاء : { وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلاَلَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً . . } [الإسراء : 90 – 92] .

إذن : من أهوائهم أنْ تتهدّم السماء ، ولو حتى على رؤوسهم ، وأي فساد بعد هذا ، وهكذا لو اتبعتَ أهواءهم لفسدَتْ السموات والأرض ، ليس هذا وفقط بل { وَمَن فِيهِنَّ . . } [المؤمنون : 71] حيث سيتعدّى فسادهم ليشمل كل ما في الوجود .

لذلك يقيد النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأهواء في قوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » لأنه صلى الله عليه وسلم : { وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى } [النجم : 3 – 4] .

وقد توقف بعض المستشرقين مُعترِضاً على هذه الآية { وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى } [النجم : 3] يقولون : يعني كلامه كله صحيح ، فلماذا يُعدِّل له ربه بعض الأحكام؟ ومعنى ذلك أن الحكم المعدّل حين نطق به كان ينطق عن هوى .

ولو فهم هؤلاء معنى الهوى ما كان منهم هذا الاعتراض ، فالهوَى أن تعرف الحق ، لكن هواك يصرفك عنه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكُنْ يعرف في هذه المسائل حُكْماً وانصرف عنه ، إنما نطق وحكم على مقتضى ما فهم في أمر لم ينزل فيه من الله شيء ، ثم نزل الحكم من الله ليُعدِّل اجتهاد رسوله .

إذن : لم يكُنْ لرسول الله هَوَىً ينطق بمقتضاه ، وفي تعديل الحق سبحانه لرسوله ، وتبليغ الرسول لأمته بهذا التعديل أكبر دليل على صِدْقه صلى الله عليه وسلم وأمانته في البلاغ عن ربه ، وإلاَّ فلم يكُنْ أحد ليعلم هذا التعديل ، لو أخفاه رسول الله تعصّباً لنفسه ، أو لدفْع الخطأ عنه .

ومن ذلك قوله تعالى : { ياأيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ . . } [التحريم : 1] ويقول سبحانه : { عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . } [التوبة : 43] .

وكان بوسع رسول الله أن يكتم هذه الآيات التي تعاتبه وتُعَدُّ مأخذاً عليه ، لكنه صلى الله عليه وسلم كان أميناً يقول ما له وما عليه ، لذلك يقول عن ربه : { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين } [الحاقة : 44 – 46] .

ثم يقول تعالى : { بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ } [المؤمنون : 71] و (بل) تفيد الإضراب عن الكلام السابق ، وإثبات كلام جديد بعدها ، والذكْر هنا يعني : الشرف والصِّيت والمكانة العالية ، كما جاء في قوله تعالى عن القرآن : { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ . . } [الزخرف : 44] .

وقوله تعالى : { لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [الأنبياء : 10] فكان يجب عليهم أن يحتضنوا هذا القرآن ، ويرفعوه فوق رؤوسهم ، ففيه مجدهم وشرفهم وعِزَّتهم ، والعرب بدون القرآن لا ذِكْرَ لهم ، فقد كانوا أمة أمية تعيش على الترحال والتنقل ، ولا تستقر إلا على منابع الماء ومواضع الكلأ ، كانوا بَدْواً تنتشر فيما بينهم الحروب والغارات وقَطْع الطريق ، كان الواحد منهم يسرق ليُكرم ضيفه بما سرق .

وهذه من الأمور العجيبة في عادات العرب في الجاهلية ، فلم يكن لديهم منهج يحكم حياتهم ، عجيب أنْ ترى حب الغارة والاعتداء مع الشهامة والكرام في طبيعة واحدة ، فهو يفعل ما يعِنُّ

له ، وما يخطر بباله ، فالمسألة ليست محكومة عندهم بقانون ، حتى قال فيهم الشاعر :

لا تمدحَنَّ ابْنَ عبَّادٍ وإنْ هطلَتْ ... كَفَّاهُ بالجُود حتَّى أشبَه الدِّيَمَا

فَإنَّها خطرَاتٌ من وَسَاوِسِهِ ... يُعْطي ويمنَع لاَ بُخْلاً ولاَ كرَمَا

ومن أشهر قصائد الشعر العربي في الكرم هذه القصيدة التي تأصَّل فيها هذا الخُلق حتى عند الأطفال ، وحتى أن الأب يهِمُّ بذبح ولده للضيف ، لأنه لم يجد ما يذبحه لِقرَاه .

ويقول فيها الشاعر :

وَطَاوٍ ثَلاثاً عَاصِبِ البطن مُرْمِلٍ ... ببيداءَ لم يَعْرف بها ساكنٌ رَسْما

أَخِي جَفْوةٍ فيه من الأُنْسِ وَحْشةٌ ... يرى البُؤْس فِيَها مِنْ شراسته نُعْمي

رَأَى شبحاً وِسْط الظّلام فَرَاعَه ... فَلما رأَى ضَيْفاً تشمَّر واهْتما

وقَالَ هَيَّا ربّاه ضَيْف ولا قِرَى!! ... بحقّك لاَ تحرمْه تالليلةَ اللّحْمَا

وأفرد في شِعْب عَجُوزاً إزَاءَهَا ... ثَلاثَة أَشْباحٍ تَخَالهموا بُهْمَا

حُفاةً عُراةً مَا اغتذَوْا خُبْز مَلَّة ... ولاَ عَرفُوا للبُرِّ مُذْ خُلِقوا طعْما

فَقالَ ابنُه لَمَّا رآهُ بحيْرةٍ ... أيَا أبْتِ اذْبَحْني ويسِّر لَهُم طُعْما

ولاَ تَعتذِرْ بالعُدم على الذِي طَرَا ... يظنُّ لَنَا مَالاً فيُسِعُنا ذمّا

فروَّى قليلاً ثُمَّ أحجمَ بُرْهةً ... وَإنْ هُوَ لم يذبح فَتَاهُ فَقَد همَّا

فبَيْنَا هُمَا عَنَّتْ على البُعْد عَانَةٌ ... قَد انتظمتْ من خَلْف مِسْحلها نَظْما

عطَاشاً تريد الماءَ فانْسَابَ نحوهَا ... علَى أنَّه مِنْها إلىَ دَمِها أَظْما

فَأَمهلَها حتَّى تروَّتْ عِطاشُها ... وأرسَل فيها من كِنَانتِه سَهمْا

فَخَرَّت نَحُوصٌ ذَات جحش قَدْ ... اكتنزَتْ لَحْماً وقد طُبِّقَتْ شحْما

فَيَا بشْرَهُ إذْ جرَّها نَحْو قومهِ ... ويَا بشْرهُم لما رأوا كَلْمها يَدْمَى

وباتَ أبُوهم من بَشَاشتِه أباً ... لَضَيْفِهموا والأمم مِنْ بِشْرها أُمَّا

لقد تأصلتْ خَصْلة الكرم في العربي ، حتى في الأطفال الصغار ، فهو وإنْ كان فقيراً لكن لا يحب أن يُعرف عنه الفقر ، يحب أن يظهر في صورة الغني الكريم المعطاء ، وإنْ ناقض ذلك صفات أخرى ذميمة فيه .

والشاهد أنهم جماعة تناقضتْ خصالهم ، وقد عاشوا في أمية تامة فلم يعالجوا حضارة ، وهذه حُسِبت لهم بعد ظهور الإسلام وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم من بينهم ، فكيف لمثل هؤلاء أنْ يأتوا بهذه المعاني والأساليب العالية التي تحكم العالم كله؟ ولو كانوا أهلَ علم وحضارة لقالوا عنهم وعن الإسلام : إنه قفزة حضارية .

ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قارئاً لقالوا : قرأ لفلان وفلان ، كما حكى عنهم الحق

سبحانه وتعالى : { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . } [النحل : 103] .
إذن : فذِكْر العرب وشرفهم ومجدهم وكرامتهم في القرآن ، ومع ذلك لم يعملوا حتى لمصلحتهم ، ولم يهتموا بهذا القرآن ، إنما أعرضوا عنه { فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ } [المؤمنون : 71] .
أي : عن القرآن ، وهذا دليل أنهم كانوا مغفلين ، لا يعرفون حتى مصلحتهم .
ثم يقول الحق سبحانه : { أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ . . } .

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72)

(الخَرْج) : ما يخرج منك طواعية ، أما الخراج فهو ما يخرج منك رغماً عنك ، والزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى ، فالخراج أبلغ من الخَرْج . والمراد بقوله تعالى : { أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ . . } [المؤمنون : 72] إنْ كنتَ تريد خَرْجاً فلا تأخذه من أيديهم ، إنما خُذْه من ربك ، فما عندهم ليس خَرْجاً بل خراج { فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ . . } [المؤمنون : 72] .
فلا تأخذ الرزق إلا من يد الخير والبركة؛ لأن الحق سبحانه لا يمنُّ على خَلْقه برزق يرزقهم به ، فهو سبحانه قد استدعاهم إلى الحياة؛ لذلك تكفّل سبحانه بأرزاقهم ، كما لو دعوتَ صديقاً إلى طعام فإنك تُعِدُّ له ما يكفي عشرة ، فما بالك حينما يُعِدُّ لك ربك عز وجل؟
ثم يُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله تعالى { وَهُوَ خَيْرُ الرازقين } [المؤمنون : 72] وهذه أحدثتْ إشكالاً عند البعض؛ لأن الحق سبحانه جعل لخَلْقه شراكة في صفة الرزق ، فغيره سبحانه يرزق أيضاً ، لكن هو خير الرازقين؛ لأنه يرزق الخَلْق بأصول الأشياء التي يرزقون منها غيرهم ، فإنْ كنتَ ترزق غيرك مثلاً طعاماً فهو سبحانه أصل هذا الطعام ومصدره .
هو سبحانه خالق التربة ، وخالق الماء ، وخالق الهواء ، وخالق البذرة ، وما عليك إلا أنْ أعملتَ عقلك ، واستخدمتَ الطاقات التي منحك الله إياها ، فأخرجتَ هذا الطعام ، فلو أنك جِئْتَ لأهلك بحاجيات المطبخ ولوازم المعيشة طوال الشهر من دقيق وسمن وأرز وسكر . . إلخ وقامت زوجتُك وقامت زوجتُك بإعداد الطعام أتقول : إن الزوجة هي التي جاءت بالطعام؟
لذلك يقول العلماء وأهل المعرفة : نَزِّهوا ألسنتكم عن قول : فلان رازق ، ودَعُوها لقول الله تعالى؛ لأنه سبحانه هو خالق الرزق ، وواجد أصوله ، وما أنت إلا مُنَاول للغير .
وتلحظ أنه تعالى أضاف الخَراج إلى الربوبية التي تفيد الرعاية والعناية والتربية ، فما دام الخراجُ خراجَ ربك يا محمد ، فهو خراج كثير وعطاء لا ينفد .

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73)

الصراط المستقيم : الطريق المعتدل الذي لا عوجَ فيه ولا أمتاً ، فكيف إذن يتأبون عليك ويقفون في طريقك وأنت تدعوهم إلى الصراط المستقيم؟ وإن انتفع بالصراط المعوج واحد فسوف ينتفع بالصراط المستقيم الملايين .

ومن ذلك ما سبق أن أوضحناه من أنه يجب عليك أن تنظر إلى ما أعطاه لك التشريع قبل أنْ تنظر إلى ما أخذه منك ، فالشرع حين يأخذ منك وأنت غني يعطيك وأنت فقير ، ويأمرك برعاية اليتيم ليرعى أولادك من بعدك إنْ تركتَهم وهم صغار .

فالشرع – إذن – يُؤمن حياتك ويجعلك تستقبل مقادير الله بالرضا؛ لأنك في مجتمع إيماني لن يتخلى عنك إن افتقرت ، ولن يترك أولادك إنْ تيتَّموا ، فالمجتمع الإيماني إنْ مات فيه الأب كان الجميع لليتيم آباء . أما إنْ ضاع اليتيم في مجتمع الإيمان فإن ذلك يفتح الباب للسخط على قدر الله ، ويُغري ضعاف الإيمان أنْ يقولوا : ما الحكمة في أن يأخذ أباهم ويتركهم عالة لا يتكفل بهم أحد؟

وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (74)

{ الصراط . . } [المؤمنون : 74] هو الطريق المستقيم الذي يُؤدِّي إلى الغاية بأقلّ مجهود ، وفي أقل وقت ويوصلك إلى أفضل غاية . والطريق يأخذ حظه من العناية والاهتمام بقدر الغاية الموصِّل إليها ، فالطريق من القاهرة إلى الإسكندرية غير الطريق بين القرى والنُّجوع .

ومعنى : { لَنَاكِبُونَ } [المؤمنون : 74] يعني : منحرفون عن الطريق ، ولهم حَظٌّ في الاعوجاج وعدم الاستقامة؛ لذلك مَنْ يريد الصدق (تعال دوغري) يعني : من الطريق الذي لا اعوجاجَ فيه ولا مراوغةَ .

لكن ، ما الذي جعلهم يتنكّبون الطريق المستقيم الذي يُنظِّم لهم حركة الحياة ، ويجعلها تتساند لا تتعاند ، ويعود مجهود الفرد على الباقين؟ لماذا يحرِمون أنفسهم من مزايا هذا الطريق؟

قالوا : لأنهم مكذبون بالآخرة ، ولو لم يكونوا مكذبين بالآخرة لآمنوا واتبعوا منهج الله؛ لأنهم سيئولون إلى الله أيلولةً ، تعطي المحسن جزاءه وتعطي المسيء جزاءه . فالذي أفسد هؤلاء أنهم اتبعوا أهواءهم ، وظنوا أن الدنيا هي الغاية وهي نهاية المطاف ، وغفلوا عن الآخرة ، وأنها دار النعيم الحقيقي الذي لا يفوتُك ولا تفوته .

كما قال عنها الحق سبحانه وتعالى : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] يعني : الحياة الحقيقية .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَانِهِمْ . . } .

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75)

يعني : لو حدث هذا لعادوا إلى ما كانوا عليه ، كما قال سبحانه في موضع آخر : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . } [يونس : 12] .

وليْتَه اكتفى عند هذا الحدِّ ، إنما يتعدّى هذا ، كما جاء في قوله تعالى : { وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً . . } [الزمر : 8] يقول كما قال قارون : { إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِي . . } [القصص : 78]

يعني : هذا بمجهودي وتعبي ، وقد كلمت فلاناً ، وفعلت كذا وكذا .

لذلك كان طبيعياً أن يقول له ربه : ما دُمْتَ قد أوتيتَهُ على علم عندك ، فاحفظه بعلم عندك قال تعالى : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض . . } [القصص : 81] .

فأين الآن عِلْمك؟ وأيُّ علم هذا الذي لا يستطيع أن يحتفظ بما أتى به؟ ومعلوم أن استنباط الشيء أصعب من حفْظه وصيانته .

ومعنى { لَّلَجُّواْ . . } [المؤمنون : 75] تمادوا { فِي طُغْيَانِهِمْ . . } [المؤمنون : 75]

والطغيان : مجاوزة الحدِّ؛ لأن الله تعالى جعل لكل شيء في الوجود حَدَّاً مرسوماً لا ينقص ولا يزيد ، فإن اتبعتَ هذا الحدّ الذي رسمه الله لك استقمتَ واستقامتْ حركة حياتك بلا منازع ، ولو طغى الشيء أفسد حركة الحياة ، حتى لو كان الماء الذي جعل الله منه كل شيء حيٍّ ، لو طغى يُغرق ويُدمّر بعد أنْ كان سر الحياة حال اعتداله . ومنه قوله سبحانه : { إِنَّا لَمَّا طَغَا المآء حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية } [الحاقة : 11] .

ويقال لمن جاوز الحدَّ : طاغية بتاء التأنيث الدالة على المبالغة ، فإنْ تجاوز هذه أيضاً نقول : طاغوت .

ثم تأتي نتيجة التمادي في الطغيان { يَعْمَهُونَ } [المؤمنون : 75] يعني : يتحيرون ويَعْمَوْن عن الرُّشْد والصواب ، فلا يُميّزون بين خير وشر .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بالعذاب فَمَا استكانوا لِرَبِّهِمْ . . } .

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76)

استكان فلان لا تقال إلا لِمَنْ كان مُتحركاً حركةً شريرة ، ثم هدأ وسكن ، نقول : فلان (انكَنّ) أو استكان وأصلها (كوْن) فالمعنى : طلب وجوداً جديداً غير الوجود الذي كان عليه ، أو حالاً غير الحال الذي كان عليه أولاً ، فقبل أنْ يستكين ويخضع كان لا بُدَّ مُتمرّداً على ربه .

والوجود نوعان : وجود أولي مطلق ، ووجود ثَانٍ بعد الوجود الأولي ، كما نقول مثلاً : وُلِد زيد يعني وُجِد زيد وجوداً أولياً ، إنما على أيّ هيئة وُجد؟ جميلاً ، قبيحاً . . هذه تحتاج إلى وجود آخر ، تقول : كان زيدٌ هكذا فعل وفاعل لا يحتاج إلى إخبار آخر لأنها للوجود الأول ، لكن حين نقول : كان زيد مجتهداً ، فهذا هو الوجود الثاني وهو الاجتهاد ، وهو وجود ناتج عن

الوجود الأول .

فكان الأولى هي كان التامة التي وردتْ في قوله تعالى : { وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ . . } [البقرة : 280] أي : وُجِد ذو عُسْرة ، ولا تحتاج في هذه الحالة إلى خبر .

ونقول : تمنّى فلان على الله أنْ يُوجَد له ولد ، فكان محمد ، يعني : وُجِد . أما كان الناقصة فتحتاج إلى خبر؛ لأن (كان) فِعْل يدل على زمان الماضي ، والفعل لا بُدَّ أنْ يدل على زمن وحدث؛ لذلك لا بُدَّ لها من الخبر الذي يعطي الحدث تقول : كان زيد مجتهداً ، فجاء الخبر ليكمل الفعل الناقص ، فكأنك قلتَ : زيد مجتهد .

ومعنى { فَمَا استكانوا لِرَبِّهِمْ . . } [المؤمنون : 76] أن خضوعهم واستكانتهم لم تكُنْ لأنفسهم ولا للناس ، إنما استكانة لله بأخْذ أوامره بمنتهى الخضوع وبمنتهى الطاعة ، لكنهم ما فعلوا وما استكانوا ، لا في حال الرحمة وكَشْف الضر ، ولا في حال الأَخْذ والعذاب ، وكان عليهم أن يعلموا أن الله غيَّر حاله معهم ، ومقتضى ذلك أن يُغيِّروا هم أيضاً حالهم مع الله ، فيستكينوا لربهم ويخضعوا لأوامره .

{ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ } [المؤمنون : 76] الضراعة : هي الدعاء والذلّة والخضوع لمن أخذ بيدك في شيء ، كما جاء في قوله تعالى : { فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ . . } [الأنعام : 43] يعني : لجئوا إلى الله وتوجّهوا إليه بالدعاء والاستغاثة .

حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77)

لقد فشلتْ معهم كل المحاولات ، فما أجدَتْ معهم الرحمة واستمروا على غَلْوائهم ، وما أجدى معهم العذاب وما استكانوا بعد أن أخذهم الله به ، إذن : لم يَبْقَ لهم حجة ولا أملٌ في النجاة ، ففتح الله عليهم { بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ . . } [المؤمنون : 77] يعني : أصابتهم محنة كأنهم من وراء باب مُغْلق تفاجئهم { إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ } [المؤمنون : 77] آيسون من النجاة مُتحسِّرون على ما فاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَهُوَ الذي أَنْشَأَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة . . } .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (78)

الحق – سبحانه وتعالى – يقول : خلقتُ عبادي من عدم ، وأمددتهم بأقوات الحياة ومقوماتها من عدم ، ثم جعلتُ لهم منهجاً ينظم حركة حياتهم ويصُون بنيتهم ، لأن صاحب الصنعة أعلم بصنعته ، وأعلم بما يصلحها ، ويعرف غايتها التي خلقها من أجلها ، فالذي صنع الثلاجة مثلاً هل صنعها أولاً ثم قال لنا : انظروا في أيِّ شيء تفيدكم هذه الآلة؟ لا ، إنما قبل أن يصنعها حدّد

مهمتها ، والغاية منها ، وكذلك خلق الله ، ولله المثل الأعلى .

والذي خلق وحَدَّد الغاية أعلم بقانون الصيانة الذي يحمي صنعته من الفساد ، ويجعلها تؤدي مهمتها على أكمل وجه ، فإنْ خالفت قانون الصيانة الذي وضعه لك ربك تفسد حياتك وتتعطّل عن أداء مهمتك التي خلقت لها ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له : { وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات : 56] .

لذلك أمركم إن اختلفتم في شيء أنْ تردوه إلى الله وإلى الرسول ، كما ترد الآلة إلى صانعها العالم بطبيعتها وبمواطن الخلل فيها ، ونستنبط من هذه المسألة : إذا رأيتَ خللاً في الكون أو فساداً في ناحية من نواحيه ، وإذا رأيت عورة من العورات قد ظهرتْ فاعلم أن حُكْماً لله قد عُطِّل .

فمثلاً إنْ رأيتَ فقيراً جائعاً عارياً فإما أنه قادر على العمل لكنه قعد عن السعي وخالف قوله تعالى : { فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النشور } [الملك : 15] أو : أن القادرين العاملين حرموه حقّه الذي جعله الله له في أموالهم ، وخالفوا قوله تعالى : { وفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لَّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذاريات : 19] .

لذلك ، فالحق – سبحانه وتعالى – يُجري على عباده من المقادير ما يحفظ لهم توازن الحياة ويسُدُّ حاجة المحتاجين ، كما نرى مثلاً أحد الأثرياء يترك بلده ، وينتقل إلى بلد آخر يضع فيها أمواله وثرواته ، وليس هناك لهذه النقلة إلا أنها خاطر سلَّطه الله عليه ليحفظ به توزيع المال في المجتمع ، ولو حسبتها لوجدتَ أن هذا المكان زادت فيه حصيلة الزكاة عن حاجة المحتاجين ، فانتقل إلى بلد آخر قلَّت فيه الأموال عن حاجة الفقراء والمحتاجين .

وبعد ذلك لم يتركك ربك ، بل عرض لك الآيات التي تلفتك إليه ، وتُحَنِّنك إلى التعرُّف عليه ، وهي إما آيات كونية عجيبة تدل على قدرة الله تعالى ، أو معجزات تثبت صِدْق الأنبياء في البلاغ عن الله؛ لأن الله تعالى لا يخاطب عباده كل واحد بمفرده ، إنما يرسل رسولاً ليُبلِّغهم ثم يُؤيِّده بالمعجزة الدالة على صِدْقه في البلاغ .

فحين تنظر في آيات الكون وتستدل بها على وجود خالق قادر لكنك لا تعرف مَنْ هو هذا الخالق يأتي الرسول ليقول لك : إنه الله ، وقد ضربنا لذلك مثلاً – ولله المثل الأعلى : هَبْ أن أحداً دَقَّ الباب ونحن جلوس بالداخل فما الذي يحدث؟ نتفق نحن جميعاً على أن طارقاً بالباب .

لكن مَنْ هو؟ لا أحد يعلم .

فالاتفاق هنا في التعقُّل ، وأن هناك قوةً خلف الباب تدقّه ، لكن مَنْ هو؟ وماذا يريد؟ لا بُدَّ لمعرفة هذه المسائل من بلاغ عن هذه القوة ، وإياك أنْ تقول بالظن : هذا فلان وأنا أقول هذا فلان ، إنما علينا أن ننتظر البلاغ منه لنعرف مَنْ هو ، وما عليك إلا أنْ تقول : مَنْ بالباب وسوف يخبرك هو عن نفسه ، وعن سبب مجيئه ، وماذا يريد . ثم بعد ذلك تأتي الآيات التي تحمل

منهج الله ، وتخبرك أنه يريد منك كذا وكذا .

الشاهد : أن هذه الآيات كلها تحتاج إلى وسائل لإدراكها ، تحتاج إلى سمع وبصر لنراها ونسمعها ، ثم تحتاج إلى عقل لنفكر فيها ونتأملها؛ لذلك يقول سبحانه : { وَهُوَ الذي أَنْشَأَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة . . } [المؤمنون : 78] .

السمع والبصر من الحواس التي سماها العلماء احتياطاً الحواس الخمس الظاهرة أي : أن هناك حواسَّ أخرى لم يكتشفوها ، وفعلاً اكتشفها العلم بعد ذلك كحاسة العضل التي تميز بها الثقل ، وحاسة البين التي تميز بها الغليظ من الرقيق في الثياب مثلاً ، فهذه الأشياء لا تستطيع التعرّف عليها بالحواسِّ الخمس المعروفة .

وعُمْدة الحواس : السمع والبصر؛ لأنه إذا جاءني رسول يُبلِّغني عن الله لا بُدَّ أن أسمع منه ، فإنْ كنتَ مؤمناً بإله فقد اكتفيتَ بحاسة السمع ، وإنْ كنتَ غير مؤمن تحتاج إلى بصر لتبصر به آياته الدالة على وجوده وقدرته ، وتستدل بالصَّنْعة على الصانع ، وبالخِلْقة على الخالق ، وتقف على ما في كوْن الله من الدقة والإحكام والهندسة والإبداع .

وهذه مهمة العقل بعد أن تحولت المسموعات والمرئيات إلى قضايا ومبادئ عقلية تحكم حياتك ، كما لو رأيتَ النار بعينك ثم لمستها بيدك فأحرقتك فتكوَّنت لديك قضية عقلية مُؤدّاها أن النار لها خاصية الإحراق فلا تلمسها بعد ذلك ، وهذه تراها حتى في الطفل الصغير حينما يعجبه قرن الشطة مثلاً فيقضمه فيشعر بحرارته وألمه .

فإن رآه بعد ذلك يقول (أوف) ، فهذه اللفظة بالنسبة للطفل قضية عقلية تكوَّنَتْ لديه نتيجة تجربة استقرتْ في فؤاده ، وأخذها مبدأً يسير عليه في كل حياته ، وهكذا من المحسّات ومن تجارب الحياة تتكوَّن لديك قضايا عقلية تستفيد بها فيما بعد .

إذن : من وسائل الإدراك تتكوَّن المبادئ والقضايا التي يأخذها العقل ، ويفاضل بينها حتى ينتهي إلى قضية ومبدأ يستقر في القلب ونُسمِّيها عقيدة يعني : شيء معقود عليه لا ينحلّ .

وحين تتأمل حديث القرآن عن الحواس تجده يُرتِّبها دائماً هذا الترتيب : السمع والبصر والفؤاد لأنها عُمْدة الحواس ، فالشمُّ مثلاً والتذوق واللمس لا نحتاج إليه إلا قليلاً ، أما السمع والبصر فعليهما تقوم مسألة الدعوة : السمع لسماع البلاغ ، والبصر لنرى آيات الله الدالة على قدرته تعالى .

وقد أثبت العلم الحديث هذا الترتيب للسمع والبصر والفؤاد مما يدلُّ على أنه ترتيب من خالق عن حكمة وعلم وقدرة ، بحيث لا يأتي واحد منها قبل الآخر ، كما أثبت علماء وظائف الأعضاء صِدْق هذا الترتيب ، فأوّل أداة تؤدي مهمتها في الإنسان هي الأذن ثم العين ، وتعمل من ثلاثة إلى عشرة أيام من الولادة ، ثم من السمع والبصر توجد القضايا التي يعمل فيها العقل .

إذن : فهذا ترتيب خَلْقي وتكويني . كما أن السمع وهو أول حاسّة تؤدي مهمتها في الإنسان هو أيضاً الإدراك الوحيد الذي يصاحب الإنسان في كل أطواره ، فالأذن تسمع مثلاً حتى في حالة النوم على خلاف العين؛ ذلك لأن بالسمع يتم الاستدعاء ، لذلك تظل تؤدي مهمتها حتى في حال النوم .

كما أن العين لا ترى في الظلام ولها غطاء طبيعي ومغاليق تحجب الرؤية ، وليست الأذن كذلك ، فالصوت إذا خرج تسمعه جميع الآذان ، أما المرئيّ فقد يوجد معك في نفس المكان ولا تراه وقد يراه غيرك ، إذن : فالمسموع واحد والمرائي متعددة ، لذلك قال سبحانه : { السمع والأبصار . . } [المؤمنون : 78] .

فليس لك خيار في السمع ، لكن لك خيار في الرؤية ، فالمبصرات تتعدد بتعدُّد الأبصار ، لكن السمع لا يتعدد بتعدُّد الأسماع .

لذلك من إعجازات البيان القرآني في قصة أهل الكهف أن الله تعالى ضرب على آذانهم في الكهف لينام وا ولا تزعجهم الأصوات في هذه الصحراء الدويّة ، ولو بقي لهم السمع كشأن الخَلْق جميعاً لما استقر لهم قَرَار طوال هذه الفترة الطويلة ، ولأفزعتهم الأصوات .

يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً } [الكهف : 11] .

كذلك من آيات الإعجاز في القرآن الكريم أن جميع الآيات التي ذكرتْ السمع والبصر ذكرتْه بهذا الترتيب : السمع والأبصار ، إلا في آية واحدة في موقف القيامة قالوا : { رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا . . } [السجدة : 12] .

فقدَّم البصر على السمع؛ لأن في القيامة تفجؤهم المرائي أولاً قبل أنْ تفجأهم الأصوات ، وهذه من مظاهر الدقة في الأداء القرآني المعجز .

وكأن الحق سبحانه يقول : لا عُذْر لك عندي فقد أعطيتُك سمعاً لتسمع البلاغ عني من الرسول ، وأعطيتُك عَيْناً لتلتفت إلى آيات الكون ، وأعطيتُك فؤاداً تفكر به ، وتنتهي إلى حصيلة إيمانية تدلُّك على وجود الخالق عز وجل .

إذن : ما أخذتُك على غِرَّة ، ولا خدعتُك في شيء ، إنما خلقتُك من عدم ، وأمددتُك من عُدم ، ورتبتُ لك منافذ الإدراك ترتيباً منطقياً تكوينياً ، فأيُّ عذر لك بعد ذلك . . وإياكم بعد هذا كله أنْ تشغلكم الأهواء ، وتصْرفكم عن البلاغ الذي جاءكم على لسان رسولنا .

والمتأمل في تركيب كل من الأذن والعين يجد فيهما آيات ومعجزات للخالق – عز وجل – ما يزال العلماء لم يصلوا رغم تقدُّم العلوم إلى أسرارها وكُنْهها .

ثم يقول سبحانه في ختام الآية : { قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ } [المؤمنون : 78] لأن هذه نِعَم وآلاء وآيات لله ، كان ينبغي أن تشكر حَقَّ الشكر .

البعض يقول في معنى { قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ } [المؤمنون : 78] أنه تعالى عبَّر عن عدم الشُّكْر بالقلة ، وهذا الفهم لا يستقيم هنا؛ لأن الله تعالى أثبت لعباده شكراً لكنه قليل ، وربك – عز وجل – يريد شكراً دائماً يصاحب كل نعمة ينعم بها عليك ، فساعة ترى الأعمى الذي حُرِم نعمة البصر يتخبَّط في الطريق تقول الحمد لله ، تقولها هكذا بالفطرة؛ لأنك تعيش وتتقلب في نعَم الله ، لكن لا تتذكرها إلا حين ترى مَنْ حُرِم منها .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تدوم لك النعمة فاعقلها بِذكْر الله المنعم قُلْ عند النعمة ، أو عند رؤية ما يعجبك في أهل أو مال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، أَلاّ ترى أن الله تعالى جعل الحسد لينبهنا : إنْ أردتَ صيانة النعمة فلا تنسَ المنعِمَ؛ لأنه وحده القادر على حِفْظها وصيانتها ، وجعلتَ حفظها إلى مَنْ صنعها . ولا يُصاب الإنسان في النعمة إلا إذا غفل عن المنعم وترك الشُّكْر عليها .

وأذكر أنه كان في قريتنا رجل من أهل الفهم عن الله ، وكان يملك ثلث فدان يزرعه المزروعات التقليدية ، وفي أحد الأعوام زرعه قطناً ، فجاءت عليه الدودة وكادت تهلكه ، فكلَّمه والدي في مسألة الدودة هذه فقال له : يا عم متولي لا تقلق فأنا أؤدي صيانتها يعني : أُخرِج منها الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَهُوَ الذي ذَرَأَكُمْ فِي الأرض . . } .

وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79)

{ ذَرَأَكُمْ . . } [المؤمنون : 79] بثكم ونشركم في أنحاء الأرض لتعمر كلها ، وتعجب حين ترى أناساً متشبثين بالجبال والصحراء القفر الجرداء ، ولا يرضون بها بديلاً ، ويتحملون في سبيل البقاء بها العَنَت والمشقة ، حتى إنك لتقول : لماذا لا يتركون هذا المكان إلى مكان خصب .

وقد رأينا مثل هؤلاء الذين صبروا على أقدار الله في بلادهم ، رأيناهم في اليمن بعد أن أغرقها سيل العرم ، وكانت تُسمَّى « اليمن السعيد » ورأيناهم في السعودية وفي الكويت ، وحكى لنا أهل هذه البلاد ما كانوا فيه من الضيق وقسوة الحياة ، ثم جاءتهم عاقبة صبرهم ، وجعل الله – سبحانه وتعالى – هذه الجبال وهذه الصحراوات أغنى بلاد الدنيا؛ لأنهم رَضُوا في الأولى بقضاء الله ، فأبدلهم بصبرهم على لأواء الصحراء نعيماً ، لو حُرِم منه المنعّمون في الدنيا لماتوا من البرد .

ذلك لأن الخالق – عز وجل – نثر خيراته في كل أنحاء الأرض بالتساوي ، فكل قطعة طولية من الأرض فيها من الخيرات مثل ما في القطعة الأخرى ، وفي يوم من الأيام كان أصحاب الزرع هم أصحاب المال وأصحاب السيادة ، ثم تغيرت هذه الصورة بظهور خَيْرات أخرى غير الزراعة ، فالخيرات – إذن – مطمورة في أنحاء الأرض لكن لها أوان تظهر فيه .

إذن : فبَثُّ الخليقة ونشْرُها في أنحاء الأرض له حكمة أرادها الخالق عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [المؤمنون : 79] يعني : لا تفهموا أنكم بنشركم في

الأرض وتفريقكم فيها أنكم تفلتون منا ، أو أننا لا نقدر على جمعكم مرة أخرى ، فكما نشرناكم لحكمة نجمعكم لحكمة لا يخرج من أيدينا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَهُوَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اختلاف . . } .

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80)

{ يُحْيِي وَيُمِيتُ . . } [المؤمنون : 80] فِعْلان لا بُدَّ أن ينشآ بعد وجود الحياة ووجود الموت ، فالخالق – عز وجل – يُوجِد الحياة أولاً ، ويوجد الموت ، ثم يجري حدثاً منهما على ما يريده .

والحياة سبقتْ الموت في كل الآيات ، إلا في آية واحدة في سورة تبارك : { الذي خَلَقَ الموت والحياة . . } [الملك : 2] وعِلَّة ذلك أن الله تعالى يعطي للإنسان بالحياة إرادةً تُنشِيء الحركة في كل أجهزته ، ولك أن تتأمل : ما الذي تفعله إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ تحريك يدك أو قدمك؟ إنها مجرد إرادة وتتحرك أعضاؤك دون أن تدري أو تُجهد نفسك للقيام بهذه الحركات ، ودون أن تباشر أي شيء .

إذن : بمجرد إرادتك تنفعل لك الجوارح وأنت مخلوق لربك ، فإذا كان المخلوق يفعل ما يريد بلا معالجة ، فكيف نستبعد هذا في حقِّه – سبحانه وتعالى – ونكذب أنه يقول للشيء : كُنْ فيكون ، مع أننا نفعل ما نريد بجوارحنا بمجرد الإرادة ، ودون أن نأمرها بشيء أو نقول شيئاً ، والله سبحانه وتعالى يقول للشيء : كُنْ فيكون ، وأنت تفعل دون أن تقول .

وقد قدَّم الحق سبحانه الموتَ في هذه الآية : { الذي خَلَقَ الموت والحياة . . } [الملك : 2] ؛ لأن الحياة ستُورث الإنسانَ غروراً في سيطرة إرادته على جوارحه فيطغى ، فأراد ربه – عز وجل – أن يُنبهه : تذكّر أنني أميتُ؛ ليستقبل الحياة ومعها نقيضها ، فيستقيم في حركة الحياة .

وصفة الخَلْق والإماتة صفات لله قديمة قبل أنْ يخلق شيئاً أو يميت شيئاً؛ لأنها صفات ثابتة لله قبل أنْ يباشر متعلقات هذه الصفات كما قلنا ، ولله المثل الأعلى : الشاعر حين يقول قصيدة قالها لأنه شاعر ولا نقول : إنه شاعر لأنه قال هذه القصيدة ، فلولا صفة الشعر فيه ما قال .

وكما أن الحياة مخلوقة ، فالموت كذلك مخلوق ، وقد يقول قائل : إذا أطلقتَ رصاصة على شخص أردَتْهُ قتيلاً فقد خلقتَ الموت .

نقول : الحمد لله أنك لم تدَّع الإحياء واكتفيتَ بالموت ، لكن فَرْق بين الموت والقتل ، القتل نَقْض للبِنْية يتبعه إزهاق للروح ، أما الموت فتخرج الروح أولاً دون نَقْض للبنية .

لذلك يقول سبحانه : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أَعْقَابِكُمْ . . } [آل عمران : 144] .

والنمرود الذي حَاجَّ إبراهيم – عليه السلام – في ربه أمر بقتل واحد وتَرْك الآخر ، وادَّعى أنه أحيا هذا ، وأمات هذا ، وكانت منه هذه الأعمال سفسطة لا معنى لها ، ولو كان على حَقٍّ لأمرَ

بإحياء هذا الذي قتله؛ لذلك قطع عليه إبراهيم– عليه السلام – هذا الطريق ونقله إلى مجال آخر لا يستطيع المراوغة فيه .

إذن : هَدْم البِنْية يتبعه خروج الروح؛ لأن للروح مواصفات خاصة ، بحيث لا تحل إلا في بنية سليمة ، وقد أوضحنا هذه المسألة – ولله المثل الأعلى – بلمبة الكهرباء ، فقوة الكهرباء كامنة في الإسلاك لا نرى نورها إلا وضعنا اللمبة مكانها ، ويكون لها مواصفات بحيث لا تضيء إلا إذا توفرتْ لها هذه الصفات ، فإنْ كُسِرَت ينطفيء نورها .

ثم يقول تعالى : { وَلَهُ اختلاف الليل والنهار . . } [المؤمنون : 80] الليل يحل بغياب الشمس وحلول الظُّلْمة التي تمنع رؤية الأشياء ، وقديماً كانوا يظنون أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من العين على المرئي ، ثم جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم ، فأثبت خطأ هذه النظرية ، وقرر أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من المرئيّ على العين فتراه ، بدليل أنك لا ترى الشيء إنْ كان في الظلام .

وظُلْمة الليل تنبهنا إلى أهمية الضوء الذي لا بُدَّ منه لنهتدي إلى حركة الحياة ، والإنسان يواجه خطورة إنْ سار في الظلام؛ لأنه إمّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، أو بأقوى منه فيؤلمه ويؤذيه .

إذن : لا بُدَّ من وجود النور لتتم به حركة الحياة والسَّعْي في مناكب الأرض ، وكذلك لا بُدَّ من الظُّلْمة التي تمنع الإشعاع عن الجسم ، فيستريح من عناء العمل ، وقد أثبت العلم الحديث خطر الإشعاعات على صحة الإنسان .

لذلك يقول تعالى : { وَلَهُ اختلاف الليل والنهار . . } [المؤمنون : 80] فجعلهما يختلفان ويتعاقبان ليؤدي كل منهما وظيفته في الكون ، يقول تعالى : { والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى } [الليل : 1 – 2] وطالما أن لكل منهما مهمته ، فإياك أن تقلب الليل إلى نهار ، أو النهار إلى ليل؛ لأنك بذلك تخالف الطبيعة التي خلقك الله عليها ، وانظر إلى هؤلاء الذين يسلكون هذا المسلك فيسهرون الليل حتى الفجر ، وينامون النهار حتى المغرب ، وكم أحدثوا من فساد في حركة الحياة ، فالتلميذ ينام في الدرس ، والعامل ينام ويُقصِّر في أداء عمله .

والنبي صلى الله عليه وسلم يُنبِّهنا إلى هذه المسألة في قوله : « . . . أطفئوا المصابيح إذا رقدتم » لأن الجسم لا يأخذ راحته ، ولا يهدأ إلا في الظلمة ، فيصبح الإنسان قوياً مستريحاً نشيطاً ، واقرأ قول الله تعالى : { وَجَعَلْنَا اليل لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً } [النبأ : 10 – 11] .

ومن دِقَّة الأداء القرآني أن يراعي هؤلاء الذين يعملون ليلاً ، وتقتضي طبيعة أعمالهم السَّهَر ، مثل رجال الشرطة وعمال المخابز وغيرهم ، فيقول تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار . . } [الروم : 23] فالليل هو الأصل ، والنهار لمثل هؤلاء الذين يخدمون المجتمع ليلاً؛ لذلك

عليهم أن يجعلوا من النهار ليلاً صناعياً ، فيغلقوا النوافذ ويناموا في مكان هادئ؛ ليأخذ الجسم حظه من الراحة والهدوء .

إذن : الليل والنهار ليسا ضِدّيْن ، إنما هما خَلْقان متكاملان لا متعاندان ، وهما كالذكَر والأنثى ، يُكمل كل منها الآخر ، لا كما يدَّعي البعض أنهما ضدان متقابلان؛ لذلك بعد أن أقسم الحق سبحانه بالليل إذا يغشى ، وبالنهار إذا تجلَّى ، قال :

{ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى } [الليل : 3 – 4] فالليل والنهار كالذكر والأنثى لكل منهما مهمة في حركة الحياة .

واختلاف الليل والنهار من حيث الضوء والظُّلْمة والطول والقِصَر وفي اختلاف الأماكن ، فالليل لا ينتظم الكون كله ، وكذلك النهار ، فحين يكون عندك لَيْل فهو عند غيرك نهار ، يقول تعالى : { يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل . . } [فاطر : 13] .

وينتج عن هذا تعدُّد المشارق والمغارب بتعدُّد الأماكن بحيث كل مشرق يقابله مغرب ، وكل مغرب يقابله مَشْرق ، لدرجة أنهم قالوا : ينشأ ليل ونهار في كل واحد على مليون من الثانية .

وينشأ عن هذا كما قلنا استدامة ذِكْر الله على مدى الوقت كله ، بحيث لا ينتهي الأذان ، ولا تنتهي الصلاة في الكون لحظة واحدة ، فأنت تصلي المغرب ، وغيرك يصلي العشاء . . وهكذا .

إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون مذكوراً في كل الكون بجميع أوقات الصلاة في كل وقت .

حتى إن أحد الصوفية وأهل المعرفة يقول مخاطباً الزمن : يا زمن وفيك كل الزمن . يعني : يا ظهر وفيك عصر ومغرب وعشاء وفجر ، لكن عند غيري .

ومن اختلاف الليل والنهار ينشأ أيضاً الصيف الحار والشتاء البارد ، والحق سبحانه وتعالى كلف العبيد كلهم تكليفاً واحداً كالحج مثلاً ، وربط العبادات كلها بالزمن الهجري ، فالصيف والشتاء يدوران في الزمن ، ويتضح هذا إذا قارنت بين التوقيت الهجري والميلادي ، وبذلك مَنْ لم يناسبه الحج في الصيف حَجَّ في الشتاء؛ لأن اختلاف التوقيت القمري يُلون السنة كلها بكل الأجواء .

لذلك قالوا : إن ليلة القدر تدور في العام كله؛ لأن السابع والعشرين من رمضان يوافق مرة أول يناير ، ومرة يوافق الثاني ، ومرة يوافق الثالث ، وهكذا .

ومن اختلاف الليل والنهار أنهما خِلْفة ، كما قال تعالى : { وَهُوَ الذي جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً } [الفرقان : 62] .

فنحن نرى الليل يخلُف النهار ، والنهار يخلُف الليل ، لكن احكم القضية في كل أطوار زمنها ، فما دام الحق – سبحانه وتعالى – جعل الليل والنهار خِلْفة ، فلا بُدَّ أن يكون ذلك من بداية خلقهما ، فلو وُجِد الليل أولاً ثم وُجِد النهار ، فلا يكون الليل خِلْفة؛ لأنه لم يسبقه شيء ، فهذا يعني أنهما خُلقا معاً ، فلما دار الزمن خلف بعضهما الآخر ، وهذا لا ينشأ إلا إذا كانت الأرض

مُكوَّرة ، بحيث يجتمع فيها الليل والنهار في وقت واحد ، فالذي واجه الشمس كان نهاراً ، والذي واجه الظلمة كان ليلاً .

ثم يقول سبحانه : { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [المؤمنون : 80] لأن هذه المسائل كان يجب أن تعقلوها خاصة ، وقد كانت اختلافات الأوقات مَبْنية على التعقل ، أما الآن فهي مَبْنية على النقل ، حيث تقاربت المسافات ، وصِرْنا نعرف فارق التوقيت بيننا وبين جميع أنحاء العالم بالتحديد .

كذلك كان الناس في الماضي ينكرون نظرية كروية الأرض ، حتى بعد أن التقطوا لها صوراً أظهرت كرويتها وجدنا من مفكرينا من ينكر ذلك .

ونقول : لماذا نقف هذا الموقف من نظريات ثابتة قد سبق قرآنُنَا إلى هذا القول؟ ولماذا نعطي الآخرين فكرة أن ديننا يغفل هذه المسائل ، مع أنه قد سبق كل هذه الاكتشافات؟

ولو تأملتَ قوله تعالى : { وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض . . } [الرعد : 3] لوجدت فيه الدليل القاطع على صِدْق هذه النظرية؛ لأن الأرض الممدودة هي التي لا تنتهي إلى حافة ، وهذا لا يتأتّى إلا إذا كانت الأرض كروية بحيث تسير فيها ، لا تجد لها نهاية حتى تصل إلى الموضع الذي منه بدأت ، ولو كانت الأرض على أي شكل آخر غير الكروي مثل المربع أو المستطيل لكان لها نهاية . لكن لم تتوفر لنا في الماضي الآلات التي تُوضِّح هذه الحقيقة وتُظهرها .

إذن : الحق سبحانه في قوله : { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [المؤمنون : 80] ينبهنا إلى ضرورة إعمال العقول في المسائل الكونية؛ لأنها ستوفر علينا الكثير في الطريق إلى الله عز وجل ، ولماذا يُعمِل الإنسان عقله ويتفنّن مثلاً في ارتكاب الجرائم فَيُرتب لها ويُخطط؟ لكن الله تعالى يكون له بالمرصاد فيُوقِعه في مَزْلَق ، فيترك وراءه منفذاً لإثبات جريمته ، وثغرة تُوصِّل إليه؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة ، وهذه مهمة القاضي أو المحقق الذي يحاور المجرم ليصل إلى هذه الثغرة .

وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يقول : لقد استخدمتَ عقلك فيما لا ينبغي ، وسخَّرْته لشهوات نفسك ، فلا بُدَّ أن أوقعك في مزلق ينكشف فيه أمرك ، فإنْ سترتها عليك مرة فإياك أنْ تتمادى ، أو تظنّ أنك أفلتَّ بعقلك وترتيبك وإلاَّ أخذتُك ولو بجريمة لم تفعلها؛ لأنك لا تستطيع أن تُرتِّب بعقلك على الله ، وعدالته سبحانه فوق كل ترتيب .

كما لو فُضِح إنسان بأمر هو منه بريء ، ولحقه الأذى والضرر بسبب هذه الإدانة الكاذبة ، فتأتي عدالة السماء فيستر الله عليه فضيحة فعلها جزاءً لما قد أصابه في الأولى ، وهذه مسألة لا يفعلها إلا رب .

والحق – سبحانه وتعالى – حينما يُنبِّه العقل ويثيره : تفكّر ، تدبّر ، تعقّل ، ليدرك الأشياء الكونية من حوله ، فهذا دليل على أنه سبحانه واثق من صَنْعته وإبداعه لكونه؛ لذلك يثير

العقول للبحث وللتأمل في هذه الصنعة .
وهذه المسألة نلاحظها فيمَنْ يعرض صَنْعته من البشر ، فالذي يتقن صَنْعته يعرضها ويدعوك إلى اختبارها والتأكد من جودتها على خلاف الصنعة الرديئة التي يلّفها لك صانعها ، ويصرفك عن تأملها حتى لا تكتشف عيبها .
فحين ينبهك ربك إلى التأمل في صَنْعته فعليك أنْ تدرك المغزى من هذه الإثارة لتصل إلى مراده تعالى لك .
ثم يقول الحق سبحانه : { بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ الأولون } .

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81)

أي : لم يتعظوا بكل هذه الآيات ، بل قالوا مثلما قال الألون : { قالوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً . . } .

قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82)

وسواء أكان هذا قولهم أو قول سابقيهم من الأولين ، فقد كان الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية في مسألة البعث من الموت ، وكل كلامهم يؤدي إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر .
ولذلك قال قائلهم : { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحِيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } [يس : 78 – 97] .

لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)

أتظنون أن الله تعالى إذا وعدكم بالموت ثم بالبعث أن هذا سيكون في الدنيا؟ لذلك تقولون : وُعِدْنا بهذا من قبل ولم يحدث ، وقد مات مِنّا كثيرون ولم يعودوا ولم يُبعَثُوا ، فَمَنْ قال لكم إنكم ستموتون اليوم وتُبعثون غداً؟
البعث لا يكون إلا بعد أن يموت جميع الخَلْق ، ثم يُبعثوا كلهم مرة واحدة .
إذن : هذا الكلام منهم مجرد سفسطة وجدل لا معنى له .
وكلمة { وُعِدْنَا . . } [المؤمنون : 83] يعني بالبعث ، والوعد عادة يكون بالخير ، كما أن الوعيد يكون بالشر ، كما جاء في قول الشاعر :
وإنِّي إذَا أَوْعدتُه أَوْ وَعدتُه ... لَمخلِفُ إيعَادِي ومُنجِزُ موْعِدي
يعني : هو رجل كريم يترك الشر الذي توعّد به ، ويفعل الخير الذي وعد به ، وإن قال العلماء :

قد يستعمل هذا مكان هذا .

لكن ، هل الوعد للكفار بالبعث وما يتبعه من عذاب وعقاب يُعَدُّ وَعْداً؟ قالوا : نعم يعد هذا الشر وهذا العذاب الذي ينتظر وَعْداً بالخير لأنه يُنبههم ويَلفتهم إلى خطورته حتى لا يقعوا فيه إذن : هو خير لهم الآن حيث يُحذِّرهم كما تحذر ولدك من الرسوب إنْ أهمل في دروسه .

ومن ذلك أيضاً في هذه المسألة ما أشرنا إليه من تكرار قوله تعالى : { فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 13] في سورة الرحمن ، وأنها جاءت بعد ذِكْر نعم الله على سبيل التوبيخ لِمَنْ أنكر هذه النعم أو كذَّب بها ، وتكررت مع كل نعمة تأكيداً لهذا التوبيخ ، لكن العجيب أن تذكر هذه الآية حتى بعد النقم أيضاً ، كما في قوله تعالى : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . . } [الرحمن : 35 – 36] .

وهل في النار والشُّواظ نعمة؟ نقول : نعم فيها نعمة؛ لأنها نصيحة لك قبل أن تقع في هذا المصير وتحذير لك في وقت التدارك حتى تراجع نفسك .

وقولهم : { إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين } [المؤمنون : 83] { إِنْ هاذآ . . } [المؤمنون : 83] يعني : ما هذا . وأساطير جمع أسطورة مثل : أعاجيب وأعجوبة ، هناك مَنْ يقول : إن أساطير جمع سطر أسطار أساطير مثل شكل وأشكال ، فهي جَمْع للجمع . وسواء أكانت جَمْع أسطورة أو جمع سطر ، فالمعنى لا يختلف؛ لأن الشيء المسطور قد يعتبره الناس خرافة وكلاماً لا معنى له .

والأساطير هي الكلام المكذوب الذي لا أصلَ له ، فلا يُسمَّى الكلام أسطورة إلا إذا جاء وقته ولم يحدث ، فلَكَ أن تقول أساطير إنما البعث الذي تقولون عنه { أَسَاطِيرُ الأولين } [المؤمنون : 83] لم يأت وقته بعد ، فلم يمت جميع الخَلْق حتى يُبعثوا ، فقد أخطأتم التوقيت وظننتم أنكم في الدنيا تموتون وتبعثون هكذا على رؤوس الأشهاد ، والناس ما زالت في سعة الدنيا .

إذن : ليس البعث كما تقولون ، بل هو حق ، ولكنكم لم تضعوا له الكلمة المناسبة؛ لذلك يوجه إليهم هذه الأسئلة التقريرية التي تقيم عليهم الحجة : { قُل لِّمَنِ الأرض وَمَن فِيهَآ . . } .

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84)

ويأتي في السؤال بإن الشرطية الدالة على الشك في كونهم يعلمون .

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85)

فما دُمْتم أقررتم بأن الأرض ومَنْ فيها لله { أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } [المؤمنون : 85] يعني : ما الذي صرفكم عن مالك الأرض وخالقها؟

ثم يقول الحق سبحانه : { قُلْ مَن رَّبُّ السماوات السبع . . } .

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86)

نلحظ أنهم لم يجادلوا في هذه المسألة ، ولم يقولوا مثلاً إنها سماء واحدة هي التي نراها ، مما يدل على أنها أمر غير منكور عندهم ، ولا بُدَّ أن الأنبياء السابقين قد أخبروهم خبر السماء ، وأنها سبع سموات ، وأصبحت عندهم قضية عقلية يعرفونها ، وإلا كان بوُسْعهم الاعتراض ، حيث لا يرون إلا سماءً واحدة . إذن : لم يجادلوا في هذا الموضوع .

وقوله تعالى : { وَرَبُّ العرش العظيم } [المؤمنون : 86] العرش مخلوق عظيم لا يعلم كُنْهه إلا الله الذي قال فيه { ثُمَّ استوى عَلَى العرش . . } [الأعراف : 54] وقال { وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآء . . } [هود : 7] .

والعرش لم يَرَهُ أحد ، إنما أخبر عنه ربه الذي خلقه ، فقال : لي كذا ولي كذا ، ويكفي أن الله تعالى وصفه بأنه عظيم . وفي هذه أيضاً لم يجادلوا رسول الله ولم يقولوا إننا لم نَرَ العرش ، مما يدل على أن عندهم حصيلة من تراث الأنبياء السابقين انتقلت إليهم فطرة من فطر التكوين البشري في السماع من الموجودين .

وقد وصف العرش بأنه عظيم عند البشر أيضاً ، ففي قصة سليمان وملكة سبأ قال الهدهد : { وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } [النمل : 23] لأن العرش رمزية لاستقرار المُلْك واستتباب الأمر لِلْمَلك الذي لا ينازعه في مُلْكه أحد ، ولا يناوشه عليه عدو؛ لذلك أول ما قال سليمان – عليه السلام – في أمرها قال : { أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا . . } [النمل : 38] وكأنه يريد أن يسلب منها أولاً رمز العظمة والأمن والأمان والاستقرار في الملك .

ثم يقول الحق سبحانه : { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ } .

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87)

فما دام الأمر كذلك وما دُمْتم تعترفون بأن لله مُلْكَ السموات والأرض ، وله العرش العظيم ، فلماذا لا تتقون هذا الإله؟ لماذا تتمردون على منهجه؟ إن هذا الكون كله بما فيه خُلِق لخدمتك ، أفلا يلفتك هذا إلى الصانع المنعم .

لذلك يقول تعالى في الحديث القدسي : « يا ابْن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتُك من أجلي ، فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له » يعني : لا تُلْهِك النعمة عن المنعم .

وعلى العبد أن ينظر أولاً إلى خالقه ومالكه ، فيؤدي حقه ، ثم ينظر إلى ما يملك هو .
ومعنى : { أَفَلاَ تَتَّقُونَ } [المؤمنون : 87] الاتقاء : أن تجعل بينك وبين صفات الجلال من الله وقاية ، وسبق أن قُلْنا : من عجيب آيات القرآن أن تقول مرة (اتقوا الله) ومرة (اتقوا النار) ، والمعنى لا تعارضَ فيه كما يظنه البعض ، بل المعنى واحد؛ لأن النار جُنْد من جنود الله ومن صفات جلاله ، فالمراد : اتقوا عذاب الله ، واتقوا صفات القهر والجبروت بأن تجعل بينك وبينها وقاية .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجْيِرُ . . } .

قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88)

معنى : { بِيَدِهِ . . } [المؤمنون : 88] تدل على التمكّن من الشيء ، كما تقول : هذا الأمر في يدي يعني في مُكْنتي وتصرفي ، أقلبه كيف أشاء { مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ . . } [المؤمنون : 88] مادة ملك منها مِلْك ، ومنها مُلْك ، ومنها ملكوت .
المِلْك ما تملكه أنت ، حتى لو لم يكن عندك إلا ثوب واحد فهو مِلْك ، أمّا مُلْك فيعني أنْ تملك مَنْ يملك ، وهذا يكون ظاهراً . أما الملكوت فالأشياء المخلوقة التي لا تقع عليها حواسُّك ، ولا يمكن أن تعلم عنها شيئاً إلا بإخبار خالقها ، والإنسان لا يرى كل ما في الكون ، بل إن في نفسه وذاته أشياءً لا يعرفها ، فهذا كله من عالم الملكوت .
بل إن الإنسان لا يرى حتى المُلْك الظاهر المحسّ؛ لأنه لا يرى منه إلا على قَدْر مَدِّ بصره ، وما خرج عن هذا النطاق لا يراه ، وإن كان يراه غيره ، ويمكن أن يدخل هذا المُلك الذي لا تراه في دائرة الملكوت بمعناه الواسع .
إذن : الملكوت يُطلق على الأشياء المحجوبة التي لا يراها أحد ، أو على الأشياء التي يراه واحد دون الآخر .
والإنسان إذا تعمَّق في عبادة الله وفي طاعته يفيض عليه من التجليات ، ويعطيه من هذا الملكوت عطاءً مباشراً ، كما قال : { مِّن لَّدُنَّآ . . } [النساء : 67] .
ألا ترى إبراهيم عليه السلام قال عنه ربه { وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى } [النجم : 37] وقال عنه : { وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . } [البقرة : 124] يعني : يؤدي ما لله بدقة وعلى الوجهِ الأكمل؛ لذلك يأتمنه ربه على أن يكون إماماً للناس { قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً . . } [البقرة : 124]
فلما أحسن إبراهيمُ ما بينه وبين ربه وبلغ هذه المنزلة قال عنه ربه : { وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض . . } [الأنعام : 75] .
لأنه أحسن في الأولى فرقى إلى أعلى منه . كما لو دخل رجل بيتك وشاهد ما عندك من نعيم ،

ففرح لما أنت فيه ، وقال : ما شاء الله تبارك الله ، ودعا لك بالزيادة ، فلما رأيت منه ذلك قلت له إذن : تعالى أريك ما هو أعظم .

كذلك العبد الصالح الذي عبد الله وتقرَّب إليه بمنهج موسى عليهما السلام ، فلما استقام على هذا المنهج وتعمَّق في عبادة الله وطاعته أعطاه الله من علمه اللدنيّ دون واسطة ودون رسول ، حتى كان هو مُعلِّماً لموسى عليه السلام .

ثم يقول سبحانه : { وَهُوَ يُجْيِرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ . . } [المؤمنون : 88] يجير : تقول : استجار بفلان فأجاره يعني : استغاث به فأغاثه ، ومنه قوله تعالى : { وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ . . } [الأنفال : 48] والإنسان لا يستجير بغيره إلا إذا ضعُفَتْ قوته عن حمايته ، فيلجأ إلى قوي يحميه ويدافع عنه .

إذن : هذه المسألة لها ثلاثة عناصر : مجير ، وهو الذي يقبل أن يغيثك ويحتضنك ويدافع عنك .

ومُجَار : وهو الضعيف الذي يطلب الحماية . ومُجَار عليه : وهو القوي الذي يريد أن يبطش .

ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلته إلى الطائف وبعد أنْ فعلوا به صلى الله عليه وسلم ما فعلوا استجار ، ودخل في حمى كافر .

فالحق – سبحانه وتعالى – يجير مَنِ استجار به ، ويغيث مَن استغاثة لكن { وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ . . } [المؤمنون : 88] لأن الذي يجيرك إنما يجيرك من مساوٍ له في القوة ، فيستطيع أن يمنعك منه ، ويحميك من بطشه ، فَمنْ ذا الذي يحميك من الله؟ ومَنْ يجيرك إنْ كان الله هو طالبك؟!

لذلك يقول سبحانه في مسألة ابن نوح : { قَالَ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ . . } [هود : 43] فالله – عز وجل – يجير على كل شيء ، ومن أصبح وأمسى في جوار ربه فلا خوف عليه .

وتلحظ هنا العلاقة بين صَدْر هذه الآية وعَجُزها : فالله تعالى بيده وفي قبضته سبحانه كل شيء ، والأمر كله إليه ، فإياك أنْ تظن أنك تلفت من قبضته بالنعمة التي أعطاك؛ لأنه سبحانه قادر أن يسلبك إياها ، وساعتها لن يجيرك أحد ، ولن يغيثك من الله مغيث ، ولن يعصمك من الله عاصم .

ثم قرأ قوله تعالى : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [آل عمران : 26] .

وهنا أيضاً يقول سبحانه : { إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [المؤمنون : 88] إنْ كان عندكم علم بهذه المسألة ووصلت إليكم وعاينتموها .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم : { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فأنى تُسْحَرُونَ } .

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (89)

ففي هذه أيضاً يقولون « لله »؛ لأنه واقع ملموس لا يُنكَر ، وطالما أن الأمر كذلك { فأنى تُسْحَرُونَ } [المؤمنون : 89] كيف تسحرون أو أسُحِرتم عن هذا الواقع وصُرِفتم عنه إلى هذا الكلام الباطل؟

هذه قضايا ثلاث جاءت على صورة سؤال لتدينهم بوضوح العقيدة في الوجود الأعلى ، وبوضوح البينات في إعجاز البلاغ عن الله ، وبوضوح الآيات في آيات المنهج ، وقد أراد الحق سبحانه أن يأتي الكلام منهم وبإقرارهم هم على أنفسهم؛ ليكون حجة وشهادة حَقٍّ عليهم .

ومعلوم أن الإقرار سيد الأدلة؛ لذلك سألهم : { قُل لِّمَنِ الأرض وَمَن فِيهَآ . . } [المؤمنون : 84] .

{ قُلْ مَن رَّبُّ السماوات السبع وَرَبُّ العرش العظيم } [المؤمنون : 86] .

{ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ . . } [المؤمنون : 88] .

وهم يقولون في هذا كله (لله) إذن : فماذا بقي لكم؟ ما الذي منعكم أن تتقوا الذي تؤمنون بأنه المالك للأرض وللسماء وبيده كل شيء؟ إنه مجرد استكبار وعناد وغطرسة ، وإلا فماذا تعني كلمة (الله) التي تنطقون بها؟

إنكم تعرفون الله ، وتعرفون مدلول هذه الكلمة؛ لأن مدلول الكلمة سابق على وجودها في لغة البشر ، فاللغة عادة ألفاظ توضع لمعانٍ تدل عليها ، فالمعنى يوُجدَ أولاً ، ثم نضع له اللفظ الدالّ عليه ، وما دام أن لفظ (الله) يدور على ألسنتكم ولا بُدَّ أنكم تعرفون مدلولة ، وهو قضية لغوية انتهيتم منها ، وإلا فالأمر العدمي لا اسم له . فالتليفزيون مثلاً : ما اسمه قبل أن يخترع؟ لم يكن له اسم؛ لأنه لم يكُنْ له معنى ، فلما وُجِد وُضِع له الاسم .

وحيث دارت الألسنة بكلمة الله فمعنى ذلك أنه تعالى موجود قبل وجود الاسم ، فالمسألة – إذن – حجة عليكم .

لذلك عرض الحق – سبحانه وتعالى – هذه القضايا في صورة سؤال لينتزع منهم الإقرار بها ، كما لو أنكر شخص جميلك فيه ، فإنْ قلتَ له على سبيل الإخبار : لقد قدمتُ لك كذا وكذا ، والخبر يحتمل الصِّدْق ويحتمل الكذب وله أن يعترف أو ينكر .

أما حين تقول له : ألم أُقدِّم لك كذا وكذا؟ على سبيل الاستفهام ، فإنه لا يملك إلا الاعتراف ، وينطق لك بالحق وبالواقع ، وتصل بإقراره إلى مَا لا تؤديه الشهادة أو البينة عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : { بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بالحق وَإِنَّهُمْ . . } .

بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90)

يعني : دعوني أخبركم عن أمرهم ، ولماذا أنكروا الحق ولم ينطقوا به ، إنهم ينكرون الحق لأنهم كاذبون ويريدون أنْ يُثبتوا أن ما هم عليه أمر طبيعي ، لماذا؟ لأنهم مستفيدون من الانحراف ومن

الباطل؛ لذلك يقفون في وجه الرسالة التي جاءت لتعديل الميزان والقضاء على الانحراف والباطل ، ويلجئون إلى تكذيبها وصَرْف الناس عنها ليظلوا ينتفعون هم بالباطل .

لذلك تأمل : لماذا يُكذِّب الناس؟ يُكذِّبون لأنهم ينتفعون من الكذب ، ويتعبهم الصدق ، ويَضيِّق عليهم الخناق .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ . . } .

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91)

يا ليت الأمر وقف بهم عند مجرد عدم الإيمان بالله ، إنما تعداه إلى أن وصفوا الله تعالى بما لا يليق من الصفات ، وما دام أن الله تعالى ينفي عن نفسه تعالى اتخاذ الولد { مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ . . } [المؤمنون : 91] فلا بد أنهم قالوا : اتخذ الله ولداً ، فترقوا في فجورهم وطغيانهم ، وتجرأوا حتى على مقام العزة .

ونقول أولاً : ما الولد؟ الولد ما ينجبه الإنسان من ذكر أو أنثى ، وقد سمعنا هؤلاء يقولون : عيسى ابن الله ، والعزير ابن الله ، وقالوا عن الملائكة : بنات الله ، وقد قال تعالى : { مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ . . } [المؤمنون : 91] ليشمل البنين والبنات .

ومعنى { اتخذ الله مِن وَلَدٍ . . } [المؤمنون : 91] أن الله تعالى كان موجوداً ، ثم اتخذ له ولداً ، فاتخاذ الولد إذن حادث ، وهذا يعني أنه قد مرت فترة لم يتخذ الله له فيها ولداً ، لذلك نسأل : ما الذي زاد في مُلْك الله بوجود الولد؟ هل أصبحت السموات ثمانية؟ هل زاد في الكون شمس أخرى أو قمر؟ الكون كما خلقه الله تعالى ، وجعل فيه ضرورياته وأصوله وفروعه لم يزد فيه شيء . إذن فاتخاذ الولد عَبَثٌ لم يحدث منه شيء .

ويقولون : اتخذ الله الولد ليُؤْنس خَلْقه بوجود ولده وشيء من رائحته بين الخلق ، قالوا هذا في مؤتمر (نيقية) ، كأنه عندهم يقوم مقام الألوهية . لكن كم كانت مدة بقائه بينكم؟ لقد أقام المسيح في الأرض بضعاً وثلاثين سنة قبل أن يُرْفع ، فكيف يحرم من هذا الأنس مَنْ سبقوا ميلاده عليه السلام؟ وكيف يُحْرم منه مَنْ أتوا بعده؟

أليس في هذا ما يتعارض وعدالة الربوبية؛ لأن الخَلْق جميعاً خَلْق الله ، وهم عنده سواء؟

ومنهم مَنْ يقول : إنه جاء ليرفع الخطيئة ، لكن الخطيئة ما زالت في الأرض بعدما فعل ما فعل . إذن : فكلها حَجَج واهية .

ولو ناقشنا هذه المسألة مناقشةً منطقيةً فلسفيةً : لماذا يتخذ الإنسانُ الولدَ؟ يتخذ الإنسانُ الولدَ لأنه يحب الحياة ، وموته يختصر هذه الحياة ، فيريد الولد ليكون امتداداً لحياته ، ويضمن به بقاء الذكْر جيلاً من بعده ، فإنْ جاء للولد ولد ضمن جيلين؛ لذلك يقولون « أعزّ من الوِلْد وِلْد

الولد » . لكن أي ذِكْر هذا الذي يتمسَّكون به؟ إن الذكر الحقيقي ما تخلفه من بعدك من عمل صالح يسبقك عند الله .

والحق – سبحانه وتعالى – لا يحتاج إلى ذِكْر من بعده تعالى؛ لأنه باقٍ لا يموت ، فهذه المسألة إذن ممنوعة في حقِّه تَعالى .

وقد يتخذ الولد ليكون سنداً وعَوْناً لأبيه حين يكبر وتضعف قواه؛ لذلك يقولون : خير الزواج الزواج المبكر؛ لأنه يساعدك على إنجاب أب يعولك في طفولة شيخوختك؛ لأنك تنجب طفلاً وأنت صغير ، فيعاصرك أكبر مدة من الزمن ، وتطول به قُرّة عينك في خلاف مَنْ ينجب على كِبَر؛ لذلك قال : أب يعولك في طفولة شيخوختك ولم يقل ابناً لأنك في هذه الحال تحتاج إلى حنان الأب .

وهذه أيضاً ممتنعة في حقه تعالى؛ لأنه سبحانه القوي ، الذي لا يحتاج إلى معين ، ولا إلى عزوة .

مسألة أخرى : أن الإنسان يحب الولد؛ لأنه بَعْضٌ منه ، وهو سبب في وجوده ، فيحب أن يكون له ولد من صُلْبه ، وهذا فرع من حُبِّه للتملُّك ، فالإنسان أول ما يحب يحب أن تكون له أرض ، ثم يحب أن يزرعها ويأكل من خيراتها ، ثم يحب أن تكون له حيوانات يشرب لبنها ويستفيد منها ، ثم إنْ تَمَّ له هذا كله يتطلع إلى الولد ، وكأنه تدرَّج من حب الجماد إلى النبات ، إلى الحيوان ، إلى الإنسان .

وهذه المسألة أيضاً لا تجوز في حقه تعالى ، فإنْ أحببتَ الولد ليكون جزءاً منك ومن صُلْبك تعتز به وبنُبوته ، فالخَلْق جميعاً عيال الله وأولاده ، فكيف يحتاج إلى الولد بعد ذلك؟

إذن : كلها حجج ومسائل باطلة؛ لذلك رَدَّ الله عليهم { مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ . . } [المؤمنون : 91] وأتى بِمِنْ الدالة على العموم ، يعني : ما اتخذ الله شيئاً من بداية مَا يُقال له ولد ، ولو كان حتى مُتبنًّى ، كما تقول : ليس عندي مال ، فتنفي أن يكون عندك مال يُعْتد به أو ذو قيمة ، لكن هذا لا يمنع أن يكون عندك عدة جنيهات أو قروش . فإنْ قلت : ما عندي من مال ، فقد نفيتَ أنْ يكون عندك أقلّ ما يُقَال له مال .

ونردّ بهذه المسألة على مَنْ يقول أن (من) هنا زائدة؛ لأن كلام الله دقيق لا زيادة فيه ، الزيادة في كلام البشر ، والحق سبحانه مُنزَّه عن هذه المسألة .

ثم يرتقي بنا الحق سبحانه في الردِّ عليهم فيقول : { وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ . . } [المؤمنون : 91] يعني : معبود بحق أو بغير حق؛ لذلك سمّى الأصنام آلهة ، لكن كلمة الله انصرفت إلى المعبود بحق سبحانه وتعالى ، فنفى الحق سبحانه الشركاء معه في العبادة ، كما جاء في موضع آخر : { لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا . . } [الأنبياء : 22] .

يعني : لو كان فيهما آلهة الله خارج منها لَفَسدت السماء والأرض ، وكذلك لو كان فيهما آلهة

مع الله لَفسدتَا أيضاً؛ لأن إلا هنا ليست استثنائية ، إنما هي اسم بمعنى غير ، وقد ظهر إعرابها على لفظ الجلالة بعدها (الله) .

ومسألة تعدُّد الآلهة لو تأملتها لَبانَ لك بطلانها ، فإنْ كان مع الله آلهة لاقتسموا هذا الكون فيما بينهم ، وجعلوه قطاعات ، يأخذ كل منهم قطاعاً فيه ، فواحد للأرض ، وآخر للسماء ، وثالث لما بين الأرض والسماء وهكذا .

ولكن ، هل يستغني قطاع من الكون عن الآخر؟ اتستغني الأرض عن السماء؟ إذن : سيحدث تضارب لا يستقيم معه حال الكون .

كذلك نقول : الإله الذي أخذ الأرض مثلاً ، لماذا لم يأخذ السماء؟ لا بُدَّ أنه أخذ الأرض بقُوَّته ، وترك السماء لعجزه ، ولا يصلح إلهاً مَنْ وُصِف بهذه الصفة ، فإن قالوا : إنهم جميعاً أقوياء يستطيع كل واحد منهم أن يخلق الخَلْق بمفرده نقول : إذن ما فائدة الآخرين؟

ثم يقول سبحانه : { إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . . } [المؤمنون : 91] يعني : لو استقل كل منهم بقطاع من الكون دون الآخر لَفَسدتْ الأمور ، كما رأينا في دنيا البشر أن يحاول أحد الملوك أنْ يستقلّ بقطاع من الأرض لا حَقَّ له فيه ، ورأينا ما أحدثه من فساد في الأرض ، هذا مثال لقوله تعالى : { وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . . } [المؤمنون : 91] وهي صورة من صور الفساد .

لذلك يعالج الحق سبحانه هذه القضية ويعلنها على الملأ : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم . . } [آل عمران : 18] .

فليس هذا كلامنا ، وليست هذه شهادتنا ، بل كلام الله وشهادته سبحانه لنفسه ، لكن هل علم هؤلاء الآلهة بهذه الشهادة؟ إنْ علموا بهذه الشهادة فسكوتهم عليها وعدم اعتراضهم عَجْز ، وإن لم يدروا فَهُم غافلون نائمون ، ففي كلتا الحالتين لا يصحّ أن يكونوا آلهة .

وفي موضع آخر يردّ عليهم الحق سبحانه : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً . . } [الإسراء : 42] يعني في هذه الحالة { لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42] يعني : ذهبوا يبحثون عن الإله الذي أخذ منهم الكون ، وتعدَّى على سلطانهم ، إما ليجابهوه ويحاكموه ، وإما ليتقربوا إليه .

لذلك سيقول عن الذين تدَّعون أنهم آلهة من دون الله : { يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة . . } [الإسراء : 57] يعني : عيسى والعزير والملائكة الذين قلتم إنهم بنات الله ، هؤلاء جميعاً يتوسلون إلى الله ويتقربون إليه { أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ . . } [الإسراء : 57] .

وفي موضع آخر يقول تعالى : { لَّن يَسْتَنكِفَ المسيح أَن يَكُونَ عَبْداً للَّهِ وَلاَ الملائكة المقربون . .

} [النساء : 172] .

إنهم لا يستنكفون عن عبوديتهم لله ، بل يعتزون بهذه العبودية ، ويُغضبهم ويسوؤهم أن نقول عنهم آلهة ، أو نعطيهم من التقديس أكبر مما يستحقون؛ ذلك لأن ولاءهم وعصبيتهم لله تعالى أكبر من ولائهم وعصبيتهم لأنفسهم .

لذلك ، فإن هذه الأشياء التي يتخذونها آلهة من دون الله هي أول مَنْ يلعنهم ، فالأحجار التي عبدوها من دون الله – مع أن كلمة العبادة هنا خطأ ونقولها تجاوزاً؛ لأن العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ، وانتهاؤه ينهيه ، والأحجار ليس لها أوامر وليس لها نَوَاهٍ – هذه الأحجار أعبد منهم لله ، وأعرف منهم بالله؛ لذلك تكرههم الحجارة وتلعنهم ، وتتحول عليهم في القيامة ناراً تَحْرقهم .

اقرأ هذا الحوار الذي يتنافس فيه غار حراء الذي شهد بداية الوحي وأَنِس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأول آيات القرآن ، وغار ثور الذي احتمى فيه رسول الله عند الهجرة ، وكلاهما أحجار ، يقول الشاعر :

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ تَرى ... الرُّوحَ أميناً يغْذُوكَ بالأنْوارِ
فَحِراءُ وثَوْرُ صَارَا سَوَاءً ... بهما اشْفع لدولةِ الأحجارِ
عَبدُونا ونَحْن أَعْبَدُ لله ... مِنَ القائمين بالأسْحَارِ
تَخِذُوا صَمْتنَا علينا دليلاً ... فغدَوْنا لهم وَقُودَ النارِ
قد تجنَّوا جَهْلاً كما قد تجنَّوْه ... علَى ابْن مريم والحَوارِى
للمُغَالِى جزاؤه والمغَالَى ... فيه تُنجيهِ رحمةُ الغَفارِ

لذلك يقول تعالى لعيسى عليه السلام : { أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله . . } [المائدة : 116] .

فيقول عيسى : { إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب } [المائدة : 116] .

نعم ، الله تعالى يعلم ما قال عبده ونبيه عيسى ، لكن يريد أنْ يقر عليهم بأنه كاره لقولهم هذه الكلمة .

والنبي صلى الله عليه وسلم حينما هُزِم الرومان من الفرس حزن لهزيمة الرومان ، لماذا؟ لأنهم أهل كتاب يعرفون الله ، ويعرفون البلاغ عن الله ، وإنْ كانوا كافرين به ، أما الفُرْس فكانوا مَجُوساً يعبدون النار؛ لذلك يُطمئنه ربه بقوله : { الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله . . } [الروم : 1 – 5] .

فإنْ كانوا لا يؤمنون بمحمد ، فهم يؤمنون بربِّ محمد ، فالعصبية – إذن – لله أكبر من العصبية

للرسول المبلّغ عن الله .

ثم يقول سبحانه : { سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ } [المؤمنون : 91] .

يصفون بمعنى : يكذبون ، لكن عبَّر عنه بالوصف كأن المعنى : إنْ أردت أنْ تعرف الكذب فاسمع إلى كلامهم فهو الوصف الدقيق له ، وقال في موضع آخر : { وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب . . } [النحل : 62] فكلامهم هو الكذب بعينه ، وهو أصدق وَصْف له؛ لأن الكذب ما خالف الواقع ، وهم لا يقولون إلا ما خالف الواقع .

كما لو سألت : ما الحماقة؟ فأقول لك : انظر إلى تصرفات فلان ، يعني : هي الوصف الصادق للحماقة ، والترجمة الواضحة لها ، وكأنه بلغ من الوصف مَبْلَغاً يُجسِّم لك المعنى الذي تريده .

ومعنى : { سُبْحَانَ الله . . } [المؤمنون : 91] تنزه ، وهي مصدر وُجِد قبل أنْ يُوجَد المسيح ، فهي صفة لله تعالى أزلية ، حيث ثبت تنزيه الله قبل أن يخلق الخَلْق ، فلما خلق الله السماء والأرض سبَّحت لله : { سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض . . } [الحديد : 1] ولم ينقطع التسبيح بعد ذلك ، قال الحق سبحانه : { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض . . } [الجمعة : 1] .

وما دام الكل يُسبّح لله ، وما زال مُسبِّحاً ، فسبِّح أنت يا محمد : { سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى } [الأعلى : 1] .

فكيف يكون الكون كله مُسبِّحاً ، ولا تُسبِّح أنت ، وأنت سيد هذا الكون؟

ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته العلية : { عَالِمِ الغيب والشهادة فتعالى . . } .

عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92)

العلم : إدراك قضية أو نسبة واقعة مجزوم بها وعليها دليل ، ولا يصل إلى العلم إلا بهذه الشروط ، فإنْ كانت القضية مجزوماً بها وواقعة ، لكن لا تستطيع أن تُدلِّل عليها كالطفل حين يقول : الله أحد ، فهذا تقليد كما يُقلِّد الولدُ أباه أو معلمه ، فهو يُقلِّد غيره في هذا المسألة إلى أنْ يوجد عنده اجتهاد فيها ويستطيع هو أن يُدلِّل عليها .

فإنْ كانت القضية مجزوماً بها وليست واقعة ، فهذا هو الجهل ، فليس الجهل كما يظن البعض الأَّ تعلم ، إنما الجهل أن تجزم بقضية مناقضة للواقع .

لذلك تجد الجاهل أشقّ وأتعب لأهل الدعوة وللمعلمين من الخالي الذهن الذي لا يعرف شيئاً ، ليست لديه قضية بدايةً ، فهذا ينتظر منك أن تُعلِّمه ، أمّا الجاهل فيحتاج إلى أن تُخرِج من ذِهْنه القضية الخاطئة أولاً ، ثم تضع مكانها الصواب .

والغيب : المراد به الغيب المطلق يعني : ما غاب عنك وعن غيرك ، فنحن الآن مشهد لمن حضر مجلسنا هذا ، إنما نحن غيب لمن غاب عنه ، وهذا غيْب مُقيد ، ومنه الكهرباء والجاذبية وغيرهما؛

لأن هذه الأشياء كانت غَيْباً عَمَّنْ قبلنا مع أنها كانت موجودة ، فلما توصلنا إلى مقدماتها ظهرت لنَا وصارت مشهداً؛ لذلك قال تعالى : { وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ . . } [البقرة : 255] .

فأثبت الإحاطة للناس لكن بشرط مشيئته تعالى ، فإنْ شاء أطلعهم على الغيب ، وأوصلهم إلى معرفته حين يأتي أجل ميلاده وظهوره .

إذن : المعلوم لغيرك وغَيْب عنك ليس غيباً ، وكذلك الغيب عنك وله مقدمات تُوصِّل إليه ليس غيباً ، إنما الغيب هو الغيب المطلق الذي غاب عنك وعن غيرك ، والذي قال الله تعالى عنه : { عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ . . } [الجن : 27] .

والشهادة : يعني المشهود ، لكن ما دام الحق سبحانه يعلم الغيب ، فمِنْ باب أَوْلَى يعلم المشهود ، فلماذا ذكر الشهادة هنا؟ قالوا : المعنى : يعلم الغيب الذي غيِّب عني ، ويعلم الشهادة لغيري .

ومن ناحية أخرى : ما دام أن الله تعالى غيْب مستتر عنا ، وهناك كوْن ظاهر ، فربما ظن البعض أن المستتر الغيب لا يعلم إلا الغيب ، فأراد – سبحانه وتعالى – أن يؤكد على هذه المسألة ، فهو سبحانه غيب ، لكن يعلم الغيب والشهادة .

ونرى من الناس مَنْ يحاول أن يهتك ستار الغيب ، ويجتهد في أن يكشف ما استتر عنه ، فيذهب إلى العرافين والمنجِّمين وأمثالهم ، وهو لا يدري أن الغيب من أعظم نِعَم الله على خَلْقه ، فالغيب هو علة إعمار الكون ، وبه يتم التعامل بين الناس ، ذلك لأن الإنسان ابن أغيار ، كثير التقلُّب ، ولو علم كل منا وكُشِف له ما عند أخيه لتقاطع الناس ، وما انتفع بعضهم ببعض .

لذلك يقولون : لو تكاشفتم ما تدافنتم .

يعني : لو كُشِف لك عما في قلب أخيك لَضننْتَ عليه حتى بدفنه بعد موته .

إذن : فجَعْل هذه المسائل غَيْباً مستوراً يُحنِّن القلوب ، ويثري الخير بين الناس ، فينتفع كل منهم بالآخر ، وإلا لو عَلِمتَ لواحد سيئة ، وعرفتَ موقفه العدائي منك لكرهتَ حتى الخير الذي يأتيك من ناحيته ، ولتحرك قلبك نحوه بالحقد والغل ، وما انتفعتَ بما فيه من حسنات .

لذلك ، نقول لمن يبحث عن غيْب الآخرين : إنْ أردتَ أن تعرف غَيْب غيرك ، فاسمح له أن يعرف غَيْبك ، ولن تسمح له بذلك ، إذن : فدَعْ الأمر كما أراده الله ، ولا تبحث عن غَيْب الآخرين حتى تستقيمَ دفّة الحياة .

وربك دائماً يلفتك إلى النظر إلى المقابل ، ففي الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، دعوت على مَنْ ظلمك ، ودعا عليك مَنْ ظلمته ، فإنْ شئت أجبناك وأجبنا عليك ، وإن شئت تركتكما إلى الآخرة فيسعكما عفوي » .

فالحق – تبارك وتعالى – يريد أنْ يُصفِّي نفوس الخَلْق ، وأن يقف الناس عند حدود ما أطلعك الله عليه ، ولا تبحث عن المستور حتى لا تتعب نفسك ، حتى تواجه مشاكل الحياة بنفسٍ صافية راضية عنك وعن الناس .

ثم يقول الحق تعالى : { فتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [المؤمنون : 92] لأن ما تشركونهم مع الله لا يعلمون شيئاً من هذا كله ، لا غَيْباً ولا شهادة؛ لذلك لا ينفعك إنْ عبدتْه ، ولا يضرك إنْ لم تعبده .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : { قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي . . } .

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94)

{ قُل . . } [المؤمنون : 93] أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم { رَّبِّ . . } [المؤمنون : 93] منادى حُذِفَتْ منه أداة النداء يعني : يا رب { إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ } [المؤمنون : 93] يعني : من العذاب { رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي القوم الظالمين } [المؤمنون : 94] أي : إن قدَّرتَ أن تعذبهم في حياتي فلا تُعذِّبهم وأنا فيهم .

وهذا من رقة قلبه صلى الله عليه وسلم ، وحين اشتد به إيذاء الكفار وعنادهم في أوَل الدعوة أرسل الله إليه الملائكة تعرض عليه الانتقام من قومه المكذِّبين به ، لكنه يأبى ذلك ويقول : « اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون » ويقول : « لعلَّ الله يُخرِج من أصلابهم مَنْ يقول : لا إله إلا الله » .

كما أن موقفه يوم فتح مكة واضح ومعروف؛ ذلك لأنه صلى الله عليه وسلم أُرسِل رحمة للعالمين .

لكن ، هل قال الرسول ودعا بهذا الدعاء لأنه يعتقد أن الله يجعله معهم حين ينزل بهم العذاب؟ نقول : لا؛ لأنه لم يقُلْ هذه الجملة من نفسه ، إنما أمره الله بها ، ولم يكُنْ رسول الله ليعتقد هذا الاعتقاد ، إذن : المسألة وَحْي من الله لا بُدَّ أن يُبلِّغه ، وأن يقولها كما قالها الله؛ لأن مدلولها رحمة به في ألاَّ يرى مَنْ يعذب ، أو من باب قوله تعالى : { واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً . . } [الأنفال : 25] .

وهذا الدعاء الذي دعا به رسول الله يدفع عنه أيَّ خاطر يطرأ عليه ، ويطمئنه أن هذا الأمر لن يحدث .

وقوله : { إِمَّا تُرِيَنِّي . . } [المؤمنون : 93] عبارة عن (إنْ) و (مَا) وهما يدلان على معنى الشرطية والزمنية ، فكأنه قال : قُلْ ساعةَ أن ينزل بهم العذاب : ربِّ لا تجعلني في القوم الظالمين .

وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95)

أي : أننا قادرون على أن نُريك شيئاً مما وعدناهم به من العذاب ، لكنه ليس عذاب الاستئصال؛ لأن الله تعالى أكرم أمتك – حتى الكافر منها – بأن عافاها من هذا العذاب ، لأنه يأتي على الكافرين فلا يُبقِي منهم أحداً ، ويمنع أن يكون من ذريتهم مؤمن بالله . فهَبْ أن عذاب الاستئصال نزل بهم في بدر مثلاً ، أكُنَّا نرى المؤمنين منهم ومن ذرياتهم بعد بدر؟

إذن : لا يكون عذاب الاستئصال إلا إذا عَلِم الله تعالى أنه لا فائدة منهم ، ولا حتى من ذريتهم من بعدهم ، كما حدث مع قوم نوح ، أَلاَ ترى نوحاً عليه السلام يقول عنهم : { إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً } [نوح : 27] .

ولا يمكن أن يقول نوح هذا الكلام ، أو يحكم على قومه هذا الحكم إلا بوحْيٍ من الله؛ لأنه لا يستطيع أن يحكم على هذه القضية الكونية التي لا يعلمها إلا المكّون الأعلى سبحانه ، فنحن نرى عُتَاة الكفر ورؤوس الضلال ، ثم يؤمنون بعد ذلك كله ويبْلُون في الإسلام بلاءً حَسَناً .

وانظر إلى عكرمة وخالد وعمرو بن العاص ، وكم تألَّم المؤمنون وحَزِنوا لأنهم أفلتوا من القتل ، لكن لله تعالى تدبير آخر ، وكأنه يدخرهم لخدمة الإسلام وحماية الدعوة .

فعكرمة بن أبي جهل يُظهِر شجاعة نادرة في موقعه اليرموك حتى يُطعَن طعنةَ الموت ، ويستند إلى عمر ويقول وهو يجود بروحه في سبيل الله : أهذه ميتة تُرضِي عني الله ورسوله؟ هذا في يوم الخندمة الذي قال فيه الشاعر :

إنَّك لَوْ شَاهَدت يَوْمَ الخَنْدَمه ... إذْ فَرَّ صَفْوانُ وفَرَّ عِكْرمَه ... ولحقْتَنَا بالسُّيوفِ المسْلمه ...

يَفْلِقْنَ كُلَّ سَاعِد وجُمْجُمْه ... ضَرْباً فَلاَ تُسْمَعُ إلاّ غَمْغَمَه ... لَهُمْ نَهِيتٌ حَوْلَهُ وحَمْحَمَه ... لَمْ تنْطِقي باللَّوْمِ أدْنى كِلمَه ... أما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فقد كان من أمرهما ما نعرف جميعاً .

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96)

{ ادفع . . } [المؤمنون : 96] تدل على المدافعة يعني : أمامك خصم يهاجمك ، يريد أن يؤذيك ، وعليك أن تدفعه عنك ، لكن دَفْع بالتي هي أحسن أي : بالطريقة أو الحال التي هي أحسن ، فإنْ أخذك بالشدة فقابِلْه باللين ، فهذه هي الطريقة التي تجمع الناس على دعوتك وتؤلّفهم من حولك .

كما جاء في قوله تعالى : { وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ . . } [آل عمران : 159] .

فإنْ أردتَ أن تعطفهم نحوك فادفع بالتي هي أحسن ، ومن ذلك الموقف الذي حدث من رسول

الله يوم الفتح ، يوم أنْ مكّنه ربه من رقاب أعدائه ، ووقف أمامهم يقول : « يا معشر قريش ، ما تظنون أنيَّ فاعل بكم؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : » اذهبوا فأنتم الطلقاء « .

ونلحظ أنهم كلموه بما يستميل قلبه ويعطفه نحوهم ، وذكَّروه بأواصر القرابة والرحم ، وحدَّثوه بما يُحنّن قلبه ، ولقّنوه ما ينتفعون هم به : أخ كريم وابن أخ كريم ، ولم يقولوا مثلاً : أنت قائد منتصر تستطيع أن تفعل بنا ما تشاء .

وفعلاً كان من هؤلاء ومن ذرياتهم نصراء للإسلام وأعوان لدعوة رسول الله .

وقصة فضالة الذي كان يبغض رسول الله ، حتى قال قبل الفتح : والله ما أحد أبغض إليَّ من محمد ، وقد زاد غيظه من رسول الله حينما رآه يدخل مكة ويُحطِّم الأصنام ، فأراد أنْ يشقَّ الصفوف إليه ليقتله ، وبعدها قال : » فو الله ، ما وضعتُ يدي عليه حتى كان أحب خَلْق الله إليَّ « .

لكن ماذا ندفع؟ ندفع (السيئة) . ونلحظ هنا أن ربنا – تبارك وتعالى – يدعونا أن ندفع السيئة بالتي هي أحسن ، لا بالحسن؛ لأن السيئة يقابلها الحسنة ، إنما ربك يريد أن يرتقي بك في هذا المجال ، فيقول لك : ادفع السيئة بالأحسن .

وفي موضع آخر يعطينا ثمرة هذا التصرُّف الإيماني : { فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت : 34] ولو تأملتَ معنى هذه الآية لوجدتَ أن المجازاة من الله ، وليست ممّنْ عاملْتَه هذه المعاملة؛ لأن الله تعالى يقول : { كَأَنَّهُ . . } [فصلت : 34] ولم يقل : يصبح لك ولياً حميماً .

ذلك لأنك حين تدفع بالتي هي أحسن يخجل منك صاحبك ، ويندم على إساءته لك ، ويحاول أنْ يُعوِّضك عنها فيما بعد ، وألاَّ يعود إلى مثلها مرة أخرى ، لكنه مع كل هذا لا يُسمَّى ولياً حميماً ، إنما هو ولي وحميم؛ لأنه كان سبباً في أنْ يأخذك ربك إلى جانبه ، ويتولاك ويدافع عنك .

لذلك لما شتم أحدهم الحسن البصري وسبَّه في أحد المجالس ، وكان في وقت رُطَب البلح أرسل الحسن إليه طبقاً من الرُّطَب وقال لخادمه : اذهب به إلى فلان وقُلْ له : لم يجد سيدي أثمن من هذا يهديه إليك ، وقد بلغه أنك أهديت إليه حسناتك بالأمس ، وهي بلا شك أعظم من هديتي تلك .

إذن : من الغباء أن نتناول الآخرين بالهَمْز واللمز والطعن والغيبة؛ فإنك بهذا الفعل كأنك أهديتَ لعدوك حسناتك ، وأعطيتَ أعظم ما تملك لأبغض الناس إليك .

ألاَ ترى موقف الأب حين يقسو على ولده ، فيستسلم له الولد ويخضع ، أو يظلمه أخوه فيتحمل ظُلْمه ولا يقابله بالمثل ، ساعتها يحنو الأب على ولده ، ويزداد عطفاً عليه ، ويحرص

على ترضيته ، كذلك يعامل الحق – تبارك وتعالى – العباد فيما بينهم من معاملات – ولله المثل الأعلى . لذلك قلنا : لو علم الظالم ما أعده الله للمظلوم من الجزاء لَضنَّ عليه بالظلم؛ لأنه سيظلمه من ناحية ، ويُرضيه الله من ناحية أخرى .

ويقال : إنه كان عند أحد الملوك رجل يُنفِّس فيه الملك عن نفسه ، فإنْ غضب استدعى هذا الرجل وراح يشتم فيه ويسبُّه أمام الناس حتى يهدأ ، فإذا أراد أن ينصرف الرجل أخذه على انفراد وأعطاه كيساً من المال ، وفي أحد الأيام احتاج هذا الرجل إلى مال ليقضي أمراً عنده ، فحاول أنْ يتمحّك ليصل إلى الملك ، ثم قال له : ألستَ في حاجة لأنْ تشتمني اليوم؟

فمسألتنا بهذا الشكل ، إذن : ما عليك إلا أنْ تدفع بالتي هي أحسن ، فإنْ صادفتَ من صاحبك مودة وصفاءً ، وإلا فجزاءُ الله لك أوسع ، وعطاؤه أعظم ، وما أجمل قول الشاعر حين عبَّر عن هذا المعنى :

يا مَنْ تُضَايِقه الفِعَال مِنَ التي ومِنَ الذي ... ادْفَعْ فدَيْتُكَ بالتي حَتَّى تَرَى فَإذَا الذِي

يعني : إن أردتَ الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم؛ فاعمل بالتي هي أحسن .

ثم يقول سبحانه : { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ } [المؤمنون : 96] معناه : أنت يا محمد تأخذ بحقك من هؤلاء إذا كنا نحن لا نعرف ما يفعلونه بك ، لكن الحال أننا نعرفه جيداً ونحصيه عليهم ، وقد أعددنا لهم الجزاء المناسب ، فدَعْ هذه المسألة لنا ولا تشغل نفسك بها .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يريد أن يُنزِّه ذات رسوله صلى الله عليه وسلم من انفعالات الغضب ، وألاّ ينشغل حتى بمجرد الانفعال؛ لأنه حين يتعرّض لك شخص بسيئة تريد أن تجمع نفسك لترد عليه ، وخصوصاً إذا كان هذا الرد مخالفاً لطبْعِك الحسن وخُلُقك الجميل ، فكأنه يكلفك شيئاً فوق طاقتك .

فالله تعالى يريد أن يرحم نبيه وأن يريحه : دَعْكَ منهم ، وفوِّض أمرهم إلينا ، فنحن أعلم بما يصفون أي : بما يكذبون في حقك .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشياطين } .

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97)

لماذا جاءتْ الاستعاذة من همزات الشياطين بعد هذه المسألة؟ قالوا : لأن الشيطان يريد أن يتدخل ، ويُظهِر لك أنه معك ، وأنه يَغَار عليك ، فيحرضك عليهم ويُغريك بهم ، ويدفعك إلى الانتقام منهم والتسلُّط عليهم .

وهمزات : جمع هَمْزة ، وهي النزْعة أو النخسة يثير بها الشيطان الإنسان ، ومنه قوله تعالى : { وَإِماَّ يَنَزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله . . } [الأعراف : 200] .

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98)

يعني : إنْ دخل عليك الشيطان بهَمْزه ووسوسته فقل : أعوذ بالله من همزات الشياطين ، بل وأزيد من ذلك الزم جانب الحَيْطة معه ، فقُلْ : أعوذ بالله أن يحضرون مجرد حضور ، وإن لم يهمزوا لي ، فأنا لا أريدهم في مَحْضري ، ولا أريد أن أجالسهم .

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)

ذلك لمجرد أن تحضره سكرات الموت ويُوقِن أنه ميّت تتكشف له الحقائق ويرى ما لا نراه نحن ، كما جاء في قوله تعالى : { فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ } [ق : 22] .
فيتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا وهو ما يزال يحتضر ، لماذا؟ لأنه رأى الحقيقة التي كان ينكرها ويُكذِّب بها ، والذين يشاهدون حال الموتى ساعة الاحتضار يرَوْنَ منهم إشارات تدلّ على أنهم يرَوْنَ أشياء لا نراها نحن ، كُلٌّ حَسْب حالة وخاتمته .
وأذكر حين مات أبي ، وكان على صدري ساعتها أنه قال لي : يا أمين – وهذا اسمي في بلدي – كيف تبني كل هذه القصور ولا تخبرني بها؟
والجنود الذين صاحوا في المعركة : هُبِّي يا رياح الجنة . لا بُد أنهم رأوها وشَمُّوا رائحتها ، وإلا ما الذي جعلهم يتلهفّون للموت ، ويشتاقون للشهادة إلا أنهم يرون حالاً ينتظرهم أفضل مما هم فيه .

ومن هؤلاء الصحابي الجليل الذي حدثَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أجر الشهداء عند الله ، وكان في يده تمرات أو في فمه يمضغها ، فقال : يا رسول الله ، أليس بيني وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فأُقتل في سبيل الله؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فمه ومضى إلى المعركة .
كأنه استكثر أن يقعد عن طلب الجنة مدة مَضْغ التمرات . فإلى هذه الدرجة بلغ يقينُ هؤلاء الرجال في الله وفي رسول الله .
ونلحظ في هذه الآية : { حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الموت . . } [المؤمنون : 99] هكذا بصيغة المفرد { قَالَ رَبِّ ارجعون } [المؤمنون : 99] جاء بالجمع على سبيل التعظيم ، ولم يقل : ربِّ ارجعني ، كما جاء في قوله تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] .
فهنا الحق – تبارك وتعالى – يُعظِّم ذاته ، لكن هذا يُعظِّم الله الآن ، وهو في حال الاحتضار ، وقد كان كافراً به ، وهو في سَعَة الدنيا وبحبوحة العيش .
أو : أنه كرر الطلب : أرجعني أرجعني أرجعني ، فجمعها الله تعالى . أو : أنه استغاث بالله فقال : ربّ ثم خاطب الملائكة : ارجعون إلى الدنيا .

لكن ، لماذا الرجوع؟

{ لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } أي : أنني تركتُ كثيراً من أعمال الخير ، فلعلّي إنْ رجعتُ بعد أنْ عاينتُ الحقيقة أستدرك ما فاتني من الصالحات ، أو لعلّي أعمل صالحاً فيما تركتُ ، لأنني ضننْتُ بمالي وبمجهودي وفَضْلي على الناس ، وكنْزتُ المال الكثير ، وتركتُه خلفي ثم أُحاسب أنا عليه ، فإنْ عُدت قدمته وأنفقته فيما يدخر لي ليوم القيامة .

ثم تأتي الإجابة : { كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا . . } [المؤمنون : 100] أي : قوله : ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت ، إنها مجرد كلمة لا واقع لها ، كلمة يقولها وقت الضيق والشدة ، فالله تعالى لن يرجعهم ، ولو أرجعهم ما فعلوا؛ لذلك نفاها بقوله (كلا) التي ترد على قضايا تريد إثباتها ، ويريد الله تعالى نفيها كما ورد في سورة الفجر :

{ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربي أَهَانَنِ } [الفجر : 15 – 16] .

فيرد الحق سبحانه : (كلا) لا أنت صادق ولا هو ، فليس المال والغِنَى وكثرة العَرض دليل إهانة ، ولا الفقر دليل إهانة ، فكلتا القضيتين خطأ ، بدليل أنك إذا أعطاك الله المال ، ثم لا تؤدي فيه حَقَّ الله وحَقَّ العباد ، ولا يعينك على أداء ما فُرِض عليك صار المال وبالاً عليك وإهانة لا كرامة . ما جدوى المال إنْ دخلتَ في قوله تعالى : { كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم } [الفجر : 17] ؟ ساعتها سيكون مالك حُجَّة عليك .

كذلك الحال مع مَنْ يظن أن الفقر إهانةٌ ، فإنْ سلب الله منك المال الذي يُطغيك فقد أكرمك ، وإنْ كنت لا تدري بهذا الإكرام .

ثم يقول سبحانه : { وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [المؤمنون : 100] أي : كيف يتمنوْنَ الرجوع وبينهم وبينه برزَخ يمنعهم العودة إلى الدنيا؛ لذلك تُسمَّى الفترة بين الحياة الدنيا والآخرة بالحياة البرزخية ، فليست من الدنيا ، وليست من الآخرة .

وفي موضع آخر يُصوِّر الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : { وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ . . } [الأنعام : 28] أي : لو رددناهم من الآخرة لعادوا لما كانوا عليه من معصية الله ، وإنْ كانت هذه قضية عقلية ففي واقعهم ما يثبت صِدْق هذه القضية ، واقرأ فيهم قول الله تعالى : { وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ . . } [الإسراء : 83] فأخذ نعمة الله وتقلَّب فيها ، ثم تنصَّل من طاعة الله .

ويقول تعالى في هذا المعنى أيضاً : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . } [يونس : 12] .

إذن : المسألة اضطرارات ، كلما اضطروا دَعَوا الله ولجئوا إليه ، وتوسَّلوا ، فخذوا من واقع حياتهم ما يدل على صِدْق حكمي عليهم لو عادوا من الآخرة .

والبرزخ : هو الحاجز بين شيئين ، وهذا الحاجز يأخذ قوته من صاحب بنائه ، فإنْ كان هذا الحاجز من صناعته – سبحانه وتعالى – فلن ينفذ منه أحد .

ومن ذلك قوله تعالى : { مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ } [الرحمن : 19 – 20] وما داما يلتقيان ، فما فائدة البرزخ هنا؟

قالوا : نعم يلتقيان ، ولا يبغي أحدهما على الآخر؛ لأن المسألة ليست سَدَّاً أو بناءً هندسياً ، إنما برزخ خاصٌّ لا يقدر عليه إلا طلاقة القدرة الإلهية التي خرقتْ النواميس ، فجعلتْ الماءَ السائلَ جبلاً ، بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فصار كل فِرْق كالطود العظيم ، طلاقة القدرة التي فجرت الحجر عيوناً .

إذن : المسألة ليست (ميكانيكا) كما يظن البعض .

والبرزخ بين الماء المالح والماء العَذْب آية من آيات الله شاخصة أمامنا ، يمكننا جميعاً أنْ نتأكد من صحة هذه الظاهرة .

لكن هذا البرزخ من أمامهم ، فلماذا قال تعالى : { وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [المؤمنون : 100] .

قالوا : لأن اللفظ الواحد يُطلق في اللغة وله معَانٍ عدَّة واللفظ واحد؛ لذلك يُسمُّونه المشترك ، فمثلاً كلمة عَيْن تطلق على العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وتُقال للذهب وللفضة ، وللرجل البارز في قومه ، والسياق هو الذي يُحدِّد المعنى المراد؛ لذلك على السامع أن تكون عنده يقظة ليردّ اللفظ إلى المعنى المناسب لسياقه .

وكذلك كلمة (النجم) فتعني الكوكب في السماء ، وتعني كذلك مَا لا ساقَ له من النبات ، وهو العُشْب الذي ترعاه البهائم ، ومنه قول الشاعر :

أُرَاعي النجْمَ في سَيْري إليكُمُ ... ويرعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوَادِيَ

فكلمة (وراء) تُطلَق ويُراد بها معانٍ عدة ، قد تكون متقابلة يُعيِّنها السياق ، فتأتي وراء بمعنى (بَعْد) كما في قوله تعالى : { وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } [هود : 71] وتأتي بمعنى (غَيْر) كما في قوله تعالى : { فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك فأولئك هُمُ العادون } [المؤمنون : 7] .

وتأتي بمعنى (أمام) كما قوله تعالى : { وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً } [الكهف : 79] فالملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة قادمة . وكذلك في قوله تعالى : { مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ } [إبراهيم : 16] .

فقوله تعالى : { وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [المؤمنون : 100] أي : أمامهم .
ثم يقول الحق سبحانه : { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ . . } .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101)

الصُّور : البُوق الذي ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية للبعث .
والأنساب : جمع نَسَب ، وهو الالتقاء في أصل مباشر ، كالتقاء الابن بالأب ، أو الأب بالابن ، أو التقاء بواسطة كالعمومة والخؤولة .
والنسب هو أول لُحمة في الكون تربط بين الناس في مصالح مشتركة ، وهو الالتقاء الضروري الذي يوجد لكل الناس ، فقد لا يكون لك أصدقاء ولا أصحاب ولا زملاء عمل ، لكن لا بُدَّ أن يكون لك نَسَب وقرابة وأهل .
فحين ينفي الحق – سبحانه وتعالى – النسب يقول : { فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ . . } [المؤمنون : 101] فليس النفي لوجود النسب ، فإذا نُفِخ في الصور منعت البُنوَّة من الأبوة ، أو الأبوة من البنوة . إنما النسب موجود حقيقة ، لكن لأن النسب المعروف فيه التعاون على الخير والتآزر في دفع الشر ، فالنفي هنا لهذه المنفعة في هذا اليوم بالذات حيث لا ينفع أحد أحداً ، فالنسب موجود لكن دون نفع ، فالنفع من أمور الدنيا أن يُوجد قوي وضعيف ، فالقوي يُعين الضعيف ، ويفيض عليه ، أمّا في هذا الموقف فالكل ضعيف .
كما قال تعالى : { يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس : 34 – 37] .
ويقول : { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } [المدثر : 38] .
لذلك حينما حدَّثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أننا سنُحشر يوم القيامة حُفَاة عُراة تعجبت السيدة عائشة ، واستحيتْ من هذا الموقف ، فأخبرها رسول الله أن الأمر ليس كذلك ، فهذا موقف ينشغل كُلٌّ بنفسه ، والحال أصعب من أن ينظر أحد لأحد .
إذن : النفي لنفع الأنساب ، لا للأنساب نفسها .
وإنْ كان نفع الأنساب يمتنع لهول الآخرة فقد يتسامى الإنسان فيمنع نفعه حتى في الدنيا عن ذوي قرابته إنْ كانوا غير مؤمنين ، وقد ضربها الله مثلاً في قصة نوح – عليه السلام – وولده ، وخاطبه ربه : { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . } [هود : 46] فامتنع النسب حتى في الدنيا ، فالنبوة ليست بُنوة الدم واللحم ، البنوة – خاصة عند الأنبياء – بنوة عمل واتباع .
وإذا تأملتَ تاريخ المسلمين الأوائل لوجدتهم يعتزُّون بالإسلام ، لا بالأنساب ، فالدين والعقيدة هما اللُّحمْة ، وهما الرابطة القوية التي تربط الإنسان بغيره ، وإنْ كان أدنى منه في مقاييس الحياة .

قرأنا في قصة بدر أن مصعب بن عمير – رضوان الله عليه – وكان فتى قريش المدلل ، وأغنى أغنيائها ، يلبس أفخر الثياب ويعيش ألين عيشة ، فلما أُشرِب قلبه الإيمان زهد في كل هذا النعيم ، وحُرِم من خير أهله ، ثم هاجر إلى المدينة ، وهناك رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس جلد شاة فقال : « انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم » .

وفي المعركة ، رأى مصعب أخاه أبا عزيز أسيراً في يد واحد من الأنصار هو الصحابي أبو اليَسَر فقال له مصعب : اشدد على أسيرك – يعني : إياك أن يفلت منك – فإن أُمَّه غنية ، وستفديه بمال كثير ، فنظر أو عزيز إلى مصعب وقال : أهذا وصاتك بأخيك؟ فقال : هذا أخي دونك .

إذن : فلا أنسابَ بينهم ، حتى في الدنيا قبل الآخرة .

وفي غزوة أحد استُشهد مصعب بن عمير ، ولم يجدوا ما يكفنونه فيه إلا ثوباً قَصيراً ، إنْ غطى رأسه انكشفتْ رِجْلاه ، وإنْ غطّى رِجْلَيْه انكشفت رأسه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « غطوا رأسه ، واجعلوا على رِجْلَيْه من الإذخر » .

والسيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان لما أسلمتْ وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكن اتهمها البعض بأنها هاجرت لا من إجل دينها ، ولكن من أجل زوجها ، فيشاء الله تعالى أن يُظهِر براءتها ، فينتصَّر زوجها عبيد الله بن جحش هناك وتظل هي على الإيمان ، ولَما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرها أراد أن يعوضها فخطبها لنفسه ، ولم ينتظر إلى أن تجيء ليعقد عليها ، فوكّل النجاشي ملك الحبشة ليعقد له عليها .

وبعد زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أبوها سفيان زيارتها ، وكانت تمهّد فراش رسول الله ، فلما أراد أبو سفيان أن يجلس عليه نَحَّتْهُ جانباً ، ومنعتْه أن يجلس – وهو كافر – على فراش رسول الله ، فقال : أضنَاً بالفراش عليَّ؟ فقالت : نعم .

إذن : نَفْع الأنساب يمتنع في الدنيا قبل امتناعه في الآخرة ، لكن الحق – سبحانه وتعالى – تفضّل بأن أبقى مطلوبات النسب في الدنيا ودعانا إلى الحفاظ عليها حتى مع الكافرين؛ لأنه سبحانه وَسِع الكافر ، فعلى المؤمن أن يسعه من باب أَوْلَى ، فإنْ رأيت الكافر في شدة وقدرت أن تُعينه فَاعِنْه .

واقرأ في هذا قوله تعالى : { وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً . . } [لقمان : 15] .

فهما كافران ، بل ويريدانك كافراً ، ومع ذلك احفظ لهما حَقَّ النسب ، ولا تقطع الصلة بهما .

ويُرْوَى أن إبراهيم – عليه السلام – وقد أعطاه الله الخُلَّة ، وقال عنه : { وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى } [النجم : 37] وابتلاه بكلمات فأتمهُنَّ ، مرَّ عليه عابر سبيل بليل ، فقبل أن يُدخِله ويُضيفه سأله عن ديانته ، فأخبره أنه غير مؤمن ، فأعرض عنه إبراهيم – عليه السلام – وتركه ينصرف ،

فأوحى الله إليه : يا إبراهيم وسعْتُ عبدي وهو كافر بي ، وتريده أن يغير دينه لضيافة ليلة؟ فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب ربه له في شأنه ، فقال الرجل : نِعْم الرب الذي يعاتب أحبابه في أمر أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله .

ويرتقي أهل المعرفة بالنسب ، فيرَوْنَ أنه يتعدَّى الارتباط بسبب وجودك ، وهو الأب أو الأم ، فالنسب وإن كان ميلاد شيء من شيء ، أو تفرُّع شيء من شيء ، فهناك نسب أعلى ، لا لمن أوجدك بسبب ، وإنما لمن أوجدك بلا سبب الوجود الأول ، فكان عليك أن تراعي هذا النسب أولاً الذي أوجدك من عدم ، وإنْ أثبت حقاً للوالدين؛ لأنهما سبب وجودك .

فكيف بالموجد الأعلى؟

وقوله تعالى : { وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ } [المؤمنون : 101] سأل : تقتضي سائلاً ومسئولاً ، أمّا الفعل (تساءل) فيدل على المفاعلة يعني : كل منهما سائل مرة ، ومسئول أخرى ، كما تقول : شارك محمد عمرًا ، وقاتل . . الخ .

وقد اعترض على هذه الآية بعض المستشرقين الذين يحبون أن يتوركوا على كتاب الله ، قائلين : إن المسلمين ينظرون إلى كتاب الله بمهابة وتقديس يمنعهم ويحجب عقولهم عن تعقُّل ما فيه ، لماذا وقد قال تعالى عن القرآن : { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً } [النساء : 82] ؟

يقول هؤلاء : إن القرآن نفى التساؤل في هذه الآية ، وأثبته في قوله تعالى : { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ } [الطور : 25] في الحوار بين الكفار .

وهناك تساؤل بين المؤمنين والكافرين : { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ اليمين * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ المجرمين * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخآئضين * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين } [المدثر : 38 – 46] .

ومرة يكون التساؤل بين المؤمنين بعضهم وبعض : { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قالوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السموم * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ البر الرحيم } [الطور : 25 – 28] .

إذن : كيف بعد ذلك ينفي التساؤل؟ ويقول : { وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ } [المؤمنون : 101] .

وهذا التضارب الذي يرونَه تضارب ظاهري؛ لأنه هناك فرقاً بين أن تسمع عن شيء وبين أن تُفاجأ به وأنت غير مؤمن ، لقد قالوا : { إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } [المؤمنون : 37] .

فحين فُوجئوا بالنفخ في الصُّور ، وداهمتهم القيامة التي كانوا يُكذّبون بها بُهِتوا ودُهِشُوا ، وخرست ألسنتهم عن الكلام من شدة دهشتهم ، وكيف وما كانوا ينكرونه ماثل أمامهم فجأة ، ثم

يتدرجون من هذه الحالة إلى أن يأخذوه أمراً واقعاً لا مَفرَّ منه ، فيبدأون بالكلام ويسأل بعضهم بعضاً عَمَّا هم فيه وعَمَّا نزل بهم .

إذن : فالسؤال له زمن ، ونَفْي السؤال له زمن؛ لذلك يقولون في مثل هذه المسألة أن الجهة مُنفكَّة ، فإذا رأيتَ شيئاً واحداً أُثبتَ مرة ، ونُفِي أخرى من قائل واحد منسوب إلى الحكمة وعدم التضارب ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة .

ومثل هذا الموقف من أهل الاستشراق وقفوه أيضاً في سؤال أهل المعاصي ، حيث يقول تعالى في إثبات سؤالهم : { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ } [الصافات : 24] ويقول في نفي سؤالهم { فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ }

[الرحمن : 39] فكيف يثبت الفعل وينفيه ، والفاعل واحد؟

وهذا الاعتراض منهم ناشيء عن عدم فَهْم للغة القرآن والمَلَكة العربية ، أو لأنهم يريدون مجرد الاستدراك على كتاب الله وإثارة الشكوك حوله . لكن رُبَّ ضارَّة نافعة ، فقد حرَّكت شكوكهم ومآخذهم علماء المسلمين للتصدِّي لهم ، وللرد على أباطيلهم وكشف نواياهم ، فمثلنا كمثل الذي يستعد لملاقاة المرض بالطُّعْم المناسب الذي يعطي للجسم مناعة وحصانة ضد هذا المرض .

وسيدنا عمر – رضي الله عنه – وكان القرآن ينطق على وَفْق ما يريد ، يرى الناس يُقبّلون الحجر الأسود ، فتوقع أن يتكلم الناس في هذه المسألة ، وكيف أن الدين ينهاهم عن عبادة الأصنام وهي حجارة ويأمرهم بتقبيل الحجر ، وكان رضي الله عنه يُقبّله ويقول : « والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يُقبّلك ما قبَّلتك » .

فلفت الناس إلى أصل التشريع وأن الحجرية لا عبادةَ لها عندنا ، لكن عندنا النبي صلى الله عليه وسلم وهو مُشرِّع لنا وواجب علينا اتباعه ، وهكذا كان ردّ عمر على مَنْ أثاروا هذه الفتنة .

ولما تكلم عمر في غلاء المهور وكان مُلْهماً يوافق قولُه قولَ القرآن الكريم ، وقفتْ له امرأة وراجعته وقالت له : اخطأتَ يا عمر ، كيف تنهى عن الغلاء في المهور ، والله تعالى يقول : { وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً . . } [النساء : 20] .

فأجار أن يكون المهر قنطاراً من ذهب ، عندها قال عمربجلالة قدره : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » ليبين أنه لا كبيرَ أمام شرع الله .

إذن : هذه مسائل مرسومة ولها أصل ، يجب أن تُعلم لنردّ بها حين نسأل في أمور ديننا .

نعود إلى مسألة سؤال أهل المعصية ، حيث نفاه القرآن مرة وأثبته أخرى . ونقول : جاء القرآن بأسلوب العرب وطريقتهم ، والسؤال في الأسلوب العربي إما سؤال مِمَّنْ يجهل ويريد المعرفة ، كما يسأل التلميذ مُعلِّمه ، أو يسأل العالم الجاهل لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما يريد .

فإذا نفى الله تعالى السؤال ، فلا تظنوا أنه يسألكم ليعرف منكم ، إنما يسألكم لتقروا؛ لذلك قال سبحانه : {كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء : 14] .

إذن : إثبات السؤال له معنى ، ونَفْيه له معنى ، فإذا نفى فقد نفى سؤال العلم من جهتهم ، وإذا أثبت فقد أثبت سؤال الإقرار من جهتهم؛ لتكون الحجة ألزم؛ لأن الإقرار سيد الأدلة .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثال : التلميذ المهمل الذي يتظاهر أمام أبيه بالمذاكرة ، فيفتح كتابه ويهزّ رأسه كأنه يقرأ ، فإذا ما سأله والده لم يجده حصَّل شيئاً ، فيقول له : ذاكرت وما ذاكرت .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى } [الأنفال : 17] هكذا نَفْي وإثبات في آية واحدة لفاعل واحد ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ فعلاً حَفْنة من الحصى ورَمَى بها نحو الأعداء ، لكن هل في قدرته أن يُوصّل هذه الحفنة إلى أعين الأعداء جميعاً؟ فالعمل والرمي للرسول ، والنتيجة والغاية لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ المفلحون * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . . } .

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103)

ثقُلَتْ وخفَّتْ هنا للحسنات . يعني : كانت حسناته كثيرة أو كانت قليلة .

ويمكن أن نقول : ثقلت موازينه بالسيئات يعني : كثُرَتْ الحسنات ، لكن القرآن تكلم من ناحية أن العمدة في الأمر الحسنات .

والميزان يقوم على كِفَّتين في أحدهما الموزون ، وفي الأخرى الموزون به ، وللوزن ثلاث صور عقلية : أن يخفّ الموزون ، أو يخف الموزون به ، أو يستويا ، وقد ذكرت الآية حالتين : خفت موازينه ، وثقلت موازينه ، كما جاء في قوله تعالى : { فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ } [القارعة : 6 – 11] .

أما حالة التساوي فقد جاءت لها إشارة رمزية في سورة الأعراف : { وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الجنة أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَابِ النار قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ القوم الظالمين } [الأعراف : 46 – 47] .

فمَنْ غلبت حسناته ذهب إلى الجنة ، ومَنْ غلبت سيئاته ذهب إلى النار؛ وبقي أهل الأعراف بين الجنة والنار؛ لأنهم تساوت عندهم كِفَّتا الميزان ، فلا هو من أهل الجنة ، ولا هو من أهل النار ، فهم على الأعراف ، وهو السُّور بين الجنة والنار ينظرون إلى هؤلاء وإلى هؤلاء .

ثم يقول تعالى في شأنهم : { لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ } [الأعراف : 46] ؛ لأن رحمة الله سبقتْ غضبه ، وعفوه سبق عقابه .

ومعنى ثقلت موازينه وخفت موازينه يدل على أن الأعمال تصبح ولها كثافة وجِرْم يعطي ثقلاً ، أو أن الله تعالى يخلق في كل عمل له كتلة ، فحسنةُ كذا بكذا ، والمراد من الميزان دِقَّة الفَصْل والحساب .

ونلحظ في الآية : { فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . . } [المؤمنون : 102] بالجمع ولم يقل : ميزانه ، لماذا؟ قالوا : لأنه يمكن أن يكون لكل جهة عمل ميزان خاص ، فللصلاة ميزان ، وللمال ميزان ، وللحج ميزان . . إلخ ثم تُجمع له كل هذه الموازين .

وقوله : { وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنفُسَهُمْ . . } [المؤمنون : 103] لأنهم أخذوا لها القليل العاجل ، وفوَّتوا عليها الكثير الآجل ، وسارعوا إلى متعة فانية ، وتركوا متعة باقية؛ لأن الدنيا أجلها محدود؛ والزمن فيها مظنون ، والخير فيها على قَدْر إمكانات أهلها .

أما الآخرة فزمنها مُتيقّن ، وأجلها ممدود خالد ، والخير فيها على قَدْر إمكانات المنعِم عَزَّ وجَلَّ ، فلو قارنتَ هذا بذاك لتبيّن لك مدى ما خَسِروا ، لذلك تكون النتيجة أنهم { فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ } [المؤمنون : 103] .

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة تُبشِّع الجزاء في جهنم ، وتُصوِّر أهوالها ، وذلك رحمة بنا لنرتدع من قريب ، ونعمل جاهدين على أن ننجي أنفسنا من هذا المصير ، وننفر من هذه العاقبة البشعة ، كما يقول الشرع بداية : سنقطع يد السارق ، فهو لا يريد أن يقطع أيدي الناس ، إنما يريد أن يمنعهم ويحذرهم هذه العاقبة .

ومن ذلك قوله تعالى في مسألة القصاص : { وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ياأولي الألباب . . } [البقرة : 179] .

وقد هُوجم القِصَاص كثيراً من أعداء الإسلام ، إذ يقولون : يكفي أن قُتِل واحد من المجتمع ، فكيف نقتل الآخر؟ والقرآن لم يضع القصاص ليقتل الاثنين ، إنما وضعه ليمنع القتل ، وليستبقي القاتل والقتيل أحياء ، فحين يعرف القاتل أنه سيُقتل قصاصاً يمتنع ويرتدع ، فإن امتنع عن القتل فقد أحيينا القاتل والقتيل ، وقد عبَّروا عن هذا المعنى فقالوا : القتل أنفى للقتل .

يقول تعالى في تبشيع جهنم : { تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النار وَهُمْ . . } .

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104)

اللفْح : أن تمسَّ النار بحرارتها الشيء فتشويه ، ومثله النَّفْح { وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ } [المؤمنون : 104] كلمة « كالح » نقولها حتى في العامية : فلان كالح الوجه . يعني تغيّر وجهه تغيُّراً ينكر لا تستريح له ، وضربوا للوجه الكالح مثلاً برأس الخروف المشوية التي غيَّرت النار ملامحها ، فأصبحت مُشوَّهة كالحة تلتصق الشَّفَة العليا بجبهته ، والسفلى بصدره ، فتظهر أسنانه في شكل منفر .

بعد ذلك يخاطبهم الحق سبحانه خطاباً يُلقي اللوم عليه ويُحملهم مسئولية ما وصلوا إليه ، فلم يعذبهم ربهم ابتداءً ، إنما عذبهم بعد أن أنذرهم ، وأرسل إليهم رسولاً يحمل منهجاً يبين ثواب الطائع وعقاب العاصي ، ونبَّههم إلى كل شيء ، ومع ذلك عصَوْا وكذَّبوا ، ولم يستأنفوا عملاً جديداً على وَفْق ما أمر الله . إذن : فهُم المقصرون .

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105)

يعني : أنتم السبب فيما أنتم فيه من العذاب ، فليس للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليس لأحد عذر بعد البلاغ ، لذلك حينما يدخل أهل النار النارَ يخاطبهم ربهم : { أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ . . } [الزمر : 71] .

فالآية تثبت أنهم هم المذنبون أمام نفوسهم : { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [النحل : 118] فلم نفاجئهم بعقوبة على شيء لم نُبصِّرهم به ، إنما أرسلنا إليهم رسولاً يأمرهم وينهاهم ويُبشِّرهم وينذرهم .

والإنذار بالشر قبل أن يقع نعمة من النعم ، كما قلنا في سورة الرحمن عن قوله تعالى : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 35 – 36] وهل النار والشواظ نعمة؟ نعم نعمة؛ لأننا نحذرك منها قبل وقوعها ، وأنت ما زِلْتَ في سعة الدنيا ، وأمامك فرصة الاستدراك .

والآيات – كما قلنا – تُطلَق على الآيات الكونية التي تلفت الناس إلى وجود الخالق الأعلى الذي أنشأ هذا الكون بهذه الهندسة البديعة ، وتُطلَق على المعجزات التي تثبت صِدْق الرسول في البلاغ عن الله ، وتُطلَق على الآيات الحاملة للأحكام وهي آيات القرآن .

وقد جئناكم بكل هذه الآيات تُتْلَى عليكم وتسمعونها وترونها ، ومع ذلك كذَّبْتم ، ومعنى { تتلى عَلَيْكُمْ . . } [المؤمنون : 105] أننا نبهناكم إليها ، ولفتْنَا أنظاركم إلى تأملها ، حتى لا تقولوا : غفلنا عنها .

قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106)

{ شِقْوَتُنَا . . } [المؤمنون : 106] أي : الشقاوة وهي الألم الذي يملك كل ملكات النفس لا يترك منها جانباً ، يقولون : فلان شقي يعني مُضيَّق عليه ومُتعَب في كل أمور حياته ، لا يرى راحة في شيء منها .

وكأنهم بقولهم : { غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا . . } [المؤمنون : 106] يريدون أن يُبعِدوا المسألة عن أنفسهم ويُلْقون بها عند الله تعالى ، يقولون : يا رب لقد كتبتَ علينا الشقوة من الأزل ، فلا

ذنبَ لنا ، وكيف نسعد نحن أنفسنا؟ يقولون : لو شاء ربنا ما فعلنا ذلك .
ونقول لهم : لقد كتب الله عليكم أزلاً؛ لأنه سبحانة علم أنكم ستختارون هذا .

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107)

فوصفوا أنفسهم بالظلم ، كما قال سبحانه عنهم في آية أخرى : { وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [الأنعام : 28] .
فيقول الحق سبحانه : { قَالَ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ } .

قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108)

{ اخسئوا } [المؤمنون : 108] كلمة بليغة في الزجر تعني : السكوت مع الذّلة والهوان؛ لذلك يقولونها للكلاب ، وقد تقول لصاحبك : اسكت على سبيل التكريم له ، كما لو حدَّثك عن فضلك عليه ، وأنك قدَّمْتَ له كذا وكذا فتقول له : اسكت اسكت ، تريد له العزة ، وألاَّ يقف أمامك موقف الضعف والذلة .
والخسوء من معانيها أنك تضعف عن تحمُّل الشيء ، كما في قوله تعالى : { ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ } [الملك : 4] يعني : ضعيف عن تحمُّل الضوء .
وفي قوله سبحانه : { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذين اعتدوا مِنْكُمْ فِي السبت فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ } [البقرة : 65] يعني : مطرودون مُبْعدون عن سُمو الإنسانية وعِزّتها؛ لذلك نرى القردة مفضوحي السَّوْءة ، خفيفي الحركة بما لا يتناسب وكرامة الإنسان .
إذن : ليس المراد أنهم أصبحوا قردة ، إنما كونوا على هيئة القردة؛ لذلك نراهم حتى الآن لا يهتمون بمسألة العِرْض وانكشاف العورة .
إذن : المعنى { اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ } [المؤمنون : 108] اسكتوا سكوتاً بذلّة وهَوَان ، ويكفي ما صنعتموه بالمؤمنين بي؛ فيقول الحق سبحانه : { إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا . . } .

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109)

والمراد هنا الضعاف من المؤمنين أمثال عمار وبلال وخباب بن الأرت ، وكانوا يقولون هذا الكلام ، وهو كلام طيب لا يرد ، بل يجب أن يُسمع ، وأن يُحتذَى به ، ويُؤخَذ قدوة .

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110)

تكلمنا عن هذه المسألة في قوله تعالى : { إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } [المطففين : 29 – 36] .

إذن : اتخذ الكفار ضعاف المؤمنين محلَّ سخرية واستهزاء ، وبالغوا في ذلك ، حتى لم يَعُدْ لهم شُغل غير هذا ، وحتى شغلهم الاستهزاء والسخرية عن التفكّر والتأمل فلم يَبْقَ عندهم طاقة فكرية تفكر فيما آمن به هؤلاء ، وهذا معنى : { حتى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي . . } [المؤمنون : 110] أي : شغلكم الاستهزاء بالمؤمنين عن الإيمان بمَنْ خلقكم وخلقهم .

ويا ليت الأمر توقّف عند هذا الحد من السخرية ، إنما تعداه إلى أن يضحكوا من أهل الإيمان ، ويُضِحكوا أهلهم { وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ } [المؤمنون : 110] وفي الآية الأخرى : { وَإِذَا انقلبوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ } [المطففين : 31] وسخرية أهل الباطل من أهل الحق موجودة في كل زمان ، وحتى الآن نرى مَنْ يسخرون من أهل الاستقامة والدين والورع ويتندَّرون بهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنِّي جَزَيْتُهُمُ اليوم بِمَا صبروا أَنَّهُمْ . . } .

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111)

لما صبر أهل الإيمان على الاستهزاء والسخرية عوَّضهم الله تكريماً ونعيماً ، وهذه مسألة يجب ألاَّ يغفل عنها المؤمن حين يسخر منه أعداؤه ، عليه أن يتذكر عطاء ربه وجزاء صبره ، وإنْ كان الساخر منك عبداً له قدرته المحدودة ، فالمكرِّم لك ربك بقدرة لا حدودَ لها ، ولك أن تقارن إذن بين مشقة الصبر على أذاهم ، ولذة النعيم الذي تجده بعد ذلك جزاء صبرك .

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112)

لبث : مكث وأقام ، فالمعنى : ما عدد السنين التي ظللتموها في الأرض ، لكن لماذا هذا السؤال؟

قالوا : لأن الذي شغلكم عن دين يضمن لكم ميعاداً خالداً ، ونعيماً باقياً هو الدنيا التي صرفتكم بزينتها وزخرفها وشهواتها – وعلى فرض أنكم تمتعتم بهذا في الدنيا – وعلى فرض أنكم تمتعتم بهذا في الدنيا – فهل يُقارن بما أُعِدَّ للمؤمنين في الآخرة من النعيم المقيم الذي لا يفوتهم ولا يفوتونه؟

والقيامة حين تقوم ستقوم على قوم ماتوا في ساعتها ، فيكون لبثهم قريباً ، وعلى أناس ماتوا من

أيام آدم فيكون لبثهم طويلاً ، إذن : فاللبث في الأرض مقول بالتشكيك كما يقولون ، لكن هل يدرك الأموات المدة التي لبثوها في الأرض؟ معلوم أنهم لا يدركون الزمن؛ لأن إدراك الزمن إنما يتأتَّى بمشاهدة الأحداث ، فالميت لا يشعر بالزمن؛ لأنه لا يعيش أحداثاً ، كالنائم لا يدري المدة التي نامها ، وكُلُّ مَنْ سُئِلَ هذا السؤال قال { يَوْماً أَوْ بَعْضَ . . } [البقرة : 259] .

قالها العُزَير الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ، وقالها أهل الكهف الذين أنامهم الله ثلاثمائة سنة وتسعاً؛ لأن هذه هي أطول مدة يمكن أن يتخيلها الإنسان لنومه ، ولا يستطيع النائم تحديد ذلك بدقة؛ لأن الزمن ابْنُ الحدث ، فإن انعدم الحدث إنعدم الزمن .

لذلك يقول تعالى عَمَّنْ ماتوا حتى من أيام آدم عليه السلام : { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا } [النازعات : 46] .

وكذلك يقول هؤلاء أيضاً في الإجابة على هذا السؤال : { قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ . . } .

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113)

أي : أصحاب العدِّ الذين يمكنهم العدُّ والحساب؛ لأننا لم نكن في وعينا لنعُد كما لبثنا ، والمراد بالعادِّين هم الملائكة الذين يعدُّون الأيام ويحسبونها .

قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114)

إنْ : بمعنى ما ، يعني : ما لبثتم إلا قليلاً ، فمهما قدَّرْتم من طول الحياة حتى مَنْ مات منذ أيام آدم عليه السلام ، فسيكون قليلاً بالمقارنة بالزمن الذي ينتظركم في الجزاء الأخروي ، فما لبثتموه في الدنيا لا يُقَاس بعذاب الآخرة الممتد الباقي ، هذا { لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [المؤمنون : 114] تعلمون طول ما تصيرون إليه من العذاب الخالد المقيم .

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)

(حسبتم) ظننتم يعني : ماذا كنتم تظنون في خَلْقنا لكم؟ كما قال في موضع آخر : { أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } [العنكبوت : 2] وكلمة { عَبَثاً . . } [المؤمنون : 115] العَبَث هو الفعل الذي لا غايةَ له ولا فائدةَ منه ، كما تقول : فيم تعبث؟ لمن يفعل فِعْلاً لا جدوى منه ، وغير العبث نقول : الجد ونقول : اللعب واللهو ، كلها أفعال في حركات الحياة . لكن الجد : هو أن تعمل العمل لغاية مرسومة .

أما اللعب فهو أن تعمل عملاً هو في واقع الأمر لا غاية له الآن إلا دُرْبتك أنت على الحركة

وشُغْل ملكاتك حتى لا تتوجه إلى فساد شيء أو الإضرار بشيء ، كما تشتري لولدك لعبة يلهو بها ، وينشغل بها عن الأشياء القيِّمة في المنزل ، والتي إنْ لعب بها حطّمها ، فأنت تصرف حركاته إلى شيء لتمنعه عن أشياء ضارة ، أو تُعلِّمه باللعب شيئاً يفيده فيما بعد ، كالسباحة أو ركوب الخيل .

واللهو كاللعب في أنه يكون لغاية قد تأتي بعد ، أو لغاية تنفي ضرراً ، إلا أن اللعب حين تزاوله لا يشغلك عن مطلوب ، أما اللهو فهو الذي يشغلك عن مطلوب ، فمثلاً الطفل دون السابعة يلعب في أوقات الصلاة ، فيُسمّى فعله لعباً ، فإنْ كان في العاشرة يُسمَّي فِعْله لَهْواً؛ لأنه شغله عن الصلاة ، وهي واجبة عليه .

واللعب يُدربك على أشياء قد تحتاجها وقت الجد فتكون سهلة عليك ، أما العبث فلا فائدةَ منه ، لذلك قال سبحانه : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً . . } [المؤمنون : 115] فنفي أن يكون الخَلْق عبثاً بلا غاية؛ لأن الله تعالى خلق الخَلْق لغاية مرسومة ، ووضع لها منهجاً يحدد هذه الغاية ، ولا يضع المنهج للخَلْق إلا الخالق .

كما قلنا سابقاً : إن الصانع الذي صنع هذا الميكروفون لم يصنعه ثم طلب منا أن نبحث له عن مهمة ، إنما قبْل أنْ يصنعه حدد له مهمته والغاية منه ، وهي أن ينقل الصوت لمسافات بعيدة ، إذن : فالغاية مرسومة بدايةً وقبل العمل .

فالذي يحدد الغاية هو الصانع المبدع للشيء ، وهو أيضاً الذي يحدد صلاح الصنعة لغايتها ، ويحدد قانون صيانتها لتؤدي مهمتها على أكمل وجه ، وأنت أيها الإنسان صنعة الله فَدَعْهُ يحدد لك غايتك ، ويضع لك منهج حياتك وقانون صيانتك ، بافعل كذا ولا تفعل كذا .

إذن : فساد الدنيا يأتي من ان الصنعة تريد أن تأخذ حق الصانع في تحديد الغاية ، وفي تحديد المنهج ، وقانون الصيانة ، وليس من مهمتها ذلك ، والخالق حينما يحدد لك المنهج الذي يُعينك على غايتك ، إنما أنت : متى تستطيع أن تدرك الأشياء لتضع غاية أو تضع قانون الصيانة؟

إنك لا يمكن أن تبلغ هذا المبلغ قبل سِنّ العشرين على أحسن تقدير ، فمَنْ – إذن – يضع لك غايتك وقانون صيانتك قبل هذه السنّ؟ لا أحدَ غير خالقك عز وجل ، ولن يستقيم الحال إلا إذا تركنا الصَّنْعة للصانع غايةً ومنهجاً وصيانة .

وكيف تظن أن الله تعالى خلقك عَبثاً ، وهو الذي استدعاك للوجود وأعدَّ لك مُقوِّمات حياتك وضرورياتها ، وحثَّك بإعمال عقلك في هذه المقومات لتستطيع أن تُرفِّه بالطاقة والقدرة المخلوقة لله تعالى لتُسعِدَ نفسك وتُرفِّه حياتك .

وقد كنا في الماضي نجلس على ضوء المسرجة ، والآن على أضواء النيون والكريستال ، ومهما ترفهت حياتك وتوفرت لك وسائل الراحة فلا تنْسَ أنها عطَاء من الله في المادة وفي الطاقة وفي

العقل المفكر ، كلها مخلوقة لله عزَ وجل ، لا تملك أنت منها شيئاً ، بدليل أن الله إذا سلبك العقل لَصِرت مجنوناً ، ولو سلبك الطاقة والقدرة لصرتَ ضَعيفاً لا تستطيع مجرد التنفس ، فهذه نِعَمٌ موهوبة لك ليست ذاتية فيك .

إذن : عليك أن تتأمل في خالقك عز وجل ، وما وهبك من مقومات الحياة ، لتعلم أن هذا الخَلْق لا يمكن أن يكون عبثاً ، ولا بد أن له غاية رسمها الخالق سبحانه ، وأنت في ذاتك تحاول أن تضع لك غاية في جزئية ما من الغاية الكبرى التي خلقك الله لها .

أَلاَ ترى الولد الصغير كيف تعتني به وتُعلِّمه وتنفق عليه مرحلة بعد الأخرى ، حتى يصل إلى الجامعة ، وتتعلق أنت بأمل كبير في أن يكون لولدك هذا مكانة في المجتمع ومنزلة بين الناس؟ هذه العملية في حد ذاتها غاية ، لكن بعد أن يحصل على الوظيفة المرموقة والمكانة والمنزلة ينتهي الأمر بالموت .

إذن : لا بُدَّ من وجود غاية أخرى أعظم من هذه ، غاية لا يدركها الفناء ، وليس لها بعد ، هذه الغاية الكبرى هي لقاء الله وملاقاة الجزاء ، إما إلى الجنة وإما إلى النار .

وعلينا أن نأخذ كل مسائل الحياة وجزئياتها في ضوء هذه الحقيقة ، أننا لم نُخلَق عَبثاً ، بل لغاية مراده لله ، ولها أسباب توصل إليها .

ثم يقول سبحانه : { وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ } [المؤمنون : 115] (تُرجَعون) يعني : رَغْماً عنكم ، ودون إرادتكم ، كأن شيئاً ما يسوقهم ، كما في قوله تعالى : { يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا } [الطور : 13] يعني : يُدفعون إليها ، ويُضربون على أقفائِهم ، ويُسَاقون سَوْقَ الدواب .

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116)

{ فَتَعَالَى . . } [المؤمنون : 116] تنزَّه وتقدَّس ، وكلمة العلو تعني علو المنزلة . نقول : علا فلان على فلان ، أما حين نقول : تعالى الله ، فالمراد العلو الأعلى ، وإن وهب علواً للغير فهو عُلو الداني ، وعلو المتغير ، بدليل أنه تعالى يُعليك ، وإنْ شاء سلبك ، فالعلو ليس ذاتياً فيك .

وكلمة المِلك نعرفها فيمَنْ يملك قطعة من الأرض بمَنْ فيها ويحكم وله رعية ، ومن هذه المادة : المالك . ويُطلَق على أيّ مالك لأيّ شيء ، ولو لم يكن لديه إلا الثوب الذي يلبسه فهو مالك ، أما : المَلِك فهو مَنْ يملك الذين يملكون ، فله ملك على المالكين ، وهذا المَلِك لم يأخذ مُلْكه بذاته ، إنما بإيتاء الله له .

لذلك يقول تعالى : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ . . } [آل عمران : 26] .

فلو كان مُلْك هؤلاء الملوك ذاتياً ما نُزِع منهم ، أَلاَ ترى المِلك من ملوك الدنيا يقوي ويستتب له

الأمر ، ويكون له صولجان وبَطْش وفَتْك . . إلخ ، ومع كل هذا لا يستطيع الاحتفاظ بملكه؟ وفي لحظة ينهار هذا المُلْك ولو على يد جندي من جنوده ، بل وربما تلفظه بلاده ، ولا تقبل حتى أنْ يُدفن بها ، وتتطوع له بعض الدول ، وتقبل أنْ تُواري رفاته بأرضها ، فأيُّ ملك هذا؟

وهذه آية من الآيات نراها في كل عصر – وكأنها قائمة – دليلاً على صدق الآية : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ . . } [آل عمران : 26] إذن : إنْ ملكك الله فاعلم أنه مُلْك موهوب ، مهما استتب لك فلا تضمن بقاءه؛ لأن الله تعالى ملَّكك لغاية ، ولا يملك الغاية إلا هو سبحانه .

لذلك كان الحق – سبحانه وتعالى – { الملك الحق . . } [المؤمنون : 116] يعني : الذي لا يزحزحه أحد عن مُلْكه ، أو يسلبه منه ، وهو الذي يتصرّف في مُلْكه كيف يشاء لا ينازعه فيه أحد ، وإنْ أعطى من باطن مُلْكه تعالى مُلْكاً لأحد ، فيظل في يده سبحانه زمام هذا المُلْك ، إنْ شاء بسطه ، وإنْ شاء سلبه ونزعه . فهو وحده الملك الحق ، أما غيره فمُلْكهم موهوب مسلوب ، وإنْ مَلَّك سبحانه أناساً . أَمْرَ أناس في الدنيا يأتي يوم القيامة فيقول : { لِّمَنِ الملك اليوم . . } [غافر : 16] .

وتلحظ أن كلمة { تُؤْتِي الملك . . } [آل عمران : 26] سهلة على خلاف { وَتَنزِعُ الملك . . } [آل عمران : 26] ، ففي النزع دليل على المشقة والمعاناة؛ لأن صاحب المُلْك يحاول أن يتمسك به ويتشبَّث وينازع ، لكن أينازع الله؟

فقوله سبحانه : { فَتَعَالَى الله الملك الحق . . } [المؤمنون : 116] المراد : تعالى عن أن يكون خَلْقكم عَبثاً ، وتعالى عن أنْ تشردوا من قبضته ، أو تخرجوا عن نفوذه ، أو تستقِلُّوا بخَلْقكم عن سيطرته ، وتعالى أن تُفلتوا من عقابة أو تمتنعوا عنه؛ لأنه لا إله غيره : { لاَ إله إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش الكريم } [المؤمنون : 116] .

فالحق تبارك وتعالى يحكم في إطار : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ * الله الصمد * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ } [الإخلاص : 1 – 4] .

فإذا قال لك شيئاً فاعلم أنه لا إله غيره يعارضه .

والعرش : رمز لاستتباب الأمر للمالك؛ لأنه ينشغل بتدبير مُلْكه والقَضاء على المناوئين له وتأديب أعدائه ، فإذا ما استتبّ له ذلك جلس على عرشه ، إذن : الجلوس على العرش يعني استقرارَ الأمور واستتباب أمر الملك؛ لذلك فإن الحق سبحانه بعد أن خلق الخَلْق استوى على العرش .

والعرش يفيد أيضاً السيطرة والتحكم ، وعَرْش الله عرش كريم؛ لأنه تعالى عليك لا ليُذلّك ويهنيك ، وإنما تعالى عليك ليعاليك إليه ويعطيك من فضله . كما سبق أنْ قُلْنا : إن من

مصلحتنا أن يكون الله تعالى مُتكبِّراً ، ومن عظمة الحق سبحانه أن يكون له الكبرياء ، فساعة يعلم الجميع أن الكبرياء لله وحدة لا يتكبر أحد على أحد .

يقول الحق سبحانه : { وَلَهُ الكبريآء فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم } [الجاثية : 37] .

لذلك يقولون في الأمثال : (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) يعني : ليعيش في ظله ، فالحق – تبارك وتعالى – يتعالى لصالح خَلْقه .

ومن ذلك ما قُلْناه في مسألة العبودية ، وأنها مكروهه ثقيلة إنْ كانت للبشر؛ لأن السيد يأخذ خير عبده ، إنما هي محبوبة إنْ كانت لله تعالى؛ لأن العبودية لله يأخذ العبد خير ربه .

فإنْ كانت عروش الدنيا للسيطرة والتحكُّم في مصائر الناس وامتصاص دمائهم وأَخْذ خيراتهم ، فعرش ربك عَرْش كريم ، والكريم في كل شيء أشرف غاياته ، اقرأ قوله تعالى : {كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ } [الدخان : 25 – 26] .

وحين يوصينا بالوالدين ، يقول سبحانه : { وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً } [الإسراء : 23] .

فالعرش الكريم أشرف غايات المُلْك؛ لأن المُلْك ليس تسلُّطاً وقَهْراً ، إنما هو مَلْك لصالح الناس ، والحق – تبارك وتعالى – حينما خلق الحياة وزَّع فيها أسباب الفضل ، ولكنه جعل فيها القويّ القادر ، وجعل فيها الضعيف العاجز ، ثم أمر القوي أنْ يأخذ بيد الضعيف ، وأنْ يعوله ، فالكرم استطراق نفع القوى للضعيف ، فكل خَصلْة من خصال الخير توصف بالكرم .

إذن : إياك أن تفهم أن عرش ربك للسيطرة والعُلو والجبروت؛ لأنه عرش كريم .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَن يَدْعُ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ . . } .

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117)

{ يَدْعُ مَعَ الله . . } [المؤمنون : 117] يعني : يعبد مع الله ، والعبادة طاعة المعبود في أمره ونَهْيه ، لكن كيف تدعو إلهاً ، لا ينفعك ولا يضرُّك ، ولا برهانَ عندك على ألوهيته؟ لذلك هدده سبحانه وتوعّده بقوله : { فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ . . } [المؤمنون : 117] أي : ربه الحق { إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون } [المؤمنون : 117] .

وعجيبٌ أن تبدأ السورة بقوله تعالى : { إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون } [المؤمنون : 117] أي : بنقيض ما بدأتْ به ، وعليك أنت أنْ تتأمل ما بين هذين القوسين ، وما دامت المسألة مسألة إيمان يفلح أهله ، وكفر لا يفلح أهله ، فتمسَّكوا بربكم ، والتزموا منهجه في (افعل) و (لا تفعل) .

وإنْ غلبتكم النفس على شيء من الذنوب فتذكَّروا : { وَقُل رَّبِّ اغفر وارحم . . } .

وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)

إنْ هفوتم هفوة فإياكم أن تنسُوا هذه الحقيقة ، والجئوا إلى ربكم فإنه غفار شرع لكم التوبة لتتوبوا ، والاستغفار لتستغفروا ، وهو سبحانه أرحم بكم من الوالدة بولدها ، وهو خير الراحمين .

والمعنى { اغفر . . } [المؤمنون : 118] أي : الذنوب السابقة الماضية { وارحم . . } [المؤمنون : 118] أي : ارحمنا أن نقع في الذنوب فيما بعد ، واعصمنا في مستقبل حياتنا من الزلل . إذن : تمسَّك بربك وبمنهج ربك في كل حال ، لا يصرفك عنه صارف .

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1)

اسمها سورة (النور) ، وإذا استقرأنا موضوع المُسمَّى أو المُعْنون له بسورة (النور) تجد النور شائعاً في كل أعطافها – لا أقول آياتها ولا أقول كلماتها – ولكن النور شائع في كل حروفها ، لماذا؟

قالوا : لأن النور من الألفاظ التي يدل عليها نطقها ويعرفها أكثر من أيّ تعريف آخر ، فالناس تعرف النور بمجرد نُطْق هذه الكلمة ، والنور لا يُعرَّف إلا بحقيقة ما يؤديه ، وهو ما تتضح به المرئيات ، وتتجلى به الكائنات ، فلولا هذا النور ما كنا نرى شيئاً .

إذن : يُعرف النور بخاصيته ، وهو الذي يجعل لك قدرة على أن ترى المرئيات ، بدليل أنها إنْ كانت في ظلمة لا تراها . إذن : فالنور لا يُرَى ، ولكن نرى به الأشياء ، فالله تعالى نور السموات والأرض يُنوِّرهما لنا ، لكن لا نراه سبحانه .

لكن ، هل كل الأشياء مرائي؟ أليس منها المسموع والمشموم والمتذوّق؟ قالوا : نعم ، لكن الدليل الأول على كل هذه وفعل الحوادث هي المرئيات؟ لأن كل أدلة الكون مرئية نراها أولاً ، ثم حين تسمع ، وحين تشم ، وحين تلمس ، وحين تميز الثقيل من الخفيف ، أو القريب من البعيد . فهذا كله فرع ما يوجد فيك ، بعد ما تؤمن أن الله الذي أوجدك هو الذي أوجد لك كل شيء ، فإذا ما نظرت إلى النور وجدتَ النور أمراً حسياً ترى به الأشياء .

وكانوا في الماضي يعتقدون أن الإنسان يبصر الأشياء بشعاع يخرج من العين ، فيسقط على الشيء فتراه ، إلى أن جاء العالم الإسلامي الحسن بن الهيثم ، وأبطل هذه النظرية وقال : إن الشعاع يأتي من المرئي إلى العين فتراه ، وليس العكس ، واستدل على ذلك بأن الشيء إنْ كان في الظلام لا نراه ، ونحن في النور ، فلو أن الشعاع يخرج منك لرأيته .

وفي ضوء هذه النظرية فهمنا قوله تعالى : { وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً . . } [الإسراء : 12] فهي مُبْصِرة؛ لأن الشعاع يأتي من هناك ، فكأنها هي التي ترى .

لكن ، ما نَفْع هذا النور الحسيّ للإنسان الخليفة في الأرض؟ أنت حين ترى الأشياء تتعامل معها تعاملاً يعطيك خيرها ويكفّ عنك شرها ، ولو لم تَرَ الأشياء ما أمكنك التعامل معها ، وإلا فكيف تسير في مكان مظلم فيه ما يؤذيك مثل الثعابين أو زجاج متكسر؟

إذن : لا تستطيع أن تهتدي إلى مواضع قدمك ، وتأخذ خير الأشياء ، وتتجنب شرها إلا بالنور الحسيّ ، كذلك إنْ سِرْت في ظُلْمة وعلى غير هُدىً ، فلا بُدَّ أن تصطدم بأقوى منك فيحطمك ، أو بأضعف منك فتحطمه .

لذلك سمَّى الحق – تبارك وتعالى – المنهج الذي يهديك في دروب الحياة نوراً .

والناس حين لا يوجد النور الرباني الإلهي يصنعون لأنفسهم أنواراً على قَدْر إمكاناتهم وبيئاتهم بداية من المسرجة ولمبة الجاز ، وكان الناس يتفاوتون حتى في هذه – حتى عصر الكهرباء والفلوروسنت والنيون وخلافة من وسائل الإضاءة التي يتفاوت فيها الناس تفاوتاً كبيراً ، هذا في الليل ، فإذا ما أشرقتْ الشمس أطفأ الجميع أنوارهم ومصابيحهم ، لماذا؟ لأن مصباح الله قد ظهر واستوى فيه الجميع لا يتميز فيه أحد عن أحد .

وكذلك النور المعنوي نور المنهج الذي يهديك إنْ كان لله فيه توجيه ، فأطفيء مصابيح توجيه البشر لا يصح أن تستضيء بنور ونورُ ربك موجود ، بل عليك أن تبادر وتأخذ ما تقدر عليه من نور ربك ، فكما أخذتَ نور الله الحسيّ فألغيتَ به كل الأنوار ، فخُذْ نور الله في القيم ، خُذْ نُور الله في الأخلاق وفي المعاملات وفي السلوك يغنيك هذا عن أيّ نور من أنوار البشر ومناهجهم .

أَلاَ ترى النمرود كيف بُهِتَ حينما قطع عليه إبراهيم – عليه السلام – جدله وألجأه إلى الحجة التي لا يستطيع الفكاك منها ، حين قال له : { فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب . . } [البقرة : 258] .

والحق – تبارك وتعالى – يفيض من أنواره وصفات كماله على خَلْقه الذين جعلهم خلفاء له سبحانه في الأرض ، فقال : { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً . . } [البقرة : 30] والخليفة في الأرض ليس جيلاً واحداً خلقه الله واستخلفه في الأرض إلى قيام الساعة ، إنما الخليفة أجيال وأنسال تتوالى ، يموت واحد ويُولَد آخر في حلقات موصولة الأنسال لا الذوات .

والخليفة لا ينجح في خلافته إلا إذا سار فيها على وَفْق مراد مَن استخلفه ، وآفة الناس في خلافتهم لله في الأرض أنْ يعتبروا أنفسهم أُصَلاء لا خلفاء ، فالخليفة في ذِهْنه دائماً هذه الخلافة؛ لذلك يلتفت إلى الأصل ، وينظر ماذا يريد منه مَن استخلفه .

والحق – تبارك وتعالى – جعل له خليفة في الأرض لتظهر عليه سمات قدرته تعالى وصفات كماله ، فالله تعالى قادر ، الله عالم ، الله حكيم ، الله غنيّ ، الله رحيم ، الله غفور . . الخ وهو سبحانه

يعطي من صفاته ويفيض منها على خَلْقه وخليفته في أرضه بعضاً من هذه الصفات ، فيعطيك من قدرته قدرة ، ومن رحمته رحمةً ، ومن غنائه غِنىً ، لكن تظل الصفة في يده تعالى أنْ شاء سلبها ، أَلاَ ترى القوي قد يصير ضعيفاً ، والغني قد يصير فقيراً؟

ذلك لنعلم أن هذه الصفات ليست ذاتية فينا ، وأن هذه الهبات ليست أصلاً عندنا ، إنما هي فَيْض من فيض الله وهبةٌ من هباته سبحانه ، لذلك علينا أن نستعملها وَفْق مراده تعالى ، فإنْ أعطاك ربُّك القدرة فإنما أفاض بها عليك لتفيض أنت بها على غيرك ، أعطاك العلم لتنشره على الناس ، أعطاك الغنى لترعى حق الفقير .

إذن : ما دام أن الله تعالى أفاض عليك من صفات الكمال واحتفظ هو سبحانه بملكية هذه الصفات ، فإنْ شاء سلبها منك ، فعليك أن تستغل الفرصة وتنتهز وجود هذه الخَصْلة عندك ، فتُثمِّرها فيما أراده الله منك قبل أنْ تُسلَب ، حتى إذا سُلِبَتْ منك نالتك من غيرك .

فتصدَّق وأنت غني لتنال صدقة الآخرين إنْ أصابك الفقر ، وأكرم اليتيم لتجد مَنْ يُكرم يتيمك من بعدك ، فإنْ قابلتَ أحداث الحياة بهذه النظرة اطمأنَّ قلبك ، وأمِنْتَ من حوادث الزمن ، واستقبلتَ الأحداث بالرضا ، وكيف تهتم وأنت في مجتمع يرعاك كما رعيته ، ويحملك كما حملته ، ويتعاون معك كما تعاونتَ معه؟

وصدق الله تعالى حين قال : { وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ الله وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً } [النساء : 9] .

إذن : الحق – تبارك وتعالى – يريد من خليفته في أرضه أن يكون جِماعاً لصفات الكمال التي تسعد الخَلْقَ بآثار الخالق فيهم ، وهذه هي الخلافة الحقة .

وسورة النور جاءت لتحمل نور المعنويات ، نور القيم ، نور التعامل ، نور الأخلاق ، نور الإدارة والتصرف ، وما دام أن الله تعالى وضع لنا هذا النور فلا يصح للبشر أنْ يضعوا لأنفسهم قوانين أخرى؛ لأنه كما قال سبحانه : { وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ } [النور : 40] فلو لم تكُنْ هذه الشمس ما استطاع أحد أنْ يصنع لنفسه نوراً أبداً .

فالحق – تبارك وتعالى – يريد لخليفته في أرضه أن يكون طاهراً شريفاً كريماً عزيزاً؛ لذلك وضع له من القوانين ما يكفل له هذه الغاية ، وأول هذه القوانين وأهمها قانون التقاء الرجل والمرأة التقاء سليماً في وضح النهار؛ لينتج عن هذا اللقاء نَسْل طاهر جدير بخلافة الله في أرضه؛ لذلك أول ما تكلم الحق سبحانه في هذه السورة تكلَّم عن مسألة الزنى .

والعجيب أن تأتي هذه السورة بعد سورة (المؤمنون) التي قال الله في أولها { قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون } [المؤمنون : 1] ثم ذكر من هؤلاء المؤمنين المفلحين { والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ } [المؤمنون : 5] وهنا قال : { الزانية والزاني . . } [النور : 2] فجاء بالمقابل للذين هم

لفروجهم حافظون .
نفهم من هذا أنه لا يلتقي رجل وامرأة إلا على نور من الله وهدى من شريعته الحكيمة؛ لأنه عز وجلَّ هو خالق الإنسان ، وهو أعلم بما يُصلحه ، وهو خالق ذرّاته ، ويعلم كيف تنسجم هذه الذرات بعضها البعض ، وهو سبحانه خالق مَلَكات النفس ، ويعلم كيف تتعايش هذه الملكات ولا تتنافر .
إذن : طبيعي أنْ أردتَ أن تنشيء خليفة في الكون على غير مراد الله وعلى غير مواصفات الحق ، لا بُدَّ أنْ يضطرب الكون وتتصارع فيه مَلكات النفس ، وماذا تنتظر من هذا الخليفة إنْ جاء في الظلام؟ ساعتها تظهر أمراض النسل من وَأْد الأولاد وقتلهم حتى في بطون الأمهات ، وقد يتشكّك الرجل في ولده ، فيبغضه ويهمله ويتركه للتشرد .
إذن : لن تستقيم هذه المسألة إلا حين يأتي الخليفة وَفْق مواصفات ربه ، وأنْ يلتقي الزوجان على ما شرع الله في وضح النهار ، لا أن يندس كل منهما على الآخر في ظلمة الإثم ، فيحدث المحظور الذي تختلط به الأنساب ، ويتفكك رباط المجتمع .

إن من أقسى تجارب الحياة على المرء أن يشكَّ في نِسْبة ولده إليه ، وأن تعتصره هذه الفكرة ، فيهمل ولده وفلذة كبده ، وينفق هنا وهناك ويحرمه على خلاف النسْل الطاهر ، حيث يتلهف الأب لولده ، ويجوع ليشبع ، ويتعرّى ليلبس .
فالحق سبحانه يريد النسل المحضون بالأبوين في أُبوة صحيحة شرعية وأمومة صحيحة شرعية اجتمعا على نور الله .
ولك أنْ تُجري مقارنة بين امرأة حملتْ سفاحاً وأخرى حملتْ حَمْلاً شرعياً طاهراً ، ستجد الأولى تحمله على مضض وكُرْه ، وتودّ أنْ تتخلَّص منه وهو جنين في بطنها ، فإنْ تحاملتْ على نفسها إلى حين ولادته تخلَّصتْ منه في ليلتها ولو بإلقائه على قارعة الطريق .
أما صاحبة الحمل الشرعي فتتلهف على الولد ، وإنْ تأخر بعض الوقت صارت قلقة تدور بين الأطباء ، فإنْ أكرمها الله بالحمل طارت به فرحاً وفخراً ، وحافظت عليه في مَشْيها وحركاتها ونومها وقيامها إلى حين الوضع ، فتتحمل آلامه راضيةً ثم تحتضنه وتُرضِعه وتعيش حياتها في خدمته ورعايته .
فالله يريد أن يأتي خليفته في أرضه من إخصاب طاهر على اعْيُنِ الناس جميعاً وفي نور الله المعنوي ، يريد للزوج أن يأتي من الباب في ضوء هذا النور ، لا أن يتلصص في الظلام من باب الخدم .
لذلك يتوعد الحق – سبحانه وتعالى – مَنْ يخالف هذا المنهج ويريد أن يُفسِد شرف الخلافة التي يريدها الله طاهرة ، ويُدنِّس النسل ، ويُوغِر الصدور بالأحقاد والعداوات ، ويزرع الشك في نفوس الخَلْق ، وجرائم العرض لا يقتصر ضررها على العداوات الشخصية إنما تتعدى هذه إلى

الإضرار بالمجتمع كله .

وانظر إلى الإيدز الذي يهدد المجتمعات الآن ، وهو ناتج عن الالتقاء غير الشرعي ، وخطر الإيدز لا يقتصر على طرفيه إنما يتعدّاها إلى الغير ، إذن : من صالح المجتمع كله أن نقيم حدَّ الزنا حتى لا يستشري هذا الداء .

ونعجب من هؤلاء الذين يهاجمون شَرْع الله في مسألة الحدود حين تقضي برَجْم الزاني المُحْصَن حتى الموت ، أَلاَ يعلم هؤلاء أننا نُضحِّي بواحد لنحفظ سلامة الملايين في صحة وعافية؟ أَلاَ يروْنَ ما يحدث مثلاً في وباء الطاعون الذي أعجز العلماء حتى الآن ، ولم يجدوا له علاجاً ، وكيف أن الشرع أمرنا إنْ نزل الطاعون بأرض ألاَّ نذهب إليها ، وأمر مَنْ فيها ألاَّ يخرجوا منها ، لماذا؟ لنحصر هذا الوباء حتى لا يستشري بين الناس .

كذلك الحال في مسألة الزنا؛ لأن الزاني لا يقتصر شرُّه عليه وحده ، إنما يتعدّى شرُّه إلى المجتمع كله ، مع مراعاة أن الشرع فرَّق بين الزاني المحصن وغير المحصن ، وكذلك الزانية ، ففي حالة الإحصان تتعدد الماءات في المكان الواحد ، لذلك سُئلنا في سان فرانسيسكو : لماذا أبحتم تعدُّد الزوجات ، ولم تبيحوا تعدُّد الأزواج؟ هذا منهم على سبيل قياس الرجل على المرأة : لماذا لا تتزوج المرأة وتجمع بين أربعة رجال؟

قلت : اسألوهم ، أليس عندهم أماكن يستريح فيها الشباب جنسياً – يعني بيوت للدعارة – قالوا : نعم في بعض الولايات ، قلت : فبماذا احتطتم لصحة المجتمع وسلامته؟ قالوا : نُجرِي عليهم كشفاً دورياً كل أسبوع ، قلت : وهل هذا الكشف الدوري يستوعب الجميع؟ أم أنه مجرد (ششن) وعينات عشوائية .

إذن : من الممكن أن يتسرّب المرض بين هؤلاء الشباب ، وهَبْ أنك أجريتَ على إحداهن الكشف يوم الأحد مثلاً ، وفي يوم الاثنين جاءها المرض ، فإلى كم واحد سينتقل المرض إلى أنْ يأتي الأحد القادم؟ فهذه مسألة لا تستطيع السيطرة فيها على الداء .

ثم أتُجرون هذه الفحوصات على المتزوجين والمتزوجات؟ وهل اكتشفتم بينهم مثل هذه الأمراض؟ قالوا : لا لم يحدث أن اكتشفنا هذا بين المتزوجين . قلت : إذن كان عليكم أنْ تنتبهوا إلى سبب هذه الداءات ، وأنها تأتي من تعدُّد ماءات الرجال في المكان الواحد؛ لأن كل ماء سياله وله ميكروبات تتصارع ، إن اجتمعت في المكان الواحد فينشأ منها المرض .

لكن حين يكون للزوجة زوج واحد ، فلن نرى مثل هذه الداءات في المجتمع ، ومن هنا يأتي دور الوازع الديني ، فإن فُقِد الوازع الديني فلا بُدَّ من الوازع الحسيّ ليزجر مثل هؤلاء ويُوقِفهم عند حدود الله رَغْماً عنهم ، حتى وإنْ لم يكونوا يؤمنون بها .

إذن : هذه أقضية ومشاكل وداءات حدثتْ للناس بقدر ما أحدثوا من الفجور ، وبقدر ما

انتهكوا من حُرُمات الله ، وانظر مثلاً لمن يُضطرّ للسفر إلى مثل هذه البلاد ، كم يكون حَذراً مُفزَّعاً حين يقيم مثلاً في فندق ، فيأخذ أدواته الشخصية ، ويخاف أن يستعمل أشياء غيره ، ويحرص على نظافة المكان وتغيير الفراش قبل أن ينام عليه . . الخ كل هذه الاحتياطات .

فالشرع حين يأمر بقتل الزاني أو الزانية إنما فعل ذلك ليسْلَمَ المجتمع بأسْره ، وكثيراً ما نواجه مثل هذه الاعتراضات من أصحاب الرحمة الحمقاء والشعارات الجوفاء ، أهُم أرحم بالخَلْق من الخالق؟ أَلاَ يروْن للزلزال أو لحوادث السيارات والطائرات التي تحصد الآلاف من الأرواح؟ فلماذا هي الضجة حين نبتر العضو المريض من المجتمع؟

قوله تعالى : { سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا . . } [النور : 1] السورة : مأخوذة من سور البيت ، وهي طائفة من نجوم القرآن أو آياته محوطة ببداية ونهاية ، تحمل أحكاماً وقد تكون طويلة كسورة البقرة ، أو قصيرة كالإخلاص والكوثر ، فليس للسورة كمية مخصوصة؛ لأنها توقيفية .

{ أَنزَلْنَاهَا . . } [النور : 1] نفهم من أنزل أن الإنزال من أعلى إلى مَنْ هو أدنى منه ، كما يكتب الموظف مثلاً يريد التظلُّم لرئيسه : أرفع إليك كذا وكذا ، فيقول الأعلى : وأنا أنزلت القرار الفلاني ، فالأدنى يرفع للأعلى ، والأعلى يُنزِل للأدنى .

لذلك يقول تعالى : (أنزلنا) حتى للشيء الذي لا ينزل من السماء ، كما قال سبحانه :

{ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . } [الحديد : 25] فالحديد وإنْ كان مصدره الأرض ، إلا أنه لا يكون إلا بقدرة الأعلى سبحانه .

{ وَفَرَضْنَاهَا . . } [النور : 1] الشيء المفروض يعني الواجب أن يُعمل؛ لأن المشرّع قاله وحكم به وقدَّره ، ومنه قوله سبحانه : { فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ . . } [البقرة : 237] أي : نصف ما قدَّرتم ، إذن : كل شيء له حُكْم في الشرع ، فإن الله تعالى مُقدِّره تقديراً حكيماً على قَدْره .

وقوله تعالى : { وَأَنزَلْنَا فِيهَآ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . } [النور : 1] الآيات الواضحات ، وتُطلق الآيات – كما قلنا – على الآيات الكونية التي تلفت أنظارنا إلى قدرة الله وبديع صُنْعه ، وتُطلق على المعجزات التي تثبت صِدْق الرسل ، وتُطلق على آيات القرآن الحاملة للأحكام .

وفي هذه السورة كثير من الأحكام إلى أن قال فيها الحق سبحانه : { الله نُورُ السماوات والأرض . . } [النور : 35] وقال : { نُّورٌ على نُورٍ . . } [النور : 35] فطالما أنكم أخذتُم نور الدنيا ، وأقررتُم أنه الأحسن ، وأنه إذا ظهر ألغى جميع أنواركم ، فكذلك خذوا نور التشريع واعملوا به واعلموا أنه نور على نور . إذن : لديكم من الله نوران : نور حسي ونور معنوي .

{ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النور : 1] بعد أنْ قال سبحانه أنزلت كذا وكذا أراد أنْ يُلهب المشاعر لتُستقبل آياته الاستقبال الحسن ، وتُطبّق أحكامه التطبيق الأمثل يقول : أنزلتُ إليكم كذا

لعلكم تذكرون ، ففيها حَثٌّ وإلهابٌ لنستفيد بتشريع الحق للخَلْق .
ثم يتحدث الحق سبحانه عن أول قضية فيما فرضه على عبادة : { الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ . . } .

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2)

قلنا : إن الحق سبحانه تناول هذه المسألة حرصاً على سلامة النشء ، وطهارة هذا الإنسان الذي جعله الله خليفة له في الأرض ، وحين نتأمل السياق القرآني في هذه الآية نجد أن كلمة الزاني تدل على كُلٍّ من الأنثى والذكر ، ففي اللغة الاسم الموصول : الذي للمفرد المذكر ، والتي للمفردة المؤنثة ، واللذان للمثنى المذكر ، واللتان للمثنى المؤنث ، والذين لجمع الذكور ، واللائي لجمع الإناث .
لكن هناك أسماء تدل على كل هذه الصيغ مثل : مَنْ ، ما ، ال .
تقول : جاء مَنْ أكرمني ، وجاءت من أكرمتني ، وجاء من أكرموني .
فكذلك (ال) في (الزاني) تدل على المؤنث وعلى المذكر ، لكن الحق سبحانه ذكرهما صراحةً ليُزيلَ ما قد يحدث عند البعض من خلاف : أيهما السبب في هذه الجريمة ، هذا الخلاف الذي وقع فيه حتى الأئمة والفقهاء ، فهناك مَنْ يقول : الزاني واطئ وفاعل ، والمرأة موطوءة ، فالفعل للرجل لا للمرأة ، فهو وحده الذي يتحمل هذه التبعة .
لذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه يحكي « أن رجلاً ذهب للنبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله وطئت امرأتي في رمضان . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : » كَفِّر « » .
وأخذ الشافعي من هذا الحديث أن الكفارة إنما تكون على الرجل دون المرأة ، وإلا لقال له الرسول : كَفِّرا .
لكن يجب أن نفرق بين وطِئ وجامع : الوَطْءُ فعل الرجل حتى وإن كانت الزوجة كارهة رافضة ، أمَّا الجماع فهو حال الرضا والقبول من الطرفين ، وفي هذه الحالة تكون الكفارة عليهما معاً؛ لذلك صرَّح الحق تبارك وتعالى بالزاني والزانية ليزيل هذه الشُّبهة وهذا الخلاف .
وأرى في هذه المسألة أن الذي استفتى رسولَ الله هو الرجلُ ، ولو كانت المرأة لقال لها أيضاً : كفِّري ، فالحكم خاصٌّ بمن استفتى .
والمتأمل في آيات الحدود يجد مثلاً في حَدِّ السرقة قوله تعالى { والسارق والسارقة . . } [المائدة : 38] فبدَأ بالمذكر ، أما في حَدِّ الزنا فقال : { الزانية والزاني . . } [النور : 2] فبدأ بالمؤنث ، لماذا الاختلاف في التعبير القرآني؟
قالوا : لأن دور المرأة في مسألة الزنا أعظم ومدخلها أوسع ، فهي التي تغري الرجل وتثيره وتهيج

عواطفه؛ لذلك أمر الحق – تبارك وتعالى – الرجال بغَضِّ البصر وأمر النساء بعدم إبداء الزينة ، ذلك ليسُدَّ نوافذ هذه الجريمة ويمنع أسبابها .

أما في حالة السرقة فعادةً يكون عِبْءُ النفقة ومُؤْنة الحياة على كاهل الرجل ، فهو المكلف بها؛ لذلك يسرق الرجل ، أمَّا المرأة فالعادة أنها في البيت تستقبل ، وليس من مهمتها توفير تكاليف الحياة ، لكن لا مانعَ مع ذلك أن تسرق المرأة أيضاً؛ لذلك بدأ في السرقة بالرجل .

إذن : بمقارنة آيات القرآن تجد الكلام موزوناً دقيقاً غاية الدقة ، لكل كلمة ولكل حرف عطاؤه ، فهو كلام رب حكيم ، ولو كانت المسألة مجرد تقنين عادي ما التفتَ إلى مثل هذه المسائل .

ثم يأتي الحد الرادع لهذه الجريمة { فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ . . } [النور : 2]

اجلدوا : أمر ، لكن لمن؟ لم يقُل أيها الحاكم أو القاضي؛ لأن الأمر هنا للأمة كلها ، فأمر إقامة الحدود منوط بالأمة كلها ، لكن أتنهض الأمة بأَسْرها وتعدّدها بفعل واحد في كل مكان؟

قالوا : الأمة مثل النائب العام للوالي ، عليه أن يختار مَنْ يراه أهلاً للولاية لينفذ له ما يريد ، ومَنْ ولَّى قاضياً فقد قضى ، وما دام الأمر كذلك فإياك أنْ تُولِّي القضاء مَنْ لا يصلح للقضاء؛ لأن التبعة – إذن – ستكون عليك إنْ ظلم أو جار ، فالواو والألف في { فاجلدوا . . } [النور : 2] تدل على معانٍ كبيرة ، فالأمة في مجموعها لا تستيطع أن تجلد كل زانٍ أو زانية ، لكن حين تولي إمامها بالبيعة ، وحين تختاره ليقيم حدود الله ، فكأنها هي التي أقامتْ الحدود وهي التي نفذت .

لذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ ولّى أحداً أمراً وفي الناس خير منه لا يشم رائحة الجنة » « .

لماذا؟ لأنك حين تُولِّي أمور الناس مَنْ لا يصلح لها في وجود مَنْ يصلح إنما تُشيع الفساد في المجتمع ، ولا تظن أنك تستطيع أن تخفي شيئاً عن أعيُن الناس ، فلهم من الوعي والانتباه ما يُفرِّقون به بين الكفء وغيره ، وإنْ سكتوا وتغافلوا فإنهم يتساءلون من ورائك : لماذا ولّى هذا ، وترك مَنْ هو أكفأ منه ، لا بُدَّ أن له مؤهلات أخرى ، دخل بها من الباب الخلفي ، ولماذا لا نفعل مثله؟ عندها تسود الفوضى وتضيع الحقوق وينتشر الإحباط والتكاسل والخمول ، ويحدث خلل في المجتمع وتتعطل المصالح .

ومع هذا كله لا نستطيع أن نلوم الوالي حين يختار مَنْ لا يصلح قبل أن نلوم أنفسنا أولاً ، فنحن الذين اخترناه ودلَّسْنَا في البيعة له ، فسلّطه الله علينا ليُدلِّس هو أيضاً في اختياره ، أمّا لو أدى كل منا واجبه في اختيار مَنْ يصلح ما وصل إلى مراتب القيادة مَنْ يدلس على الناس ، وبذلك تستقيم الأمور ، ويتقرب الإنسان للولاية بالعمل وبالجد والإخلاص والأمانة والصدق والتفاني في خدمة المجتمع .

ومن رحمة الله تعالى بالخَلْق أنْ يقذف الإخلاص وحُبّ العمل ويزرع الرحمة بالخلق في بعض القلوب؛ لذلك ترى في كل مصلحة أو في كل مكتب موظفاً متواضعاً يحب الناس ويحرص على قضاء مصالحهم ، تراه يرتدي نظارة سميكة يرى من خلالها بصعوبة ، وهو دائماً مُنكبٌّ على الأوراق والملفات ، ويقصده الخَلْق لقضاء مصالحهم : يا فلان أفندي ، أعطني كذا ، واكتب لي كذا ، وقد وسَّع الله صَدْره للناس فلا يرد أحداً .

هذه المسائل كلها نفهمها من الواو والألف في { فاجلدوا . . } [النور : 2] أما الجَلْد فهو الضرب ، نقول : جلَده : يعني ضرب جِلْدَه ، ورأسه : يعني ضرب رِأسه ، وظهَره : ضرب ظهره .

والجلد ضَرْبٌ بكيفية خاصة ، بحيث لا يقطع لحماً ولا يكسر عظماً؛ لأن الضربة حسب قوتها وحسب الآلة المستخدمة في الضرب ، فمن الضرب ما يكسر العظم ولا يقطع الجلد ، ومنه ما يقطع الجلد ولا يكسر العظم ، ومنه ما يؤلم دون هذا أو ذاك .

ثم يقول سبحانه : { وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله . . } [النور : 2] تحذير من الرحمة الحمقاء ، الرحمة في غير محلها ، وعلى حَدِّ قول الشاعر :

فَقَسَا لِيزْدَجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِماً ... فَلْيَقْسُ أحْيَاناً على مَنْ يَرحَمُ

فالرأفة لا تكون في حدود الله ، ارأفوا بهم في مسائلكم الخاصة فيما بينكم ، وعجيب أن تدعوا الرأفة في مسائل الحدود وأنتم من ناحية أخرى تضربون وتسرقون أموال الناس ، وتنتهكون حرماتهم ، وتثيرون بينهم الفتنة والحروب ، فأين الرأفة إذن؟

إذن : لا مجالَ للرحمة وللرأفَة في حدود الله ، فلسنا أرحم بالخَلْق من الخالق ، وما وُضِعَتْ الحدود حباً في تعذيب الناس ، إنما وُضِعت وشُدِّد عليها لتمنع الوقوع في الجريمة التي تستوجب الحد ، فقَطْع يد واحدة تمنع قَطْع آلاف الأيدي .

والذين يتهمون الإسلام بالقسوة والبشاعة في تطبيق الحدود أنَسُوا ما فعلوه في هيروشيما ، وما زالت آثاره حتى الآن؟ أنسوا الحروب التي يشعلونها في أنحاء العالم ، والتي تحصد آلاف الأرواح؟ أهي الرحمة الحمقاء التي لا معنى لها؟ أم هي الكراهية لحدود الله؟

ونذكر في الماضي أنه كان يخرج مع فوج الحجيج قوة حماية وحراسة من الجيش ، تحمي الحجيج من قطاع الطرق ، وكانوا يُسَمُّون بعثة الحج هذه (المحمل) ، فلما أقامت السعودية حكم الله وطبَّقَتْ الحدود أمَّنَتْ الطرق ، واستغنى الناس عن هذه الحراسات مع اتساعها وتشعُّب طرقها ووعورتها بين الجبال والوديان والصحاري الشاسعة التي لا يمكن أن تحكمها أو تحرسها عَيْن بشر ، لا بُدَّ لها من تقنين الخالق عز وجل .

ومع ذلك حين أحْصَوا الأيدي التي قُطِعَتْ وجدوها قليلة جداً ، وأغلبها من خارج المملكة –

وأذكر أنني قلت مرة في خطبة عرفة : ارجعوا إلى حكامكم وقولوا لهم : اقطعوا يد السارق ، فالذي لا يقطع يد السارق في نيته أن يسرق؛ لذلك يخاف على يده ، فحين تذكر له مسألة قَطْع يد السارق ترتجف يده . والذين يعارضون حدود الله هم أنفسهم يسيرون على مبدأ أن هلاك الثُلث جائز لإصلاح الثلثين ، لكن تقف حدود الله غُصَّة في حلوقهم .

والجلْد مائة جلدة يخصّ الزاني غير المحْصَن يعني غير المتزوج ، أمَّا المتزوج فله حكم آخر لم يأْت في كتاب الله ، إنما أتى في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذلك لأن القرآن الكريم ليس كتابَ منهج فقط ، إنما كتابَ منهج ومعجزة ومعه أصول ، من هذه الأصول أنه قال في آية من آياته : إننا وكلنا رسول الله في أن يُشرِّع للناس .

والحكم الذي يؤخذ من القول عُرْضة لأن نتمحك فيه ونقف أمامه نُقلّب ألفاظه أو نؤوله ، أمّا إنْ أُخِذ الحكم من فعل المشرع ، فليس فيه شكٌّ أو تمحُّك ، وليس قابلاً للتأويل لأنه فعل ، وقد فعل الرسول ورجم الزاني والزانية المحصنين في قصة ماعز والغامدية ، لأنه مفوض من الله .

ولا بد أن نفرق بين الحدَّيْن ، ففي حَدِّ الأمة إنْ زنت يقول تعالى : { فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى المحصنات مِنَ العذاب . . } [النساء : 25] البعض فَهِم من الآية أنها تشمل حدَّيْ الرَّجْم والجَلْد ، فقالوا : في الجلد يمكن أن تجلد خمسين جلده ، لكن كيف نجزيء الرجم؟ وما دام الرجم لا يُجَزَّأ فليس عليها رجم .

ولو تأمل هؤلاء نصَّ الآية لخرجوا من هذا الخلاف ، فالحق سبحانه وتعالى لم يقل { فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى المحصنات . . } [النساء : 25] وسكت ، إنما قال { مِنَ العذاب . . } [النساء : 25] فخصَّ بذلك حدَّ الجلد؛ لأن العذاب إيلام حَيٍّ ، أمَّا الرجم فهو إزهاق حياة ، فهما متقابلان .

أَلاَ ترى قول القرآن في قصة سليمان عليه السلام والهدهد : { لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ . . } [النمل : 21] فالعذاب غير الذبح .

إذن : تجزئة الحد في الجَلْد فقط ، أمّا الرَّجم فلا يُجزَّأ ، فإنْ زنتِ الأَمَة المحصنة رُجِمَتْ .

وقوله تعالى : { إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر . . } [النور : 2] هذا كلام مُوجِع ، وإهاجة لجماعة المؤمنين ، فهذا هو الحكم ، وهذا هو الحدُّ قد شرعه الله ، فإن كنتم مؤمنين بالله وبالحساب والعقاب فطبّقوا شَرْع الله ، وإلاَّ فراجعوا إيمانكم بالله وباليوم الآخر لأننا نشكُّ في صِدْق هذا الإيمان .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يهيجنا ويثيرنا على أهل هذه الجريمة ، لنأخذ على أيديهم ونُخوِّفهم بما شرع الله من الحدود .

فالمعنى : أنْ كنتم تؤمنون بالله إلهاً حكيماً مشرعاً ، خلق خَلْقاً ، ويريد أن يحمي خَلْقه ويُطهره

ليكون أهلاً لخلافته في الأرض الخلافة الحقة ، فاتركوا الخالق يتصرف في كونه وفي خَلْقه على مراده عَزَّ وجَلَّ ، فالخَلْق ليس خَلْقكم لتتدخلوا فيه .

ثم يقول تعالى : { وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين } [النور : 2] فالأمر لا يقف عند حدِّ التعذيب والجَلْد ، إنما لا بُدَّ أن يشهد هذا العذاب جماعة من المؤمنين ، والطائفة هم الجماعة وأقلها أربعة لماذا؟ قالوا : لأن النفس قد تتحمّل الإهانة إنْ كانت سِراً لا يطَّلع عليها أحد ، فلا يؤلمه أنْ تُعذِّبه أشدَّ العذاب بينك وبينه ، إنما لا يتحمل أن تشتمه أمام الناس . إذن : فمشاهدة الحدِّ إهانة لصاحبه ، وهي أيضاً زَجْر للمشاهد ، ونموذج عمليٌّ رادع .

لذلك يقولون : الحدود زواجر وجوابر ، زواجر لمن شاهدها أي : تزجره عن ارتكاب ما يستوجب هذا الحدَّ ، وجوابر لصاحب الحد تجبر ذنبه وتُسقط عنه عقوبة الآخرة ، فلا يمكن أن يستوي مَنْ أقر وأقيم عليه الحد بمَنْ لم يقر ، ولأن الزنا لم يثبت بشهود أبداً ، وإنما بإقرار ، وهذا دليل على أن الحكم صحيح في ذِهْنه ، ويرى أن فضوح الدنيا وعذابها أهونُ من فضوح الآخرة وعذابها ، إلا لما أقر على نفسه .

فالمسألة يقين وإيمان ثابت بالقيامة وبالبعث والحساب ، والعقوبة اليوم أهون ، وإنْ كان الزنا يثبت بالشهود فلربما دلَّسُوا ، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتيه الرجل مُقرّاً بالزنا فيقول له : « لعلك قبَّلْتَ ، لعلك غمزْتَ ، لعلك لمسْت » يعني : لم تصل إلى الحد الذي يسمى زنا ، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدرأ الحدَّ بالشبهة .

ولهذا المبدأ الإسلامي السمح إنْ أخذتَ الزاني وذهبت ترجمه فآلمه الحجر فحاول الفرار يأمرنا الشرع ألاَّ نتبعه وألاَّ نلاحقه ، لماذا؟ لأنه اعتبر أن فراره من الحد كأنه رجوع عن الإقرار .

يقول الحق سبحانه : { الزاني لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً والزانية لاَ يَنكِحُهَآ إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ . . } .

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3)

{ الزاني لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً . . } [النور : 3] لأن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستعلي أحد الزوجين على الآخر ، والزاني فيه خِسَّة ، فلا يليق به إلا خسيسة مثله يعني : زانية ، أو أخس وهي المشركة؛ لأن الشرك أخسُّ من الزنا ، لأن الزنا مخالفة أمر توجيهي من الله ، أمّا الشرك فهو كفر بالله؛ لذلك فالمشركة أخبث من الزانية . وما نقوله في زواج الزاني نقوله في زواج الزانية { والزانية لاَ يَنكِحُهَآ إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ . . } [النور : 3] .

وهنا يعترض البعض : كيف إنْ كانت الزانية مسلمة : أينكحها مشرك؟ قالوا : التقابل هنا غرضه

التهويل والتفظيع فقط لا الإباحة؛ لأن المسلمة لا يجوز أن تتزوج مشركاً أبداً ، فالآية توبيخ لها : يا خسيسة ، لا يليق بك إلا خسيس مثلك أو أخسّ .

وأرى أن النص محتمل لانفكاك الجهة؛ لأن التي زنتْ تدور بين أمرين : إما أنها أقبلتْ على الزنا وهي تعلم أنه مُحرَّم ، فتكون عاصية باقية على إسلامها ، أو أنها ردَّت حكم الزنا واعترضت عليه فتكون مشركة ، وفي هذه الحالة يستقيم لنا فهم الآية .

ثم يقول تعالى : { وَحُرِّمَ ذلك عَلَى المؤمنين } [النور : 3] فهذا سبب طُهْر الأنسال أن يُحرِّم الله تعالى الزنا ، فيأتي الخليفة طاهر النسل والعنصر ، محضوناً بأب وأم ، مضموماً بدفء العائلة ، لا يتحملون عليه نسمة الهواء؛ لأنه جاء من وعاء طيب طاهر نظيف .

ثم يقول الحق سبحانه : { والذين يَرْمُونَ المحصنات ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فاجلدوهم . . } .

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4)

الرمي : قذف شيء بشيء ، والمحصنات : جمع مُحْصنة من الإحصان ، وهو الحفظ ، ومنه قولنا : فلان عنده حصانة برلمانية مثلاً . يعني : تكفّل القانون بحفظه؛ لذلك إنْ أرادوا محاسبته أو مقاضاته يرفعون عنه الحصانة أولاً ، ومنه أيضاً كلمة الحصن وهو الشيء المنيع الذي يحمي مَنْ بداخله .

يقول تعالى : { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ . . } [الأنبياء : 80] يعني : الدروع التي تحمي الإنسان وتحفظه في الحرب .

والمحصنات : تُطلَق على المتزوجة ، لأنها حصَّنَتْ نفسها بالزواج أن تميل إلى الفاحشة ، وتطلق أيضاً على الحرة ، لأنهم في الماضي كانت الإماء هُنَّ اللائي يدعين لمسألة البغاء ، إنما لا تقدم عليها الحرائر أبداً .

لذلك فإن السيدة هنداً التي نُسيِّدها الآن بعد إسلامها ، وهي التي لاكتْ كبد سيدنا حمزة في غزوة أحد ، لكن لا عليها الآن؛ لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله . لما سمعت السيدة هند رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهي النساء عن الزنا قالت : أو تزني حُرَّة؟ لأن الزنا انتشر قبل الإسلام بين البغايا من الإماء ، حتى كانت لهن رايات يرفعْنها على بيوتهن ليُعرفْنَ بها .

والمعنى : يرمون المحصنات بما ينافي الإحصان ، والمراد الزنا { ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فاجلدوهم ثَمَانِينَ جَلْدَةً . . } [النور : 4] وهذا يُسمَّى حدَّ القذف ، أن ترمي حُرّة بالزنا وتتهمها بها ، ففي هذه الحالة عليك أنْ تأتي بأربعة شهداء يشهدون على ما رميْتها به ، فإن لم تفعل يُقام عليك أنت حَدُّ القذف ثمانين جلدة ، ثم لا ينتهي الأمر عند الجَلْد ، إنما تُقبل منك شهادة بعد ذلك أبداً .

{ وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً . . } [النور : 4] لماذا؟ لأنه لم يَعُدْ أهلاً لها؛ لأنه فاسق { وأولئك هُمُ الفاسقون } [النور : 4] والفاسق لا شهادةَ له ، وهكذا جمع الشارع الحكيم على القاذف حَدَّ الجلْد ، ثم أسقط اعتباره من المجتمع بسقوط شهادته ، ثم وصفه بعد ذلك بالفسق ، فهو في مجتمعه ساقط الاعتبار ساقط الكرامة .

هذا كله ليزجر كل مَنْ تسوّل له نفسه الخوْضَ في أعراض الحرائر واتهام النساء الطاهرات؛ لذلك عبَّر عن القَذْف بالرمي؛ لأنه غالباً ما يكون عن عجلة وعدم بينة ، فالحق – تبارك وتعالى – يريد أن يحفظ مجتمع الإيمان من أن تشيع فيه الفاحشة ، أو مجرد ذكرها والحديث عنها .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلك وَأَصْلَحُواْ . . } .

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

اختلف العلماء في معنى الاستثناء هنا : أهو استثناء من الفِسْق؟ أم استثناء من عدم قبول الشهادة؟

ذكرنا أن مشروعية التوبة مِنَّة وتكرُّم من الحق – تبارك وتعالى – لأنه لو لم تشرع التوبة كان مَنْ يقع في معصية مرة ، ولا تُقبل منه توبه يتجرأ على المعصية ويكثر منها ، ولم لا؟ فلا دافعَ له للإقلاع .

إذن : حين يشرع الله التوبة إنما يحمي المجتمع من الفاقدين الذين باعوا أنفسهم ، وفقدوا الأمل في النجاة . فمشروعية التوبة كَرَم ، وقبولها كرم آخر ، لذلك يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا . . } [التوبة : 118] أي : شرع لهم التوبة ليتوبوا فيقبل منهم .

وقوله تعالى : { وَأَصْلَحُواْ . . } [النور : 5] تدل على أن مَنْ وقعتْ منه سيئة عليه أن يتبعها بحسنة ، وقد ورد في الحديث الشريف : « وأتبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها . . . . » لذلك تجد الذين أسرفوا على أنفسهم في ناحية ما ، حينما يكبرون ويُحبّون التوبة تراهم شغوفين بحُبِّ الخير وعمل الطاعات ، يريدون أن يُكفِّروا بها ما سبق من السيئات ، على خلاف مَنْ حافظ على نفسه ، ونأى بها عن المعاصي ، فتراه بارداً من ناحيتها يفعل الخير على قَدْر طاقته .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يُحذِّر عباده : يا عبادي احذروا : مَنْ أخذ مني شيئاً خِلْسة أو ترك لي حكماً ، أو تجرأ عليَّ بمعصية سيتعب فيما بعد ، ويلاقي الأمَّرِيْن؛ لأن السيئة ستظل وراءه تطارده وتُجهده لأغفرها له ، وسيحتاج لكثير من الحسنات وأفعال الخير ليجبر بها تقصيره في حَقِّ ربه .

ثم يقول الحق سبحانه : { والذين يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بالله إِنَّهُ لَمِنَ الصادقين * والخامسة أَنَّ . . } .

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7)

بعد أن تكلم الحق – تبارك وتعالى – عن الذين يرمون المحصنات ، وبيّن حكم القذف ، أراد أنْ يُبيّن حكم الرمي إنْ كان من الزوج لزوجته؛ لأن الأمر هنا مختلف ، وربما يكون بينهما أولاد منه أو من غيره ، فعليه أن يكون مُؤدباً بأدب الشرع ، ولا يجرح الأولاد برمي أمهم ولا ذنب لهم .
لذلك شرع الحق – سبحانه وتعالى – في هذه الحالة حكماً خاصاً بها هو الملاعنة ، وقد سُمّيت هذه الآية آية اللعان .

ويُرْوَى أن هلال بن أمية ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله إني رأيتُ فلاناً على بطن زوجتي ، فإنْ تركتُه لآتي بأربعة شهداء لقضي حاجته وانصرف ، وإنْ قتلتُه فقد اعتديْتُ عليه .

إذن : ما حَلّ هذا اللغز؟

وينبغي أن نعلم أن الله تعالى لا ينزل التشريع والحكم بدايةً ، إنما يترك في الكون من أقضية الحياة واحداثها ما يحتاج لهذا الحكم ، بحيث ينزل الحكم فيصادف الحاجة إليه ، كما يقولون : موقع الماء من ذي الغُلَّة الصَّادي ، يعني : حين ينزل الحكم يكون له موضع فيتلقفه الناس ، ويشعرون أنه نزل من أجلهم بعد أنْ كانوا يستشرفون لحكم في مسألة لم يأت فيها حكم .

وقد شرع الله تعالى حكم الملاعنة أو اللعان خاصة ، لهذه الحالة التي يلاحظ فيها الزوج شيئاً على أهله ، وقد يضع يده عليه ، لكن لا يستطيع أنْ يأتي عليه بشهود ليثبت هذه الحالة؛ لذلك جعله الشارع الحكيم يقوم وحده بهذه الشهادة ، ويكررها أربع مرات بدل الشهداء الأربع .

يقول : أشهد الله أنني صادق فيما رميتُ به امرأتي ، يقولها أربع مرات ، وفي الخامسة يقول : ولعنة الله عليَّ إنْ كنتُ كاذباً ، وهكذا ينتهي دور الزوج في الملاعنة .

وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9)

(يَدْرَأُ) أي : يدفع العذاب عن الزوجة أن تشهد هي الأخرى أربع شهادات بالله ، تقول : أشهد الله أنه كاذب فيما رماني به ، وفي الخامسة تقول : غضب الله عليَّ إنْ كان هو من الصادقين . فإن امتنعت الزوجة عن هذه الشهادة فقد ثبت عليها الزنا ، وإنْ حلفتْ فقد تعادلا ، ولم يَعُدْ كل منهما صالحاً للآخر ، وعندها يُفرّق الشرع بينهما تفريقاً نهائياً لا عودةَ بعده ، ولا تحل له أبداً .

هذا التشريع فَضْل من الله؛ لأنه أنهى هذه المسألة على خير ما تنهي عليه؛ لذلك يقول الحق سبحانه بعدها : { وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ . . } .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10)

أي : لولا هذا لَفُضحتم ولتفاقمت بينكم العداوة ، لكن عصمكم فضل الله في هذا التشريع الحكيم المناسب لهذه الحالة .

والقذف جريمة بشعة في حَقِّ المجتمع كله ، تشيع فيه الفاحشة وتتقطع الأواصر ، هذا إنْ كان للمحصنات البعيدات ، وهو أعظم إنْ كان للزوجة ، لكن ما بالك إنْ وقع مثل هذا القول على أم ليست أماً لواحد ، إنما هي أم لجميع المؤمنين ، هي أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها وأرضاها – فكانت مناسبة أن يذكر السياق ما كان من قَذْف السيدة عائشة ، والذي سُمِّي بحادثة الإفك؛ لماذا؟

لأن الله تعالى يريد أن يُعطينا الأُسْوة في النبوة نفسها ، ويريد أنْ يُسلِّي عائشة صاحبة النسب العريق وأم المؤمنين ، وقد قيل فيها ما قيل؛ لذلك ستظل السيدة عائشة أُسْوة لكل شريفة تُرْمَى في عِرْضها ، ويحاول أعداؤها تشويه صورتها ، نقول لها : لا عليك ، فقد قالوا مثل هذا في عائشة .

وتقوم آيات الإفك دليلاً على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم – في البلاغ عن ربه ، فذكر أنهم يرمون المحصنات ، ويرمون زوجاتهم ، والأفظع من ذلك أنْ يرموا زوجة النبي وأم المؤمنين ، فيقول سبحانه : { إِنَّ الذين جَآءُوا بالإفك عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . } .

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11)

الإفك : لدينا نِسَب ثلاث للأحداث : نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية حين تتكلم ، ونسبة خارجية . فحين أقول : محمد مجتهد . هذه قضية ذهنية ، فإن نطقتَ بها فهي نسبة كلامية ، فهل هناك شخص اسمه محمد ومجتهد ، هذه نسبة خارجية ، فإنْ وافقت النسبةُ الكلامية النسبةَ الخارجية ، فالكلام صِدْق ، وإنْ خالفت فالكلام كذب .

فالصدق أنْ تطابق النسبةُ الكلاميةُ الواقعَ ، والكذب ألاَّ تطابق النسبةُ الكلاميةُ الواقعَ ، والكذب قد يكون غير متعمد ، وقد يكون مُتعمداً ، فإنْ كان مُتعمداً فهو الإفك ، وإن كان غير متعمد كأنْ أخبره شخص أن محمداً مجتهد وهو غير ذلك ، فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس

كاذباً .

فالإفك – إذن – تعمُّد الكذب ، ويعطي ضد الحكم ، كأن تقول : محمد مجتهد . وأنت تعلم أنه مهمل؛ لذلك كان الإفكُ أفظعَ أنواع الكذب؛ لأنه يقلب الحقائق ويختلق واقعاً مضاداً لما لم يحدث .

يقول تعالى : { والمؤتفكة أهوى } [النجم : 53] وهي القُرَى التي جعل الله عاليها سافلها ، وكذلك الإفك يُغيِّر الواقع ، ويقلبه رَأْساً على عَقِب .

والعصبة : الجماعة التي تربتط حركتها لتحقيق غاية متحدة ، ومن ذلك نقول : عصابة مخدرات ، عصابة سرقات ، يعني : جماعة اتفقوا على تنفيذ حَدَث لغاية واحدة ، ومنه قوله تعالى في سورة يوسف : { وَنَحْنُ عُصْبَةٌ . . } [يوسف : 14] .

وما دام أهلُ الإفْك عصبةً فلا بُدَّ أن لهم غاية واحدة في التشويه والتبشيع ، وكان رئيسهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، وهو شيخ المنافقين ، ومعذور في أن يكون كذلك ، ففي اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا يصنعون لعبد الله بن أُبيٍّ تاجاً ليُنصِّبوه مَلِكاً على المدينة ، فلما فُوجِيء برسول الله واجتماع الناس عليه وانفضاضهم من حوله بقيت هذه في نفسه .

لذلك فهو القائل : { لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل . . } [المنافقون : 8] يقصد أنه الأعزُّ ، فردَّ عليه الحق – تبارك وتعالى – صدقت ، لكن العزة ستكون لله وللرسول وللمؤمنين ، وعليه فالخارج منها أنت .

وهو أيضاً القائل : { لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ . . } [المنافقون : 7] والعجيب أنه يعترف أن محمداً رسول الله ، ويقولها علانية ، ومع ذلك ينكرها بأعماله وتصرفاته ، ويحدث تشويشاً في الفكر وفي أداء العبارة .

وما دام أن الحق سبحانه سمَّى هذه الحادثة في حَقِّ أم المؤمنين عائشة إفكاً فلا بُدَّ أنهم قَلَبوا الحقائق وقالوا ما يناقض الواقع .

والقصة حدثت في غزوة بن المصطلق ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة أجرى قرعة بين زوجاته : مَنْ تخرج منهن معه . وهذا ما تقتضيه عدالته صلى الله عليه وسلم ، وفي هذه الغزوة أقرع بينهن فخرج السهم لعائشة فخرجتْ معه ، وبعد الغزوة وأثناء الاستعداد للعودة قالت السيدة عائشة : ذهبت لأقضي حاجتي في الخلاء ، ثم رجعت إلى هَوْدَجِي ألتمس عِقْداً لي من (جَزْع ظَفَار) وهو نوع نفيس .

فلما عادت السيدة عائشة وجدت القوم قد ذهبوا ، ولم تجد هَوْدجها فقالت في نفسها لا بُدَّ أنهم سيفتقدونني وسيعودون . لكن كيف حمل القوم هودج عائشة ولم تكُنْ فيه؟ قالوا : لأن النساء

كُنَّ خِفَافاً لم يثقلن ، وكانت عائشة نحيفة ، لذلك حمل الرجال هَودْجها دون أن يشعروا أنها ليست بداخله . ثم نامت السيدة عائشة في موضع هودجها تنتظر مَنْ يأتيها ، وكان من عادة القوم أن يتأخر أحدهم بعد الرحيل ليتفقد المكان ويُعقب عليه ، عَلَّه يجد شيئاً نسيه القوم أو شخصاً تخلَّف عن الرَّكْب .

وكان هذا المعقِّب هو صفوان بن المعطل ، فلما رأى شبحَ إنسان نائم فاقترب منه ، فإذا هي عائشة رضي الله عنها ، فأناخ ناقته بجوارها ، وأدار وجهه حتى ركبتْ وسار بها دون أن ينظر إليها وعَفَّ نفسه ، بدليل أن القرآن سمَّى ما قالوه إفْكاً يعني : مناقضاً للواقع ، فصفوان لم يفعل إلا نقيض ما قالوا .

ولما قَدِم صفوان يقود ناقته بعائشة رآه بعض أهل النفاق فاتهموهما ، وقالوا في حقهما مَا لا يليق بأم المؤمنين ، وقد تولّى هذه الحملة رَأْسُ النفاق في المدينة عبد الله بن أُبيٍّ ومِسْطح بن أُثَاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش امرأة طلحة بن عبيد الله وأخت زينب بنت جحش ، فروَّجوا هذا الاتهام وأذاعوه بين الناس .

ثم يقول سبحانه : { لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . } [النور : 11] لكن ما الخير في هذا الكلام وفي إذاعته؟ قالوا : لأن القرآن حين تُتَّهم عائشة وتنزل براءتها من فوق سبع سموات في قرآن يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة ، وحين يُفضَح قوم على لسان القرآن ، لا بُدَّ أن يعتبر الآخرون ، ويخافوا إنْ فعلوا مخالفة أنْ يفتضح أمرهم؛ لذلك جاء هذا الموقف درساً عملياً لمجتمع الإيمان .

نعم ، أصبحت الحادثة خيراً؛ لأنها نوع من التأييد لرسول الله ولدعوته ، فالحق – تبارك وتعالى – يُؤيِّد رسوله في الأشياء المسرَّة ليقطع أمل أعدائه في الانتصار عليه ، ولو بالتدليس ، وبالمكر ولو بالإسرار والكَيْد الخفي ، ففي ذروة عداء قريش لرسول الله كان إيمان الناس به يزداد يوماً بعد يوم .

وقد ائتمروا عليه وكادوا له ليلاً ليلة الهجرة ، فلم يفلحوا ، فحاولوا أن يسحروه ، وفعلاً صنعوا له سحراً ، ووضعوه في بئر ذروان في مُشْط ومشاطة ، فأخبره بذلك جبريل عليه السلام ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فجاء به .

إذن : عجزوا في المواجهة ، وعجزوا في التبييت والكيد ، وعجزوا حتى في استخدام الجن والاستعانة به ، وهنا أيضاً عجزوا في تشويه صورة النبوة والنَّيْل من سمعتها ، وكأن الحق سبحانه يقول لأعدائه : اقطعوا الأمل فلن تنالوا من محمد أبداً ، ومن هنا كانت حادثة الإفك خيراً لجماعة المؤمنين .

ومع ذلك ،

« لم يجرؤ أحد أن يخبر السيدة عائشة بما يقوله المنافقون في حقها ، لكن تغيَّر لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يَعُدْ يداعبها كعادته ، وكان يدخل عليها فيقول : » كيف تيكم « وقد لاحظت عائشة هذا التغيُّر لكن لا تعرف له سبباً إلى أنْ تصادف أنْ سارت هي وأم مِسْطح أحد هؤلاء المنافقين ، فعثرتْ فقالت : تعس مِسْطح فنهرتها عائشة : كيف تدعو على ابنها ، فقالت : إنك لا تدرين ما يقول؟ عندها ذهبتْ السيدة عائشة إلى أمها وسألتها عَمَّا يقوله الناس فأخبرتها .

لذلك لما نزلت براءة عائشة في القرآن قال لها أبو بكر : قومي فاشكري رسول الله ، فقالت : بل أشكر الله الذي بَرّأني » .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ مَّا اكتسب مِنَ الإثم . . } [النور : 11] .

عادةً ما يستخدم الفعل (كَسَبَ) المجرد في الخير ، والفعل اكتسب المزيد الدال على الافتعال في الشر ، لماذا؟ قالوا : لأن فِعْل الخير يتمشى وطبيعة النفس ، وينسجم مع ذراتها وتكوينها ، فالذي يُقدِم على عمل الخير لا يقاوم شيئاً في نفسه ، ولا يعارض ملكَة من مَلَكَاته ، أو عادة من العادات .

وهذه نلاحظها حتى في الحيوانات ، أَلاَ ترى القطة : إنْ وضعتَ لها قطعة لحم تجلس بجوارك وتأكلها ، وإنْ أخذتْها منك خَطْفاً تفرّ بها هاربة وتأكلها بعيداً عنك . إذن : في ذاتية الإنسان وفي تكوينه – وحتى في الحيوان – ما يُعرف به الخير والشر ، والصواب والخطأ .

وأنت إذا نظرتَ إلى ابنتك أو زوجتك تكون طبيعياً مطمئناً؛ لأن مَلكَات نفسك معك موافقة لك لا تعارضك في هذا الفعل ، فإنْ حاولتَ النظر إلى ما لا يحلّ لك تختلس النظرة وتسرقها ، وتحاول سترها حتى لا يلحظها أحد ، وقد ترتبك ويتغير لونك ، لماذا؟ لأنك تفعل شيئاً غير طبيعي ، لا حَقَّ لك فيه ، فتعارضك ملكَاتُ نفسك ، وذراتُ تكوينك . فالأمر الطبيعي تستجيب له النفس تلقائياً ، أمّا الخطأ والشر فيحتاج إلى افتعال ، لذلك عبَّر عن المكر والتبييت والكيد ب (اكتسب) الدال على الافتعال .

وقوله تبارك تعالى : { والذي تولى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النور : 11] .

تولَّى كبر الشيء : يعني قام به وله حَظٌّ وافر فيه ، أو نقول : هو ضالع فيه ، والمقصود هنا عبد الله بن أُبيّ الذي قاد هذه الحملة ، وتولّى القيام بها وترويجها { لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النور : 11] أي : يناسب هذه الجريمة .

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12)

يُوجِّهنا الحق – تبارك وتعالى – إلى ما ينبغي أن يكون في مثل هذه الفتنة من ثقة المؤمنين بأنفسهم بإيمانهم ، وأنْ يظنوا بأنفسهم خيراً وينأَوا بأنفسهم عن مثل هذه الاتهامات التي لا تليق

بمجتمع المؤمنين ، فكان على أول أُذن تسمع هذا الكلام على أول لسان ينطق به أن يرفضه؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلس على رسوله وصَفْوته من خَلْقه ، فيجعل زوجته محلَّ شكٍّ واتهام فضلاً عن رَمْيها بهذه الجريمة البشعة .

{ لولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنون والمؤمنات بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُواْ هاذآ إِفْكٌ مُّبِينٌ } [النور : 12] كان من المنتظر قبل أن تنزل المناعة في القرآن أن تأتي من نفوس المؤمنين أنفسهم ، فيردون هذا الكلام .

و (لولا) أداة للخصِّ والحثِّ ، وقال : { المؤمنون والمؤمنات . . } [النور : 12] لأنه جال في هذه الفتنة رجال ونساء ، والقرآن لا يحثهم على ظنِّ الخير برسول الله أو زوجته ، وإنما ظن الخير بأنفسهم هم؛ لأن هذه المسألة لا تليق بالمؤمنين ، فما بالك بزوجة نبي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟

{ وَقَالُواْ . . } [النور : 12] أي : قبل أن ينزل القرآن ببراءتها { هاذآ إِفْكٌ مُّبِينٌ } [النور : 12] يعني : كذب متعمد واضح بيِّن لأنه في حق مَنْ؟ في حق أم المؤمنين التي طهَّرها الله واختارها زوجة لرسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم يقول الحق سبحانه : { لَّوْلاَ جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ . . } .

لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13)

وسبق أنْ ذكرت الآيات حُكْم القذف ، وأن على مَنْ يرمي المحصنة بهذه التهمة عليه أن يأتي بأربعة شهداء ليثبت صِدْق ما قال ، فإنْ لم يأْتِ بهم فهو كاذب عند الله ، ويجب أنْ يُقام عليه حَدُّ القذف .

ثم يقول تعالى : { وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ . . } .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14)

{ أَفَضْتُمْ . . } [النور : 14] أن تندفع إلى الشيء اندفاعاً تقصد فيه السرعة ، ومعنى السرعة أن يأخذ الحدث الكبير زمناً أقلَّ مما يتصوّر له ، كالمسافة تمشيها في دقيقتين ، فتسرع لتقطعها في دقيقة واحدة ، فكأنهم أسرعوا في هذا الكلام لما سمعوه ، كما يقولون : خبَّ فيها ووضع .

لكن ، لماذا تفضَّل الله عليهم ورحمهم ، فلم يمسَّهم العذاب ، ولم يُجازهم على افترائهم على أم المؤمنين؟

قالوا : لأن الحق – تبارك وتعالى – أراد من هذه المسألة العبرة والعظة ، وجعلها للمؤمنين وسيلةَ

إيضاح ، فليس المراد أن يُنزل الله بهم العذاب ، إنما أن يُعلمهم ويعطيهم درساً في حِفْظ أعراض المؤمنين .

إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15)

انظر إلى بلاغة الأداء القرآني في التعبير عن السرعة في إفشاء هذا الكلام وإذاعته دون وَعْي ودون تفكير ، فمعلوم أن تلقِّي الأخبار يكون بالأُذن لا بالألسنة ، لكن من سرعة تناقل هذا الكلام فكأنهم يتلقونه بألسنتهم ، كأن مرحلة السماع بالأذن قد ألغيت ، فبمجرد أن سمعوا قالوا .

{ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَّيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ } [النور : 15] .

{ بِأَفْوَاهِكُمْ } [النور : 15] يعني : مجرد كلام تتناقله الأفواه ، دون أنْ يُدقِّقوا فيه؛ لذلك قال بعدها { مَّا لَّيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ . . } [النور : 15] وهذا الكلام ليس هيناً كما تظنون ، إنما هو عظيم عند الله؛ لأنه تناول عِرْض مؤمن ، وللمؤمن حُرْمته ، فما بالك إنْ كان ذلك في حَقِّ رسول الله؟

ثم يقول الحق سبحانه : { ولولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ . . } .

وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16)

هذا ما كان ما يجب أن تقابلوا به هذا الخبر ، أنْ تقولوا لا يجوز لنا ولا يليق بنا أن نتناقل مثل هذا الكلام . وكلمة { سُبْحَانَكَ . . } [النور : 16] تقال عند التعجُّب من حدوث شيء . والمعنى : سبحان الله نُنزِّهه ونُجِله ونُعليه أن يسمح بمثل الكذب الشنيع في حقِّ رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهذا كلام لا يصح أن نتكلم به ولو حتى بالنفي ، فإنْ كان الكلام بالإثبات جريمة فالكلام بالنفي فيه مَظنة أن هذا قد يحدث .

كما لو قلت : الوَرِع فلان ، أو الشيخ فلان لا يشرب الخمر ، فكأنه رغم النفي جعلته مظنة ذلك ، فلا يصح أن ينسب إليه السوء ولو بالنفي ، فذلك ذَمٌّ في حقِّه لا مدح .

كذلك التحدث بهذه التهمة لا يليق بأم المؤمنين ، ولو حتى بالنفي ، ومعنى { بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } [النور : 16] كذب يبهت سامعه ، ويُدهِشه لفظاعته ، وشناعته . فنحن نأنف أن نقول هذا الكلام ، ولو كنا منكرين له .

يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18)

الوعظ : أن تأتي لِقمة الأشياء فتعِظ بها ، كالرجل حينما يشعر بنهايته يحاول أنْ يعِظَ أولاده ويُوصيهم ، لكن لا يُوصيهم بكُلِّ أمور الحياة ، إنما بالأمور الهامة التي تمثل القمة في أمور الحياة .
ووعظ الحق – تبارك وتعالى – لعبادة من لُطفه تعالى ورحمته ، يعظكم؛ لأنه عزيز عليه أنْ يؤاخذكم بذنوبكم .
وتذييل الآية بهذا الشرط : { إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } [النور : 17] حثٌّ وإهاجة لجماعة المؤمنين ، لينتهوا عن مثل هذا الكلام ، وألاَّ يقعوا فيه مرة أخرى ، وكأنه تعالى يقول لهم : إنْ عُدْتُم لمثل هذا فراجعوا إيمانكم؛ لأن إيمانكم ساعتها سيكون إيماناً ناقصاً مشكوكاً فيه .
ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الذين يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الفاحشة فِي الذين آمَنُواْ . . } .

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19)

{ يُحِبُّونَ . . } [النور : 19] الحب عمل قلبي ، والكلام عمل لساني ، وترجمة عملية لما في القلب ، فالمعنى : الذين يحبون هذا ولو لم يتكلَّموا به؛ لأن لهذه المسألة مراحل تبدأ بالحب وهو عمل القلب ، ثم التحدث ، ثم السماع دون إنكار .
ولفظاعة هذه الجريمة ذكر الحق سبحانه المرحلة الأولى منها ، وهي مجرد عمل القلب الذي لم يتحول إلى نزوع وعمل وكلام إذن : المسألة خطيرة .
والبعض يظن أن إشاعة الفاحشة فضيحة للمتهم وحده ، نعم هي للمتهم ، لكن قد تنتهي بحياته ، وقد تنتهي ببراءته ، لكن المصيبة أنها ستكون أُسْوة سيئة في المجتمع .
وهذا توجيه من الحق – سبحانه وتعالى – إلى قضية عامة وقاعدة يجب أن تُرَاعى ، وهي : حين تسمع خبراً يخدش الحياءَ أو يتناول الأعراض أو يخدش حكماً من أحكام الله ، فإياك أنْ تشيعه في الناس؛ لأن الإشاعة إيجاد أُسْوة سلوكية عند السامع لمن يريد أن يفعل ، فيقول في نفسه : فلان فعل كذا ، وفلان فعل كذا ، ويتجرأ هو أيضاً على مثل هذا الفعل ، لذلك توعد الله تعالى مَنْ يشيع الفاحشة وينشرها ويذيعها بين الناس { لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدنيا والآخرة . . } [النور : 19] .
والحق – تبارك وتعالى – لم يعصم أحداً من المعصية وعمل السيئة ، لكن الأَسْوء من السيئة إشاعتها بين الناس ، وقد تكون الإشاعة في حق رجل محترم مُهَابٍ في مجتمعه مسموع الكلمة وله مكانة ، فإنْ سمعت في حَقِّه مَا لا يليق فلربما زهّدك ما سمعتَ في هذا الشخص ، وزهَّدك في حسناته وإيجابياته فكأنك حرمتَ المجتمع من حسنات هذا الرجل .
وهذه المسألة هي التعليل الذي يستر الله به غَيْب الخَلْق عن الخَلْق ، إذن : سَتْر غيب الناس عن الناس نعمة كبيرة تُثري الخير في المجتمع وتُنميه ، ويجعلك تتعامل مع الآخرين ، وتنتفع بهم على

عِلاَّتهم ، وصدق الشاعر الذي قال :

فَخُذْ بِعلْمي ولاَ تركَنْ إلىَ عَمِلي ... وَاجْنِ الثمارَ وخَلِّ العُودَ للنَّارِ

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ . . } .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (20)

انظر كم فضل من الله تعالى تفضّل به على عباده في هذه الحادثة ، ففي كل مرحلة من مراحل هذه القضية يقول سبحانه : { وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ . . } [النور : 20] وهذا دليل على أن ما حدث كان للمؤمنين نعمة وخير ، وإنْ ظنوه غير ذلك .

لكن أين جواب لولا؟ الجواب يُفهَم من السياق وتقديره : لَفُضِحْتُم ولَهلكتم ، وحصل لكم كذا وكذا ، ولك أنْ تُقدِّره كما تشاء .

وما منع عنكم هذا كله إلا فضل الله ورحمته .

وفي موضع آخر يوضح الحق سبحانه منزلة هذا الفضل : { قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس : 58] .

فالحق – سبحانه وتعالى – شرع منهجاً ويحب مَنْ يعمل به ، لكن فرحة العبد لا تتم بمجرد العمل ، وإنما بفضل الله ورحمته في تقبُّل هذا العمل . إذن : ففضْل الله هو القاسم المشترك في كل تقصير من الخَلْق في منهج الخالق عز وجل .

وبعد هذه الحادثة كان لا بُدَّ أنْ يقول تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان . . } .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21)

كأن الشيطان له خطوات متعددة ليست خطوة واحدة ، وقد أثبت الله عداوته لبني آدم ، وهي عداوة مُسبّبة ليست كلاماً نظرياً ، إنما هو عدو بواقعة ثابتة ، حيث امتنع عن السجود لآدم ، وعصى أمر الله له ، بل وأبدى ما في نفسه وقال : { أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } [الأعراف : 12] .

وقال : { أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً } [الإسراء : 61] وهكذا علّلَ امتناعه بأنه خير ، وكأن عداوته لآدم عداوة حسد لمركزه ومكانته عند ربه .

والحق – تبارك وتعالى – حينما يخبرنا بعداوة الشيطان من خلال امتناعه عن السجود ، إنما

يحذرنا منه ، ويُنبّهنا إلى خطره ويُرِيّ فينا المناعة من الشيطان؛ لأن عداوته لنا عداوة مركزة ، ليست عداوة يمارسها هكذا كيفما اتفق ، إنما هي عداوة لها منهج ولها خطة .

فأول هذه الخطة أنه عرف كيف يقسم ، فدخل على الإنسان من باب عزة الله عن خَلْقه ، فقال : { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص : 82] .

فلو أرادنا ربنا – عز وجل – مؤمنين ما كان للشيطان علينا سبيل ، إنما تركنا سبحانه للاختيار ، فدخل علينا الشيطان من هذا الباب؛ لذلك قال بعدها : { إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [الحجر : 40] فمَنِ اتصف بهذه الصفة فليس للشيطان إليه سبيل .

إذن : مسألة العداوة هذه ليست بين الحق سبحانه وبين الشيطان ، إنما بين الشيطان وبني آدم .

فقوله تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ . . } [النور : 21] نداء : يا من آمنتم بإله كأنه يقول : تَنبَّهوا إلى شرف إيمانكم به ، وابتعدوا عما يُضعِف هذا الإيمان ، أو يفُتُّ في عَضُدِ المؤمنين بأيّ وسيلة ، وتأكّدوا أن الشيطان له خطوات متعددة .

{ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان . . } [النور : 21] فإنْ وسوس لك من جهة ، فتأبَّيْتَ عليه ووجد عندك صلابةً في هذه الناحية وجَّهك إلى ناحية أخرى ، وزيّن لك من باب آخر ، وهكذا يظل بك عدوك إلى أنْ يُوقِعك ، فهو يعلم أن لكل إنسان نقطة ضَعْف في تكوينه ، فيظل يحاوره إلى أنْ يصل إلى هذه النقطة .

والشيطان : هو المتمرد العاصي من الجن ، فالجن مقابل الإنس ، فمنهم الطائع والعاصي ، والعاصي منهم هو الشيطان ، وعلى قِمتهم إبليس؛ لذلك يقول تعالى في سورة الكهف : { إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . . } [الكهف : 50] .

وسبق أن ذكرنا أنك تستطيع أن تُفرّق بين المعصية من قِبل النفس والمعصية من قِبل الشيطان ، فالنفس تُلِح عليك في معصية بعينها لا تتعدّاها إلى غيرها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً على أيّ : وجه من الوجوه ، فإن امتنعت عليه في معصية جَرَّك إلى معصية أخرى أياً كانت .

ثم يقول سبحانه : { وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشيطان فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بالفحشآء والمنكر . . } [النور : 21] ولك أنْ تسأل : أين جواب (مَنْ) الشرطية هنا؟ قالوا : حُذِف الجواب لأنه يُفهم من السياق ، ودَلَّ عليه بذكر عِلَّته والمسبّب لَه ، وتستطيع أن تُقدِّر الجواب : مَنْ يتبع خطوات الشيطان بُذِقْه ربه عذاب السعير؛ لأن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر ، فَمَنْ يتبع خطواته ، فليس له إلا العذاب ، فقام المسبّب مقام جواب الشرط .

والكلام ليس كلام بشر ، إنما هو كلام رَبِّ العالمين . وأسلوب القرآن أسلوب رَاقٍ يحتاج إلى فكر وَاعٍ يلتقط المعاني ، وليس مجرد كلام وحَشْو .

أَلاَ ترى بلاغة الإيجاز في قوله تعالى من سورة النمل : { اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ

عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ } [النمل : 28] .
ثم يقول تعالى بعدها : { قَالَتْ ياأيها الملأ إني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل : 29] .
وتأمل ما بين هذيْن الحدثيْن من أحداث حُذِفت للعلم بها ، فوعي القاريء ونباهته لا تحتاج أن نقول له فذهب الهدهد . . وو إلخ فهذه أحداث يُرتّبها العقل تلقائياً .
وقد أوضح الشيطانُ نفسه هذه الخطوات وأعلنها ، وبيَّن طرقه في الإغواء ، ألم يقل : { لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم } [الأعراف : 16] فلا حاجةَ للشيطان بأصحاب الصراط المعوج لأنهم أتباعه ، فالشيطان لا يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد ليُفسِد على المصلين صلاتهم ، لذلك البعض ينزعج من الوساوس التي تنتابه في صلاته ، وهي في الحقيقة ظاهرة صحية في الإيمان ، ولولا أنك في طاعة وعبادة ما وسوس لك .
لكن مصيبتنا أن الشيطان فقط طرف الخيط ، فنسير نحن خَلْفه (نكُرّ في الخيط كَرّاً) ولو أننا ساعة ما وسوس لنا الشيطان استعذْنا بالله من الشيطان الرجيم ، كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى : { وَإِماَّ يَنَزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله . . } [الأعراف : 200] .
إذن : إياك أنْ تقبل منه طرف الخيط؛ لأنك لو قَبِلْته فلن تقدر عليه بعد ذلك .
ومن خطوات الشيطان أيضاً قوله : { ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ . . } [الأعراف : 17] .
إذن : للشيطان في إغواء الإنسان منهج وخُطّة مرسومة ، فهو يأتي الإنسان من جهاته الأربع : من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله . لكن لم يذكر شيئاً عن أعلى وأسفل؛ لأن الأولى تشير إلى عُلُوّ الربوبية ، والأخرى إلى ذُلّ العبودية ، حين ترفع يديك إلى أعلى بالدعاء ، وحين تضع جبتهك على الأرض في سجودك؛ لذلك لا يأتيك عدوك من هاتين الناحيتين .
ثم يقول تعالى : { وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ولكن الله يُزَكِّي مَن يَشَآءُ . . } [النور : 21] .
قلنا : إن فضل الجزاء يتناوبه أمران : جزاء بالعدل حين تأخذ ما تستحقه ، وجزاء بالفضل حينما يعطيك ربك فوق ما تستحق؛ لذلك ينبغي أن نقول في الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل؛ وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . فإنْ عاملنا ربنا – عز وجل – بالعدل لَضِعْنا جميعاً .
لكن ، في أيّ شيء ظهر هذا الفضل؟ ظهر فضل الله على هذه الأمة في أنه تعالى لم يُعذِّبها بالاستئصال ، كما أخذ الأمم السابقة ، وظهر فَضْل الله على هذه الأمة في أنه تعالى أعطاها المناعة قبل أن تتعرَّض للحَدث ، وحذرنا قديماً من الشيطان قبل أن نقع في المعصية ، وقبل أن تفاجئنا الأحداث ، فقال سبحانه :

{ فَقُلْنَا يآءَادَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ . . } [طه : 117] وإلا لغرق الإنسان في دوامة المعاصي .

لأن التنبيه للخطر قبل وقوعه يُرَبِّي المناعة في النفس ، فلم يتركنا ربنا – عز وجل – في غفلة إلى أنْ تقعَ في المعصية ، كما نُحصِّن نحن أنفسنا ضد الأمراض لنأخذ المناعة اللازمة لمقاومتها .

وقوله تعالى : { مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً . . } [النور : 21] (زَكَى) تطهَّر وتنقّى وصُفِّيَ { ولكن الله يُزَكِّي مَن يَشَآءُ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [النور : 21] وقال : { سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [النور : 21] لأنه تعالى سبق أنْ قال : { إِنَّ الذين يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الفاحشة فِي الذين آمَنُواْ . . } [النور : 19] ذلك في ختام حادثة الإفك التي هزَّتْ المجتمع الإسلامي في قمته ، فمسَّتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصِّدِّيق وزوجته أم المؤمنين عائشة وجماعة من الصحابة .

لذلك قال تعالى (والله سَمِيعٌ) لما قيل (عَلِيمٌ) [النور : 21] بما تُكِنُّه القلوب من حُبٍّ لإشاعة الفاحشة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الفضل مِنكُمْ والسعة أَن يؤتوا أُوْلِي القربى . . } .

وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (22)

تورط في حادثه الإفك جماعة من أفاضل الصحابة ممن طُبِع على الخير ، لكنه فُتِن بما قيل وانساقَ خلف مَنْ روَّجوا لهذه الإشاعة ، وكان من هؤلاء مسطح بن أثاثة ابن خالة أبي بكر الصديق ، وكان أبو بكر ينفق عليه ويرعاه لفقره ، فلما قال في عائشة ما قال وخاض في حقها اقسم أبو بكر ألاّ ينفق عليه ، وقد كان يعيش وأهله في سَعَة أبي بكر وفضله؛ لأن هذه الفتنة جعلتْ بعض أهل الخير يضِنُّ به .

وهذا نموذج لمن ينكر الجميل ولا يُقدِّر صنائع المعروف ، وهذا الفعل يُزهِّد الناس في الخير ، ويصرفهم عن عمل المعروف ، والله تعالى يريد أنْ يُصحِّح لنا هذه المسألة ، فهذه نظرة لا تتفق وطبيعةَ الإيمان؛ لأن الذي يعصي الله فيك لا تكافئه إلا بأنْ تطيع الله فيه .

وحين تترك مَنْ أساء إليك لعقاب الله وتعفُو عنه أنت ، فإنما تركتَه للعقاب الأقوى؛ لأنك إنْ عاقبته عاقبته بقدرتك وطاقتك ، وإنْ تركتَ عقابه لله عاقبه بقدْر طاقته تعالى وقدرته .

إذن : العافي أقسى قَلْباً من المنتقم ، وسبق أنْ مثّلنا لذلك بالأخ حين يعتدي على أخيه الأصغر ، فيأتي الأب فيجد صغيره مهاناً مظلوماً ، فيأخذه في حضنه ، ويحاول إرضاءه وتعويضه عَمَّا لَحِقه من ظلم أخيه ، كذلك الحال في هذه المسألة ولله المثل الأعلى .

ومن هنا يجب عليك أن تُسَرَّ بمَنْ جعل الله في جانبك ، وتُحسن إليه ، لا أن تردّ له الإساءة بمثلها .

إذن : نزلت هذه الآية في مسطح بن أثاثة حين أقسم أبو بكر أَلاَّ ينفق عليه وعلى أهله ، وأنْ يمنع عنه عطاءه وبِرّه ، نزلت لتصحح للصِّديق هذه النظرة وتُوجِّه انتباهه إلى جانب الخير الباقي عند الله لا عند الناس .

فقال تعالى : { وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الفضل مِنكُمْ والسعة . . } [النور : 22] .

{ يَأْتَلِ . . } [النور : 22] ائتلى مثل اعتلى تماماً ، ومنها تألّى يعني : حلف وأقسم ، يوجه الحق – تبارك وتعالى – الصِّديق أبا بكر ، ويذكر لفظ { أُوْلُواْ . . } [النور : 22] الدال على الجماعة لتعظيمه لما له من فضل ومنزلة في الإسلام ، ففي كل ناحية له فضل؛ لذلك أعطاه وصفيْن مثل ما أعطى للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال للصِّديق : { وَلْيَعْفُواْ وليصفحوا . . } [النور : 22] وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : { فاعف عَنْهُمْ واصفح . . } [المائدة : 13] .

كذلك ، أَلاَ ترى الصِّدِّيق ثانيَ اثنينِ في الغار ، وثاني اثنين في أمور كثيرة ، فهو ثاني اثنين في الهجرة ، وثاني اثنين في قبول دعوة الإسلام الأولى؛ لذلك صدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال عن الصِّديق : « كنت أنا وأبو بكر في الجاهلية كفرسي رهان » . يعني : في التسابق في الخير « فسبقته إلى النبوة فاتبعني ، ولو سبقني إليها لاتبعته » « .

ولما كان لأبي بكر أفضال كثيرة في زوايا متعددة لم يخاطبه بصيغة المفرد ، إنما بصيغة الجمع تكريماً وتعظيماً .

أَلاَ ترى الصِّديق مع ما عُرِف عنه من الحلم ورقة القلب لما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وحدثتْ مسألة الردّة يقف ويقول : « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدُّونها لرسول الله لجالدتهم بالسيف ، لو لم أجد إلا الذر » .

هذا موقف الصِّديق رقيق القلب ، ليّن الجانب ، صاحب الرحمة والحنان ، الذي تقول عنه ابنته « إنه رجل بكّاء » يعني : كثير البكاء . في حين يعارضه في أمر الحرب عمر مع عُرِف عنه من الشدة والقسوة على الكفار . لكن هذا التناقض في موقف كل منها يقوم دليلاً على أن الإسلام ليس طَبْعاً غالباً على المسلم إنما موقف يعود المسلم إليه ، فموقف الردة هو الذي جعل من الصِّدِّيق أسداً شجاعاً قاسيَ القلب ، ولو أن عمر في مكانه من المسئولية وفعل كما فعل الصِّدِّيق لقالوا : شِدّة أَلِفها الناس من عمر .

فكأن الإسلام لا يريد أن يطبع المسلم على طبْع خاص يظل عليه ، إنما الموقف هو الذي يطبعك إيمانياً ، وهذا ما ذكرناه في قوله تعالى : { مُحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . } [الفتح : 29] .

فالمسلم ليس مفطوراً لا على الشدة وحدها ، ولا على الرحمة وحدها ، إنما عليه أنْ يتصرَّف في

كل موقف بما يناسبه على ضوء ما شرع الله .

فقوله تعالى : { أُوْلُواْ الفضل مِنكُمْ والسعة . . } [النور : 22] يقول للصِّديق : أنت رجل فاضل صِدِّيق ، وعندك سعة فلا تعطي ولا تُؤثر على نفسك من ضيق ، ولا يليق بالفاضل أن يقطع صلته ورحمه لمثل هذا الخطأ الذي وقع فيه مِسْطح ، خاصة أنه أخذ جزاءه كما شرع الله ، وعُوقِبَ بحدِّ القذف ثمانين جَلْدة ، وليس لك أن تعاقبه بعد ذلك .

ومن سماحة الإسلام أن مَنْ وقع في حَدٍّ وعُوقِب به لا يجوز لأحد أنْ يُعيِّره بذنبه؛ لأنه تاب وأناب وطهّره الله منه بالحدِّ ، وانتهت المسألة ، وليس لأحد أن يدخل بين العبد وربه .

فكأن الحق – تبارك وتعالى – يقول : ارجع إلى فضلك يا أبا بكر ، وعُدْ أنت إلى سعتك ، وكُنْ موصولَ المروءة ، ولا تقطع رحمك ، يريد – سبحانه وتعالى – أنْ يُصفِّي ما في النفوس من آثار هذه الفتنة التي زلزلتْ المجتمع المؤمن في المدينة .

ولا يليق بذي الفضل والسَّعَة أنْ يعامل الناس بالعدل ، فصحيح أن مِسْطح كان يستحق هذه القطيعة وهذا الحرمان ، إنما هذا الجزاء لا يليق بالصِّدِّيق صاحب الفضل والسَّعَة .

ولو أجريتَ إحصاءً للمؤمنين بإله وللكافرين في الكون ، ستعلم أن المؤمنين قِلَّة والكافرين كثرة ، فهل قال الله تعالى لجنود خيره في الكون : أعطوا مَنْ آمن ، واتركوا مَنْ كفر؟ وكأن الحق – تبارك وتعالى – يعطينا مَثَلاً في ذاته عز وجل ، فكما أنه يعطي مَنْ كفر به ويرزقه ، بل ربما كان أحسن حالاً مِمَّنْ آمن ، فأنت كذلك لا تمنع عطاءك عَمَّنْ أساء إليك .

لذلك يقول سبحانه في آية أخرى : { وَلاَ تَجْعَلُواْ الله عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ الناس والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة : 224] .

فإنْ كنت بارّاً بأحد وبدر منه شيء فلا تحلف بالله أنك لا تبرُّه ، فقد تهدأ ثورتك عليه ، وتريد أنْ تبرَّه ، وتتحجج بحلفك ، إذن : لا تجعلوا الله عُرْضة لحلف يمنعكم من المعروف .

ثم يقول سبحانه : { أَن يؤتوا أُوْلِي القربى والمساكين والمهاجرين فِي سَبِيلِ الله . . } [النور : 22] صحيح أن مِسْطح من ذوي قُرْبى أبي بكر ومن المساكين ، لكن يعطيه الله نيشاناً آخر ، فلم يخرجه مَا قال من وصف المهاجر ، ولم يخرجه ذنبه من هذا الشرف العظيم .

فمن فضل الله تعالى على عباده أن السيئة لا تُحبط الحسنة ، إنما الحسنة بعد السيئة تحبطها ، كما قال عز وجل : { إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات . . } [هود : 114] .

فرغم ما وقع فيه مِسْطح ، فقد أبقاه الله في العَتْب على أبي بكر ، وتحنين قلبه ، وأبقاه في المهاجرين .

{ وَلْيَعْفُواْ وليصفحوا . . } [النور : 22] العفو : ترك العقوبة على الذنب ، لكن قد تعفو عن المذنب ثم تُؤنبه ، وتمنّ عليه بعفوْك ، وتُذكِّره دائماً أنه لا يستحق منك هذا العفو؛ لذلك

يحثنا ربنا – تبارك وتعالى – على الصفح بعد العفو ، والصفح : تَرْك المنِّ وعدم ذكر الزلة لصاحبها حتى تصبح العقوبة عنده أهونَ من عفوك عنه .

ذلك لأن الحق سبحانه حينما يُشرِّع للبشر ما يُنظِّم العلاقات بينهم يراعي جميع مَلكات النفس ، لا يقتصر على الملَكات العالية فحسب ، إنما لكل الملَكات التي تنتظم الخَلْق جميعاً ، وليأخذ كل مِنَّا على قَدْر إيمانه وامتثاله لأمر ربه .

وفي ذلك يقول سبحانه : { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ } [النحل : 126] .

لو تأملنا حقيقة المثْلية في رَدِّ الإساءة لوجدناها صعبة في تقديرها ، فإنْ ضربَك شخصٌ ضربة ، أعندك القدرة التي تردُّ بها هذه الضربة بمثلها تماماً بنفس الطريقة ، وبنفس القوة ، وبنفس الألم ، بحيث لا تكون أنت مُعْتدياً؟ إنك لو تأملتَ هذه المثلية لفضَّلْتَ العفو بدل الدخول في متاهات أخرى .

وسبق أن ذكرنا قصة المرابي الذي اشترط على المدين إنْ تأخر في السداد أن يقطع رطلاً من لحمه ، ولما تأخر الرجل في السداد خاصمه عند القاضي ، وأخبره بما كان بينهما من شرط ، وكان القاضي ذكياً فقال للمرابي : خُذ السكين واقطع رطلاً من لحمه ، لكن إنْ زاد أخذناه منك ، وإنْ نقص أخذناه منك ، فتراجع المرابي لأنه لا يستطيع تقدير هذه المسألة .

فإن انصرفنا عن المعاقبة بالمثل وَسِعَنا العفو ، وانتهت المسألة على خير ما يكون .

وفي مرتبة أخرى يقول سبحانه : { والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين } [آل عمران : 134] .

فالحق – تبارك وتعالى – يجعل لنا مراتب في رَدِّ السيئة ، فالعقاب بالمثل مرتبة ، وكَظْم الغيظ مرتبه ، والعفو مرتبة ، والصفح مرتبة ، وأعلى ذلك كله مرتبة الإحسان إلى مَنْ أساء إليك { والله يُحِبُّ المحسنين } [آل عمران : 134] .

ثم يجعل الحق سبحانه من نفسه أُسْوة لعباده فيقول : { أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ . . } [النور : 22] فكما تحب أن يغفر الله لك ذنبك ، فلماذا لا تغفر أنت لمَنْ أساء إليك؟ وكأن ربنا – عز وجل – يريد أن يُصلح ما بيننا؛ لذلك لما نزلتْ هذه الآية في شأن أبي بكر قال : أحب يا رب ، أحب يا رب ، أحب يا رب .

ومعنى { أَلاَ . . } [النور : 22] أداة للحضِّ وللحثِّ على هذا الخُلُق الطيب { والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النور : 22] فمن تخلَّق بأخلاق الله تعالى فليكُنْ له غفران ، وليكن لديه رحمة ، ومَنْ مِنّا لا يريد أن يتصف ببعض صفات الله ، فيتصف بأنه غفور ورحيم؟

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الذين يَرْمُونَ المحصنات الغافلات المؤمنات . . } .

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23)

نلحظ أن الآيات تحدثتْ عن حَدِّ القذف وما كان من حادثة الإفك ، ثم ذكرت آية العتاب لأبي بكر في مسألة الرزق ، ثم عاد السياق إلى القضية الأساسية : قضية القذف ، فلماذا دخلتْ مسألة الرزق في هذا الموضوع؟

قالوا : لأن كل معركة فيها خصومة قد يكون آثار تتعلق بالرزق ، والرزق تكفَّل الله به لعباده؛ لأنه سبحانه هو الذي استدعاهم إلى الوجود ، سواء المؤمن أو الكافر ، وحين تعطي المحتاج فإنما أنت مناول عن الله ، ويد الله الممدودة بأسباب الله .

والحق تبارك وتعالى يحترم ملكية الإنسان مع أنه سبحانه رازقه ومعطيه ، لكن طالما أعطاه صار العطاء مِلْكاً له ، فإنْ حَثَّه على النفقة بعد ذلك يأخذها منه قَرْضاً؛ لذلك يقول سبحانه : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً . . } [البقرة : 245] .

فإنْ أنفق الموسر على المعسر جعله الله قَرْضاً ، وتولّى سداده بنفسه؛ ذلك لأن الله تعالى لا يرجع في هِبَته ، فطالما أعطاك الرزق ، فلا يأخذه منك إلا قَرْضاً .

لذلك يقول تعالى : { هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ . . } [محمد : 38] .

وفي موضع آخر يقول عن الأموال : { إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ } [محمد : 38] لأن الإنسان تعب في جمع المال وعَرق في سبيله ، وأصبح عزيزاً عليه؛ لذلك يبخل به ، فأخذه الله منه قَرْضاً مردوداً بزيادة ، وكان الرزق والمال بهذه الأهمية لأنه أول مَنَاط لعمارة الخليفة في الأرض؛ لذلك ترك الحديث عن القضية الأساسية هنا ، وذكر هذه الآية التي تتعلَّق بالرزق .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { حَافِظُواْ عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى . . } [البقرة : 238] وقد ذُكِرَتْ وسط مسائل تتعلق بالعِدَّة والكفارة ، وعِدَّة المتوفَّى عنها زوجها ، فما علاقة الصلاة بهذه المسائل؟

قالوا : لأن النزاعات التي تحدث غالباً ما تُغيِّر النفس البشرية وتثير حفيظتها ، فإذا ما قمتَ للوضوء والصلاة تهدأ نفسك وتطمئن . وتستقبل مسائل الخلاف هذه بشيء من القبول والرضا .

نعود إلى قوله تعالى : { إِنَّ الذين يَرْمُونَ المحصنات الغافلات . . } [النور : 23] المحصنة : لها إطلاقات ثلاث ، فهي المتزوجة لأن الإحصان : الحِفْظ وكأنها حفظتْ نفسها بالزواج ، أو هي العفيفة ، وإنْ لم تتزوج فهي مُحْصَنة في ذاتها ، والمحصنة هي أيضاً الحرة؛ لأن عملية البِغَاء والزنا

كانت خاصة بالإماء .

و { الغافلات . . } [النور : 23] جمع غافلة ، وهي التي لا تدري بمثل هذه المسائل ، وليس في بالها شيء عن هذه العملية ، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل بريرة خادمة السيدة عائشة : ما تقولين في عائشة يا بريرة؟ فقالت : تعجن العجين ثم تنام بجانبه فتأتي الدواجن فتأكله وهي لا تدري » وهذا كناية عن الغفلة لأنها ما زالت صغيرة لم تنضج نُضْج المراهقة ومع نُضْج المراهقة نُضْج اليقين والإيمان .

وتلحظ هذه الغفلة في البنت الصغيرة حين تقول لها : أتتزوجين فلاناً؟ تقول : لا أنا أتزوج فلاناً ، ذلك لأنها لا تدري معنى العلاقة الزوجية ، إنما حينما تكبر وتفهم مثل هذه الأمور فإنْ ذكرتَ لها الزواج تستحي وتخزى أن تتحدث فيه؛ لأنها عرفتْ ما معنى الزواج .

لذلك لما أمرنا الشرع باستئذان البنت للزواج جعل إذنها سكوتها ، فإن سكتتْ فهذا إذْن منها ، ودليل على فهمها لهذه العلاقة ، إنما إنْ قالت : نعم أتزوجه لأنه جميل و . . و . . ، فهذا يعني أنها لم تفهم بعد معنى الزواج .

إذن : الغافلة حتى عن مسائل الزواج والعلاقات الزوجية ، ولا تدري شيئاً عن مثل هذه الأمور كيف تفكر في الزنا؟

ثم يذكر ربنا – تبارك وتعالى – جزاء هذه الجريمة : { لُعِنُواْ فِي الدنيا والآخرة وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النور : 23] .

وإن كانت الغافلة هي التي ليس في بالها مثل هذه الأمور ، ولا تدري شيئاً حتى عن الزواج والعلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة ، فيكيف نقول : إنها تفكر في هذه الجريمة؟

واللعْن : هو الطرد والإبعاد من رحمة الله ، وأيضاً الطرد والإبعاد عن حظيرة المؤمنين؛ لأن القاذف حكمه أنْ يُقام عليه الحدُّ ، ثم تسقط شهادته ، ويسقط اعتباره في المجتمع الذي يعيش فيه ، فجمع الله عليه الخزي في الدنيا بالحدِّ وإسقاط الاعتبار ، إلى جانب عذاب الآخرة ، فاللعن في الدنيا لا يعقبه من عذاب الآخرة .

وقلنا : إن العذاب : إيلام حَيٍّ ، وقد يُوصَف العذاب مرة بأليم ، ومرة بمهين ، ومرة بعظيم ، هذه الأوصاف تدور بين العذاب والمعذّب ، فمن الناس مَنْ لا يؤلمه الجَلْد ، لكن يهينه ، فهو في حقه عذاب مهين لكرامته ، أما العذاب العظيم فهو ما فوق ما يتصوَّره المتصوّر؛ لأن العذاب إيلام من مُعذِّب لمعذَّب ، والمعذَّب في الدنيا يُعذَّب بأيدي البشر وعلى قَدْر طاقته ، أمّا العذاب في الآخرة فهو بجبروت الله وقَهْر الله؛ لذلك يُوصَف بأنه عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه : { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ . . } .

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24)

نعلم جميعاً أن اللسان هو الذي يتكلم ، فماذا أضافت الآية : { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ . . } [النور : 24] .

قالوا : في الدنيا يتكلم اللسان وينطق ، لكن المتكلم في الحقيقة أنت؛ لأنه مَا تحرَّك إلا بمرادك له ، فاللسان آلة خاضعة لإرادتك ، إذن : فهو مجرد آلة ، أمَّا في الآخرة فسوف ينطق اللسان على غير مراد صاحبه؛ لأن صاحبه ليس له مراد الآن .

ولتقريب هذه المسألة : أَلاَ ترى كيف يخرس الرجل اللبيب المتكلم ، ويُمسك لسانه بعد طلاقته ، بسبب مرض أو نحوه ، فلا يستطيع بعدها الكلام ، وهو ما يزال في سَعَة الدنيا . فما الذي حدث؟ مجرد أن تعطلتْ عنده آلة الكلام ، فهكذا الأمر في الآخرة تتعطل إرادتك وسيطرتك على جوارحك كلها ، فتنطق وتتحرك ، لا بإرادتك ، إنما بإرادة الله وقدرته .

فالمعنى { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ . . } [النور : 24] أي : شهادة ونطقاً على مراد الله ، لا على مراد أصحابها .

ولمَ نستبعد نُطْق اللسان على هذه الصورة ، وقد قال تعالى : { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82] وقد جعل فيك أنت أيها الإنسان نموذجاً يؤكد صِدْق هذه القضية . فَقُلْ لي : ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم الآن من مكان؟ مجرد إرادة القيام ترى نفسك قد قُمْتَ دون أن تفكر في شيء ، ودون أن تستجمع قواك وفكرك وعضلاتك ، إنما تقوم تلقائياً دون أن تدري حتى كيفية هذا القيام ، وأيّ عضلات تحركت لآدائه .

ولك أنْ تقارن هذه الحركة التلقائية السَّلسِة بحركة الحفار أو الأوناش الكبيرة ، وكيف أن السائق أمامه عدد كبير من العِصيّ والأذرع ، لكل حركة في الآلة ذراع معينة .

فإذا كان لك هذه السيطرة وهذا التحكم في نفسك وفي أعضائك ، فكيف تستبعد أن يكون لربك – عز وجل – هذه السيطرة على خَلْقه في الآخرة؟

إذن : فاللسان محلّ القول ، وهو طَوْع إرادتك في الدنيا ، أما في الآخرة فقد شُلَّتْ هذه الإرادة ودخلتْ في قوله تعالى : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .

ثم يقول سبحانه : { وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النور : 24] وهذه جوارح لم يكُنْ لها نُطْق في الدنيا ، لكنها ستنطق اليوم . ويحاول العلماء تقريب هذه المسألة فيقولون : إن الجارحة حين تعمل أيَّ عمل يلتقط لها صورة تسجل ما عملتْ ، فنُطْقها يوم القيامة أن تظهر هذه الصورة التي التقطت .

والأقرب من هذا كله أن نقول : إنها تنطق حقيقة ، كما قال تعالى حكايةً عن الجوارح : { وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [فصلت : 21] .

ومعنى : { الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ } أن لكل شيء في الكون نُطْقاً يناسبه ، كما نطقت النملة وقالت : { ياأيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ . . }

[النمل : 18] ونطق الهدهد ، فقال : { أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ } [النمل : 22] .

وقد قال تعالى عن نُطْق هذه الأشياء : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . } [الإسراء : 44] .

لكن ، إنْ أراد الله لك أن تفقه نُطْقهم فقَّهك كما فقَّه سليمان عليه السلام ، حين فهم عن النملة : { فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا . . } [النمل : 19] كما فَهِم عن الهدهد ، وخاطبه في قضية العقيدة .

وإنْ كان النطق عادةً يفهم عن طريق الصوت ، فلكل خَلْق نُطْقه الذي يفهمه جنسه؛ لذلك نسمع الآن مع تقدُّم العلوم عن لُغة للأسماك ، ولغة للنحل . . . إلخ .

وسبق أنْ قلنا : إن الذين قالوا من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم أن الحصى سبّح في يده ، نقول : عليكم أن تُعدِّلوا هذه العبارة ، قولوا : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسبيح الحصى في يده ، وإلاَّ فالحصى مُسبِّح في يده صلى الله عليه وسلم ، كما هو مُسبِّح في يد أبي جهل .

ولو سألتَ هذه الجوارح : لم شهدتِ عليَّ وأنت التي فعلت؟ لقالت لك : فعلنا لأننا كنا على مرادك مقهورين لك ، إنما يوم ننحلّ عن إرادتك ونخرج عن قهرك ، فلن نقول إلا الحق .

ثم يقول الحق سبحانه : { يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ الله دِينَهُمُ الحق . . } .

يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25)

قوله : { يَوْمَئِذٍ . . } [النور : 25] أي : يوم أنْ تحدث هذه الشهادة ، وهو يوم القيامة { يُوَفِّيهِمُ الله دِينَهُمُ الحق . . } [النور : 25] الدين : يُطلَق على منهج الله لهداية الخَلْق ، ويُطلق على يوم القيامة ، ويُطلَق على الجزاء .

فالمعنى : يوفيهم الجزاء الذي يستحقونه { الحق . . } [النور : 25] أي : العدل الذي لا ظلمَ فيه ولا تغيير ، فليس الجزاء جُزَافاً ، إنما جزاء بالحق؛ لأنه لم يحدث منهم توبة ، ولا تجديد إيمان؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يقع بهم ما حذرناهم منه وأخبرناهم به من العقاب ، وليس هناك إله آخر يُغيِّر هذا الحكم أو يؤخره عنهم .

لذلك بعد أنْ قال تعالى : { تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وامرأته حَمَّالَةَ الحطب * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ } [المسد : 1 – 5] .

قال بعدها : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ * الله الصمد * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ } [الإخلاص : 1 – 4] .

يعني : ليس هناك إله آخر يُغيّر هذا الكلام ، فما قُلْته سيحدث لا محالةَ .

ثم يقول تعالى : { وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الله هُوَ الحق المبين } [النور : 25] هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، فكلُّ ما عدا الله تعالى مُتغير ، إذن : فالله بكل صفات الكمال فيه سبحانه لا تغييرَ فيه ، لذلك يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلنا ، ولكن يجب أنْ نتغير نحن من أجل الله ، كما قال سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ . . } [الرعد : 11] .

فالله هو الحقُّ الثابت ، هذا بالبراهين العقلية وبالواقع ، وقد عرفنا الكثير من البراهين العقلية ، أما الواقع فإلى الآن لم يظهر مَنْ يقول أنا الله ويدَّعي هذا الكون لنفسه ، وصاحب الدعوى تثبت له إنْ لم يَقُمْ عليها معارض ومعنى { المبين } [النور : 25] الواضح الظاهر الذي تشمل أحقيتُه الوجودَ كله .

ثم يقول الحق سبحانه : { الخبيثات لِلْخَبِيثِينَ والخبيثون لِلْخَبِيثَاتِ والطيبات لِلطَّيِّبِينَ . . } .

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26)

قلنا في تفسير { الزاني لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً والزانية لاَ يَنكِحُهَآ إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ . . } [النور : 3] أن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستعلي طرف على الآخر ، ومن هذا التكافؤ قوله تعالى : { الخبيثات لِلْخَبِيثِينَ والخبيثون لِلْخَبِيثَاتِ والطيبات لِلطَّيِّبِينَ والطيبون لِلطَّيِّبَاتِ . . } [النور : 26] .

ثم يقول سبحانه : { أولئك . . } [النور : 26] أي : الذين دارتْ عليهم حادثة الإفك ، وخاض الناس في حقهم ، وهما عائشة وصفوان { مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ . . } [النور : 26] أي : مما يُقَال عنهم ، بدليل هذا التكافؤ الذي ذكرتْه الآية ، فمن أطيبُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكما ذكرنا أن الله تعالى ما كان ليُدلِّس على رسوله صلى الله عليه وسلم ويجعل من زوجاته مَنْ تحوم حولها الشبهات .

إذن : فلا بُدَّ أن تكون عائشة طَيّبةً طِيبةً تكافي وتناسب طِيبة رسول الله؛ لذلك برَّأها الله مما يقول المفترون .

وقوله : { لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [النور : 26] مغفرة نزلتْ من السماء قبل القيامة ، ورزق كريم ، صحيح أن الرزق كله من الله بكرم ، لكن هنا يراد الرزق المعنوي للكرامة وللمنزلة وللسمو ، لا الرزق الحسيّ الذي يقيم قِوام البدن من أكل وشرب وخلافه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { يأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ . . } .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27)

كلمة بيت : نفهم منها أنه ما أعِدّ للبيتوتة ، حيث يأوي إليه الإنسان آخر النهار ويرتاح فيه من عناء اليوم ، ويُسمَّى أيضاً الدار؛ لأنها تدور على مكان خاص بك؛ لذلك كانوا في الماضي لا يسكنون إلا في بيوت خاصة مستقلة لا شركة فيها مثل العمارات الآن ، يقولون : بيت من بابه . حيث لا يدخل ولا يخرج عليك أحد ، وكان السَّكَن بهذه الطريقة عِصْمةً من الريبة؛ لأنه بيتك الخاص بأهلك وحدهم لا يشاركهم فيه أحد .

لكن هناك أمور تقتضي أنْ يدخل الناس على الناس؛ لذلك تكلم الحق – تبارك وتعالى – هنا عن آداب الاستئذان وعن المبادئ والنظم التي تنظم هذه المسألة؛ لأن ولوج البيوت بغير هذه الآداب ، ودون مراعاة لهذه النظم يُسبِّب أموراً تدعو إلى الرِّيبة والشك؛ لذلك في الفلاحين حتى الآن : إذا رأوا شخصاً غريباً يدخل حارة لا علاقة له بها لا بُدَّ أن يسأل : لماذا دخل هنا؟

إذن : فشرْع الله لا يحرم المجتمع من التلاقي ، إنما يضع لهذا التلاقي حدوداً وآداباً تنفي الرّيْب والشبهة التي يمكن أنْ تأتي في مثل هذه المسائل .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في آداب الاستئذان : { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ على أَهْلِهَا . . } [النور : 27] .

{ حتى تَسْتَأْنِسُواْ . . } [النور : 27] من الأُنْس والاطمئنان ، فحين تجلس وأهلك في بيتك ، وأقبل عليك غريب لا تعرفه ، إذا لم يُقدِّم لك ما تأنس به من الحديث أو الاستئذان لا بُدَّ أن تحدث منه وَحشة ونفور إذن : على المستأذن أن يحدث من الصوت ما يأنس به صاحب الدار ، كما نقول : يا أهل الله ، أو نطرق الباب ، أو نتحدث مع الولد الصغير ليخبر مَنْ بالبيت .

ذلك لأن للبيوت حرمتها ، وكل بيت له خصوصياته التي لا يحب صاحب البيت أن يطّلع عليها أحد ، إما كرامةً لصاحب البيت ، وإما كرامة للزائر نفسه ، فالاستئذان يجعل الجميع يتحاشى ما يؤذيه .

لذلك قال تعالى بعدها : { ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ . . } [النور : 27] .

أي : خير للجميع ، للزائر وللمزور ، فالاستئذان يمنع أن يتجسس أحد على أحد ، يمنع أن ينظر أحد إلى شيء يؤذيه ، وهَبْ أن أبا الزوجة أراد زيارتها ودخل عليها فجأة فوجدها في شجار مع زوجها ، فلربما اطلع على أمور لا ترضيه ، فيتفاقم الخلاف .

ثم تختم الآية بقوله تعالى : { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النور : 27] يعني : احذروا أن تغفلوا هذه الآداب ، أو تتهاونوا فيها ، كمَنْ يقولون : نحن أهلٌ أو أقارب لا تكليفَ بيننا؛ لأن الله تعالى الذي شرع لكم هذه الآداب أعلَمُ بما في نفوسكم ، وأعلم بما يُصلِحكم .

بل ويتعدى هذا الأدب الإسلامي من الغريب إلى صاحب البيت نفسه ، ففي الحديث الشريف « » نهى أن يطرق المسافر أهله بليل « إنما عليه أن يخبرهم بقدومه حتى لا يفاجئهم وحتى يستعد كل منهما لملاقاة الآخر .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حتى يُؤْذَنَ لَكُمْ . . } .

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28)

فإذا استأذنتَ على بيت ليس فيه أحد ، فلا تدخل؛ لأنك جئتَ للمكين لا للمكان ، إلا إذا كنتَ تريد الدخول لتتلصص على الناس وتتجسَّس عليهم .

وقوله تعالى : { حتى يُؤْذَنَ لَكُمْ . . } [النور : 28] كيف والدار ليس فيها أحد؟

ربما كان صاحب الدار خارجها ، فلما رآك تستأذن نادى عليك من بعيد : تفضل . فلا بُدَّ أنْ يأذن لك صاحب الدار أو مَنْ ينوب عنه في الإذن؛ لأنه لا يأذن إلا وقد أمِن خُلو الطريق مما يؤذيك ، أو مما يؤذي أهل البيت .

ثم يقول سبحانه : { وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارجعوا فارجعوا هُوَ أزكى لَكُمْ . . } [النور : 28] .

لأنك إنْ تمسكت بالدخول بعد أنْ قال لك : ارجع فقد أثرت الريبة في نفسه ، فعليك أن تمتثل وتحترم رغبة صاحب الشأن ، فهذا هو الأزكى والأفضل ، أَلاَ ترى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دَعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

{ والله بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [النور : 28] أي : عالم سبحانه بدخائل النفوس ووساوس الصدور ، فإنْ قال لك صاحب الدار ارجع فوقفتَ أمام الباب ولم تنصرف ، فإنك تثير حولك الظنون والأوهام ، وربك – عز وجل – يريد أنْ يحميك من الظنون ودخائل النفوس .

ثم يقول الحق سبحانه : { لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ . . } .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29)

سأل الصِّديق أبو بكر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله نحن قوم أهل تجارة ، نذهب إلى بلاد ليس لنا فيها بيوت ولا أهل ، ونضطر لأن ننزل في أماكن (عامة كالفنادق) نضع فيها متاعنا ونبيت بها ، فنزلت هذه الآية .

و { جُنَاحٌ . . } [النور : 29] يعني : إثم أو حرج ، وهذه خاصة بالأماكن العامة التي لا يسكنها أحد بعينه ، والمكان العام له قوانين في الدخول غير قوانين البيوت والأماكن الخاصة ،

فهل تستأذن في دخول الفندق أو المحل التجاري أو الحمام . . . إلخ ، هذه أماكن لا حرجَ عليك في دخولها دون استئذان .

فمعنى { غَيْرَ مَسْكُونَةٍ . . } [النور : 29] أي : لقوم مخصوصين { فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ . . } [النور : 29] كأن تنام فيها وتأكل وتشرب وتضع حاجياتك ، فالمتاع هنا ليس على إطلاقه إنما مقيد بما أحلَّه الله وأمر به ، فلا يدخل في المتاع المحرمات .

لذل قال بعدها : { والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ } [النور : 29] يعني : في تحديد الاستمتاع ، فلا تأخذه على إطلاقه فتُدخل فيه الحرامَ ، وإلا فالبغايا كثيراً ما يرتادون مثل هذه الأماكن؛ لذلك يُحصِّنك ربك ، ويعطيك المناعة اللازمة لحمايتك .

ثم يقول رب العزة سبحانه : { قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ . . } .

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30)

تحدثت سورة النور من أولها عن مسألة الزنا والقذف والإحصان ، وحذرتْ من اتباع خطوات الشيطان التي تؤدي إلى هذه الجريمة ، وتحدثت عن التكافؤ في الزواج ، وأن الزاني للزانية ، والزانية للزاني ، والخبيثون للخبيثات والطيبون للطيبات .

وهذا منهج متكامل يضمن سلامة المجتمع والخليفة لله في أرضه ، فالله تعالى يريد مجتمعاً تضيء فيه القيم السامية ، مجتمعاً يخلو من وسائل (العكننة) والمخالفة والشَّحْناء والبغضاء ، فلو أننا طبَّقنا منهج الله الذي ارتضاه لنا لارتاح الجميع في ظله .

ومسألة غَضِّ البصر التي يأمرنا بها ربنا – عز وجل – في هذه الآية هي صمام الأمان الذي يحمينا من الانزلاق في هذه الجرائم البشعة ، ويسد الطريق دونها؛ لذلك قال تعالى : { قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ . . } [النور : 30] .

وقلنا : إن للإنسان وسائل إدراكات متعددة ، وكل جهاز إدراك له مناط : فالأذن تسمع الصوت ، والأنف يشم الرائحة ، واللسان للكلام ، ولذوْق المطعومات ، والعين لرؤية المرئيات ، لكن أفتن شيء يصيب الإنسان من ناحية الجنس هي حاسَّة البصر؛ لذلك وضع الشارع الحكيم المناعة اللازمة في طرفي الرؤية في العين الباصرة وفي الشيء المبصر ، فأمر المؤمنين بغضِّ أبصارهم ، وأمر المؤمنات بعدم إبداء الزينة ، وهكذا جعل المناعة في كلا الطرفين .

وحين تتأمل مسألة غَضِّ البصر تجدها من حيث القسمة العقلية تدور حول أربع حالات : الأولى : أن يغضَّ هو بصره ولا تبدي هي زينتها ، فخطّ الفتنة مقطوع من المرسل ومن المستقبل ، الثانية : أن يغضَّ هو بصره وأن تبدي هي زينتها ، الثالثة : أن ينظر هو ولا تبدي هي زينتها . وليس هناك خطر على المجتمع إو فتنة في هذه الحالات الثلاث فإذا توفر جانب انعدام الآخر .

إنما الخطر في القسمة الرابعة : وهي أن ينظر هو ولا يغضّ بصره ، وأنْ تتزين هي وتُبدي زينتها ، ففي هذه الحالة فقط يكون الخطر .

إذن : فالحق – تبارك وتعالى – حرَّم حالة من أربع حالات؛ ذلك لأن المحرّمات هي الأقل دائماً ، وهذا من رحمة الله بنا ، بدليل قوله تعالى : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . . } [الأنعام : 151] فالمحرمات هي المحصورة المعدودة ، أمّا المحللات فهي فوق الحصر والعَدِّ ، فالأصل في الأشياء أنها حلال ، وإذا أراد الحق سبحانه تحريم شيء نَصَّ عليه ، فانظر إلى هذه المعاملة الطيبة من ربك عز وجل .

وكما أمر الرجل بغضِّ بصره ، كذلك أُمِرَتْ المرأة بغضِّ بصرها ، لأن اللَّفْتة قد تكون أيضاً للرجل ذي الوسامة و . . و فإنْ كان حظ المرأة في رجل تتقحمه العين ، فلربما نظرتْ إلى غيره ، فكما يُقال في الرجال يُقال في النساء .

هذا الاحتياط وهذه الحدود التي وضعها الله عز وجل وألزمنا بها إنما هي لمنع هذه الجريمة البشعة التي بُدِئَتْ بها هذه السورة؛ لأن النظر أول وسائل الزنا ، وهو البريد لما بعده ، أَلاَ ترى شوقي رحمه الله حين تكلم عن مراحل الغَزَل يقول :

نَظْرَةٌ فابتسَامَةٌ فسَلاَمٌ ... فكَلامٌ فموعِدٌ فَلِقَاءٌ

فالأمر بغَضِّ البصر لِيسدَّ منافذ فساد الأعراض ، ومَنْع أسباب تلوث النسل؛ ليأتي الخليفة لله في الأرض طاهراً في مجتمع طاهر نظيف شريف لا يتعالى فيه أحد على أحد ، بأن له نسباً وشرفاً ، والآخر لا نسبَ له .

ذلك ليطمئن كل إنسان على أن مَنْ يليه في الخلافة من أبناء أو أو أحفاد إنما جاءوا من طريق شرعيٍّ شريف ، فيجتهد كل إنسان في أن يُنشِّيء أطفاله تنشئةً فيها شفقة ، فيها حنان ورحمة؛ لأنه واثق أنه ولده ، ليس مدسوساً علي ، وأغلب الظن أن الذين يُهملون أطفالهم ولا يُراعون مصالحهم يشكُّون في نسبهم إليهم .

ولا يصل المجتمع إلى هذا الطُّهْر إلا إذا ضمنتَ له الصيانة الكافية ، لئلا تشرد منه غرائز الجنس ، فيعتدي كل نظر على مَا لا يحلّ له؛ لأن النظر بريد إلى القلوب ، والقلوب بريد إلى الجنس ، فلا يعفّ الفرج إلا بعفاف النظر .

ونلحظ في قوله تعالى : { قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ . . } [النور : 30] دقة بلاغ الرسول عن ربه – عز وجل – وأمانته في نقل العبارة كما أُنزِلَتْ عليه ، ففي هذه الآية كان يكفي أن يقول رسول الله : غُضُّوا أبصاركم ، لكنه التزم بنص ما أُنزِل عليه؛ لأن القرآن لم ينزل للأحكام فقط ، وإنما القرآن هو كلام الله المنزّل على رسوله والذي يُتعبَّد بتلاوته ، فلا بُدَّ أنْ يُبلّغه الرسول كما جاءه من ربه .

لذلك قال في البلاغ عن الله (قُلْ) وفي الفعل (يَغضُّوا) دلالةً على ملحظية (قل) ، فالفعل (يغضوا) مضارع لم تسبقه أداة جزم ، ومع ذلك حُذِفت منه النون ، ذلك لأنه جعل (قُلْ) ملحظية في الأسلوب .

والمعنى : إنْ تقُل لهم غُضُّوا أبصاركم يغضُّوا ، فالفعل – إذن – مجزوم في جواب الأمر (قُلْ) .

إذن { قُلْ . . } [النور : 30] تدل على أمانة الرسول في البلاغ ، وعلى أن القرآن ما نزل للأحكام فحسب ، إنما هو أيضاً كلام الله المعجز؛ لذلك نحافظ عليه وعلى كل لفظة فيه ، وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما أتيتُ لكم بشيء من عندي ، ومهمتي أن أبلغكم ما قاله الله لي .

وقوله : { لِّلْمُؤْمِنِينَ . . } [النور : 30] فما داموا مؤمنين بإله حكيم ، وقد دخلوا حظيرة الإيمان باختيارهم لم يُرغمهم عليه أحد ، فلا بُدَّ أنْ يلتزموا بما أمرهم ربهم به وينفذوه بمجرد سماعه .

والغَضُّ : النقصان ، يقال : فلان يغُضُّ من قَدْر فلان يعني : ينقصه ، فكيف يكون النقصان في البصر؟ أينظر بعين واحدة؟ قالوا : البصر له مهمة ، وبه تتجلى المرائي ، والعين مجالها حر ترى كل ما أمامها سواء أكان حلالاً لها أو مُحرّماً عليها .

فنقص البصر يعني : قَصْره على ما أحل ، وكفّه عما حُرم ، فالنقص نقص في المرائي وفي مجال البصر ، فلا تعطي له الحرية المطلقة فينظر إلى كل شيء ، إنما تُوقِفه عند أوامر الله فيما يُرى وفيما لا يُرى .

و { مِنْ . . } [النور : 30] في قوله تعالى : { مِنْ أَبْصَارِهِمْ . . } [النور : 30] البعض يرى أنها للتبعيض كما تقول : كُلْ من هذا الطعام يعني : بعضاً منه ، فالمعنى : يغضُّوا بعض البصر؛ لأن بَعضه حلال لا أغض عنه بصري ، وبعضه محرم لا أنظر إليه .

أو : أن { مِنْ . . } [النور : 30] هنا لتأكيد العموم في أدنى مراحله ، وسبق أن تكلمنا عن (مِنْ) بهذا المعنى ، ونحن كلما توغلنا في التفسير لا بُدّ أن تقابلنا أشياء ذكرناها سابقاً ، ونحيل القارئ عليها .

قلنا : فرق بين قولك : ما عندي مال ، وقولك : ما عندي من مال . ما عندي مال ، يحتمل أن يكون عندك مال قليل لا يُعْتدّ به ، لكن ما عندي من مال نفي لجنس المال مهما قَلَّ ، فمِنْ تعني بدايةَ ما يقال له مال .

فالمعنى هنا : { قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ . . } [النور : 30] يعني : بداية مَا يُقال له بصر ، ولو لمحة خاطفة ، ناهيك عن التأمل وإدامة البصر .

وقلنا : إن الشرع لا يتدخل في الخواطر القلبية والهواجس ، إنما يتدخل في الأعمال النزوعية التي

يترتب عليها فعل ، قلنا : لو مررتَ ببستان فرأيتَ به ورده جميلة ، فأعجبت بها وسُرِرْت وانبسطتْ لها أسارير نفسك ، كل هذا مباح لك لا حرجَ عليك فيه ، فإنْ تعدَّى الأمر ذلك فمددتَ إليها يدك لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع يقول لك : قِفْ ، فليس هذا من حقك لأنها ليستْ لك .

هذه قاعدة عامة في جميع الأعمال لا يستثني منها إلا النظر وحده ، وكأن ربنا – عز وجل – يستسمحنا فيه ، هذه المسألة من أجلنا ولصالحنا نحن ولراحتنا ، بل قل رحمة بنا وشفقة علينا من عواقب النظر وما يُخلِّفه في النفس من عذابات ومواجيد .

ففي نظر الرجل إلى المرأة لا نقول له : انظر كما تحب واعشق كما شئت ، فإن نزعْتَ إلى ضمة أو قبلة قلنا لك : حرام . لماذا؟ لأن الأمر هنا مختلف تماماً ، فعلاقة الرجل بالمرأة لها مراحل لا تنفصل إحداها عن الأخرى أبداً .

فساعة تنظر إلى المرأة هذا إدراك ، فإنْ أعجبتْك وانبسطتْ لها أساريرك ، فهذا وجدان ، لا بُدَّ أن يترك في تكوينك تفاعلاً كيماوياً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع فإنْ طاوعْتَ نفسك في النزوع فقد اعتديتَ ، وإنْ كبتَّ في داخلك هذه المشاعر أصابتْك بعُقد نفسية ودعتْك إلى أن تبحث عن وسيلة أخرى للنزوع؛ لذلك رحمك ربك من بداية الأمر ودعاك إلى مَنْع الإدراك بغضِّ البصر .

لذلك بعد أن أمرنا سبحانه بغضِّ البصر قال : { وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ . . } [النور : 30] لأنك لا تملك أن تفصل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، وإنْ أمكن ذلك في الأمور الأخرى ، فحين نمنعك عن قطف الوردة التي أعجبتْك لا يترك هذا المنع في نفسك أثراً ولا وَجْداً ، على خلاف ما يحدث إنْ مُنعتَ عن امرأة أعجبتك ، وهيَّجك الوجدان إليها .

وحِفْظ الفروج يكون بأن نقصرها على ما أحلَّه الله وشرعه فلا أنيله لغير مُحلَّل له ، سواء كان من الرجل أو من المرأة ، أو : أحفظه وأصونه أن يُرى؛ لأن رؤيته تهيج إلى الشر وإلى الفتنة .

{ ذلك أزكى لَهُمْ . . } [النور : 30] يعني : أطهر وأسلم وأدْعَى لراحة النفس؛ لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرماً ، ويلج في أعراض الناس ، وإما ألا ينزع فيُكدِّر نفسه ويُؤلمها بالصبر على مَا لا تطيق .

ثم يقول سبحانه : { إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [النور : 30] فهو سبحانه خالق هذه النفس البشرية ، وواضع مسألة الشهوة والغريزة الجنسية التي هي أقوى الغرائز ليربط بها بين الرجل والمرأة ، وليحقق بها عملية النسل وبقاء الاستخلاف في الأرض ، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملّحة لزهَدَ الكثيرون في الزواج وفي الإنجاب وما يترتب عليه من تبعات .

أَلاَ ترى المرأة وما تعانيه من آلام ومتاعب في مرحلة الحمل ، وأنها ترى الموت عند الولادة ، حتى إنها لتقسم أنها لا تعود ، لكن بعد أن ترى وليدها وتنسى آلامها سرعان ما يعاودها الحنين

للإنجاب مرة أخرى ، إنها الغريزة التي زرعها الله في النفس البشرية لدوام بقائها .
وللبعض نظرة فلسفية للغرائز ، خاصة غريزة الجنس ، حيث جعلها الله تعالى أقوى الغرائز ، وربطها بلذة أكثر أثراً من لذة الطعام والشراب والشَّمّ والسماع . . إلخ فهي لذة تستوعب كل جوارح الإنسان وملكاته ، وما ذلك إلا حِرْصاً على بقاء النوع ودواماً للخلافة في الأرض .
ثم يقول الحق سبحانه لرسوله : { وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا . . } .

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)

ذكر هنا المقابل ، فأمر النساء بما أمر به الرجال ، ثم زاد هنا مسألة الزينة . والزينة : هي الأمر الزائد عن الحد في الفطرية؛ لذلك يقولون للمرأة الجميلة بطبيعتها والتي لا تحتاج إلى أن تتزين : غانِية يعني : غنيت بجمالها عن التزيُّن فلا تحتاج إلى كحل في عينيها ، ولا أحمر في خدَّيْها ، لا تحتاج أن تستر قُلْبها بأسورة ، ولا صدرها بعقد . . إلخ .
فإنْ كانت المرأة دون هذا المستوى احتاجتْ لشيء من الزينة ، لكن العجيب أنهن يُبالِغْنَ في هذه الزينة حتى تصبح كاللافتة النيون على كشك خشبي مائل ، فترى مُسِنَّات يضعْنَ هذا الألوان وهذه المساحيق ، فيَظْهَرن في صورة لا تليق؛ لأنه جمال مُصْطنع وزينة متكلفة يسمونها تطرية ، وفيها قال المتنبي ، وهو يصف جمال المرأة البدوية وجمال الحضرية :
حُسْن الحِضارة مَجْلوبٌ بتطْرِيةٍ ... وفِي البَدَاوة حُسْنٌ غير مَجْلُوب
ومن رحمة الله بالنساء أن قال بعد { وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ . . } [النور : 31] قال : { إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا . . } [النور : 31] يعني : الأشياء الضرورية ، فالمرأة تحتاج لأنْ تمشي في الشارع ، فتظهر عينيها وربما فيها كحل مثلاً ، وتظهر يدها وفيها خاتم أو حناء ، فلا مانع أن تُظهر مثل هذه الزينة الضرورية .
لكن لا يظهر منها القُرْط مثلاً؛ لأن الخمار يستره ولا (الديكولتيه) أو العقد أو الأسورة أو الدُّمْلُك ولا الخلخال ، فهذه زينة لا ينبغي أن تظهر . إذن : فالشارع أباح الزينة الطبيعية شريطةَ أن تكون في حدود ، وأن تقصر على مَنْ جُعِلَتْ من أجله .
ونلحظ في قوله تعالى : { وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا . . } [النور : 31] المراد تغطية

الزينة ، فالجارحة التي تحتها من باب أوْلَى ، فالزينة تُغطِّي الجارحة ، وقد أمر الله بسَتْر الزينة ، فالجارحة من باب أَوْلَى .

وقوله تعالى : { وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ . . } [النور : 31] .

الخُمر : جمع خِمّار ، وهو غطاء الرأس الذي يُسْدل ليستر الرقبة والصدر . الجيوب : جميع جيب ، وهو الفتحة العليا للثوب ويسمونها (القَبَّة) والمراد أن يستر الخمارُ فتحةَ الثوب ومنطقة الصدر ، فلا يظهر منها شيء .

والعجيب أن النساء تركْنَ هذا الواجب ، بل ومن المفارقات أنهن يلبسْنَ القلادة ويُعلِّقن بها المصحف الشريف ، إنه تناقض عجيب يدل على عدم الوعي وعدم الدراية بشرع الله مُنزِل هذا المصحف .

وتأمل دقة التعبير القرآني في قوله تعالى { وَلْيَضْرِبْنَ . . } [النور : 31] والضرب هو : الوَقْع بشدة ، فليس المراد أن تضع المرأة الطرحة على رأسها وتتركها هكذا للهواء ، إنما عليها أنْ تُحكِمها على رأسها وصدرها وتربطها بإحكام .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة : رحم الله نساء المهاجرات ، لما نزلت الآية لم يكُنْ عندهم خُمر ، فعمدْن إلى المروط فشقوها وصنعوا منها الخُمُر .

إذن : راعَى الشارع الحكيم زِيَّ المرأة من أعلى ، فقال : { وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ . . } [النور : 31] ومن الأدنى فقال : { يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ . . } [الأحزاب : 59] .

ثم يقول تعالى : { وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ . . } [النور : 31] أي : أزواجهن؛ لأن الزينة جُعِلَتْ من أجلهم { أَوْ آبَآئِهِنَّ أَوْ آبَآءِ بُعُولَتِهِنَّ . . } [النور : 31] أبو الزوج ، إلا أنْ يخاف منه الفتنة ، فلا تبدي الزوجة زينتها أمامه .

ومعنى { أَوْ نِسَآئِهِنَّ . . } [النور : 31] أي : النساء اللائي يعملْنَ معها في البيت كالوصيفات والخادمات { أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ . . } [النور : 31] والمراد هنا أيضاً ملْك اليمين من النساء دون الرجال .

ويشترط في هؤلاء النساء أن يكُنَّ مسلمات ، فإنْ كُنَّ كافرات كهؤلاء اللائي يستقدمونهن من دول أخرى ، فلا يجوز للمرأة أن تُبدي زينتها أمامهن ، وأن تعتبرهن في هذه المسألة كالرجال ، لأنهن غير مسلمات وغير مؤتمنات على المسلمة ، وربما ذهبت فوصفتْ ما رأتْ من سيدتها للرجل الكافر فينشغل بها .

ومن العلماء مَنْ يرى أن مِلْك اليمين لا يخصُّ النساء فقط ، إنما الرجال أيضاً ، فللمرأة أنْ تُبدي زينتها أمامهم ، قالوا : لأن هناك استقبالاً عاطفياً وامتناعاً عاطفياً في النفس البشرية ، فالخادم في

القَصْر لا ينظر إلى سيدته ولا إلى بناتها؛ لأنه لا يتسامى إلى هذه المرتبة ، إلا إذا شجَّعْنَهُ ، وفتحْنَ له الباب ، وهذه مسألة أخرى .

وقوله تعالى : { أَوِ التابعين غَيْرِ أُوْلِي الإربة مِنَ الرجال . . } [النور : 31] أي : التابعين للبيت ، والذين يعيشون على فضلاته ، فتكون حياة التابع من حياة متبوعه ، فليس عنده بيت يأويه؛ لذلك ينام في أيِّ مكان ، وليس عنده طعام؛ لذلك يُطعمه الناس وهكذا ، فهو ضائع لا هدفَ له ولا استقلاليةَ لحياته ، وترى مثل هؤلاء يأكلون فضلات الموائد ويلبسون الخِرَق وينامون ولو على الأرصفة .

مثل (الأهبل) أو المعتوه الذي يعطف الناس عليه ، وليس له مطمع في النساء ، ولا يفهم هذه المسألة ، فلا يُخاف منه على النساء؛ لأنه لا حاجةَ له فيهن؛ ولا يتسامى لأنْ ينظر إلى أهل البيت .

ومعنى : { غَيْرِ أُوْلِي الإربة مِنَ الرجال . . } [النور : 31] يعني : كأن يكون كبير السِّنّ واهن القوى ، لا قدرةَ له على هذه المسائل ، أو يكون مجبوباً ، مقطوع المتاع ، ولا خطرَ من مثل هؤلاء على النساء .

وقوله تعالى : { أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء . . } [النور : 31] .

نلحظ هنا أن الطفل مفرد ، لكن وُصِف بالجمع { الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء . . } [النور : 31] لماذا؟ قالوا : هذه سِمَة من سمات اللغة ، وهي الدقة في التعبير ، حيث تستخدم اللفظ المفرد للدلالة على المثنى وعلى الجمع .

كما نقول : هذا قاضٍ عَدْلٌ ، وهذان قاضيان عَدْل ، وهؤلاء قضاة عَدْل ، ولم نقل : عدلان وعدول ، فإذا وحِّد الوصف في الجميع بدون هوى كان الوصف كالشيء الواحد ، فالقاضي لا يحكم بمزاجه وهواه ، والآخر بمزاجه وهواه ، إنما الجميع يصدرون عن قانون واحد وميزان واحد . إذن : فالعدل واحد لا يُقَال بالتشكيك ، وليس لكل واحد منهم عدل خاص به ، العّدْل واحد .

كذلك الحال في { الطفل . . } [النور : 31] مع أن المراد الأطفال ، لكن قال (الطفل) لأن غرائزه مشتركة مع الكل ، وليس له هَوىً ، فكل الأطفال – إذن – كأنهم طفل واحد حيث لم يتكوّن لكل منهم فِكْره الخاص به ، الجميع يحب اللهو واللعب ، ولا شيءَ وراء ذلك ، فالجمعية هنا غير واضحة لوجود التوحيد في الغرائز وفي الميول .

بدليل أنه إذا كَبِر الأطفال وانتقلوا إلى مرحلة البلوغ وتكوَّن لديهم هَوىً وفِكْر وميْل يقول القرآن عنهم : { وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم . . } [النور : 59] فنظر هنا إلى الجمع لعدم التوحُّد في مرحلة الطفولة المبكرة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين } [الذاريات : 24] فوصف ضيف وهي مفرد بالجمع (مكرمين) ؛ ذلك لأن ضَيْف تدل أيضاً على الجمع ، فالضيف من انضاف على البيت وله حَقٌّ والتزامات لا بُدَّ أن يقدمها المضيف ، مما يزيد على حاجة البيت ، والضيف في هذه الالتزامات واحد ، سواء كان مفرداً أو جماعة؛ لذلك دَلَّ بالمفرد على الجميع .

وقوله تعالى : { الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء . . } [النور : 31] يظهر على كذا : لها معنيان في اللغة : الأول : بمعنى يعلم كما في قوله تعالى : { إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ . . } [الكهف : 20] يعني : إنْ عَلِموا بكم وعرفوا مكانكم .

والثاني : بمعنى يعلو ويغلب ويقهر ، كما في قوله تعالى : { فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ } [الكهف : 97] أي : السد الذي بناه ذو القرنين ، فالمعنى : ما استطاعوا أنْ يعلوه ويرتفعوا عليه .

وهنا { لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء . . } [النور : 31] يعني : يعرفونها ويستبينونها ، أو يقدرون على مطلوباتها ، فليس لهم عِلْم أو دراية بهذه المسائل .

ثم يقول سبحانه : { وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ . . } [النور : 31] .

الحق – تبارك وتعالى – يكشف ألاعيب النساء وحِيَلهنّ في جَذْب الأنظار ، فإذا لم يلفتْك إليها النظر لفتَك الصوت الذي تحدثه بمشيتها كأنها تقول لك : يا بجم اسمع ، يا للي ما نتاش شايف اسمع ، وفي الماضي كُنَّ يلبسْنَ الخلخال الذي يُحدِث مثل هذا الصوت أثناء المشي ، وأول مَنِ استخدم هذه الحيل الراقصات ليجذبن إليهن الأنظار .

ومعلوم أن طريقة مَشْي المرأة تُبدِي الكثير من زينتها التي لا يراها الناس ، وتُسبِّب كثيراً من الفتنة؛ لذلك يقول تعالى بعدها وفي ختام هذه المسائل : { وتوبوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَ المؤمنون لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور : 31] .

لم يَقُل الحق تبارك وتعالى : يا مَنْ أذنبتم بهذه الذنوب التي سبق الحديث عنها ، إنما قال { جَمِيعاً . . } [النور : 31] فحثَّ الجميع على التوبة؛ ليدل على أن كل ابن آدم خطاء ، ومهما كان المسلم مُتمسِّكاً ملتزماً فلا يأمن أنْ تفوته هفوة هنا أو هناك ، والله – عز وجل – الخالق والأعلم بمَنْ خلق؛ لذلك فتح لهم باب التوبة وحثَّهم عليها ، وقال لهم : ما عليكم إلا أنْ تتوبوا ، وعليَّ أنا الباقي .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَنْكِحُواْ الأيامى مِنْكُمْ والصالحين مِنْ عِبَادِكُمْ . . } .

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32)

بعد أن تكلم الحق – سبحانه وتعالى – عن مسألة حِفْظ الفروج ودعا إلى الحفاظ على طهارة الأنساب ، أراد أنْ يتكلم عن هؤلاء الرجال أو النساء الذين لم يتيسَّر لهم أمر الزواج؛ ذلك ليعالج الموضوع من شتى نواحيه؛ لأن المشرِّع لا بُدَّ أن يستولي بالتشريع على كُلِّ ثغرات الحياة فلا يعالج جانباً ويترك الآخر .

و { الأيامى . . } [النور : 32] جمع أيِّم ، والأيِّم من الرجال مَنْ لا زوجةَ له ، والأيِّم من النساء مَنْ لا زوجَ لها .

ونلحظ أن الأمر في { أَنْكِحُواْ . . } [النور : 32] جاء هكذا بهمزة القَطْع ، مع أن الأمر للواحد (انكح) بهمزة الوصل ، ذلك لأن الأمر هنا (أنكحوا) ليس للمفرد الذي سينكح الأيِّم ، إنما لغيره أنْ يُنكحه ، والمراد أمر أولياء الأمور ومَنْ عندهم رجال ليس لهم زوجات ، أو نساء ليس لهُنَّ أزواج : عَجِّلوا بزواج هؤلاء ، ويسِّروا لهم هذه المسألة ، ولا تتشددوا في نفقات الزواج حتى تُعِفُّوا أبناءكم وبناتكم ، وإذا لم تعينوهم فلا أقلَّ من عدم التشدد والمغالاة .

وفي الحديث الشريف : « إذا جاءكم مَنْ ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه ، إلاَّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

ومع ذلك في مجتمعاتنا الكثير من العادات والتقاليد التي تعرقل زواج الشباب أخطرها المغالاة في المهور وفي النفقات والنظر إلى المظاهر . . إلخ وكأن الحق – تبارك وتعالى – يقول لأولياء الأمور : يسِّروا للشباب أمور الالتقاء الحلال ومهَّدوا لهم سبيل الإعفاف .

وقد أعطانا القرآن نموذجاً لما ينبغي أن يكون عليه وليُّ الأمر ، فقال تعالى عن سيدنا شعيب عليه السلام : { قَالَ إِنِي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ . . } [القصص : 27] ذلك لأن موسى – عليه السلام – سيكون أجيراً عنده ، وربما لا يتسامى إلى أن يطلب يد ابنته؛ لذلك عرضها عليه وخطبه لها وشجَّعه على الإقبال على زواجها ، فأزال عنه حياء التردد ، وهكذا يجب أن يكون أبو الفتاة إنْ وجد لابنته كفؤاً ، فلا يتردد في إعفافها .

وقوله تعالى : { والصالحين مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ . . } [النور : 32]

وقوله صلى الله عليه وسلم : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، وجمالها ، وحسبها ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

ولما سُئِل الحسن – رضي الله عنه – عن مسألة الزواج قال لوالد الفتاة الذي جاء يستشيره : زوِّجها مَنْ تأمنه على دينه ، فإنْ أحبَّ ابنتك أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها . وماذا يريد الإنسان في زوج ابنته أكثر من هذا؟

فالدين والخُلق والقيم السامية هي الأساس الذي يُبني عليه الاختيار ، أما المال فهو شيء ثانوي وعَرَض زائل؛ لذلك يقول تعالى : { إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ الله مِن فَضْلِهِ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ . . } [النور : 32] .

فالفقر قد يكون سبباً في عدم الإقبال على البنت ، أو عدم إقبال أهل البنت على الزوج ، لكن كيف يتخلى الله عَنَّا ونحن نتقيه ونقصد الإعفاف والطهر؟ لا يمكن أن يضن الله على زوجيْن التقيا على هذه القيم واجتمعا على هذه الآداب ، ومَنْ يدريك لعل الرزق يأتي للاثنين معاً ، ويكون اجتماعهما في هذه الرابطة الشرعية هو باب الرزق الذي يفتح للوجهين معاً؟

{ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [النور : 32] فعطاء الله دائم لا ينقطع؛ لأن خزائنه لا تنفد ولا تنقص ، والإنسان يُمسِك عن الإنفاق؛ لأنه يخاف الفقر ، أمّا الحق – تبارك وتعالى – فيعطي العطاء الواسع؛ لأن ما عنده لا ينفد .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلْيَسْتَعْفِفِ الذين لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حتى يُغْنِيَهُمُ الله مِن فَضْلِهِ . . } .

وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33)

في حالة إذا لم ننكح الأيامى ، ولم نُعِنهم على الزواج ، ولم يقدروا هم على القيام بنفقاته يصف لهم الحق – سبحانه وتعالى – العلاج المناسب ، وهو الاستعفاف ، وقد طلب الله تعالى من المجتمع الإسلامي سواء – تمثَّل في أولياء الأمور أو في المجتمع العام – أن ينهض بمسألة الأيامى ، وأنْ يعينهم على الزواج ، فإنْ لم يقُمْ المجتمع بدروه ، ولم يكُنْ لهؤلاء الأيامى قدرة ذاتية على الزواج ، فليستعفف كل منهم حتى يغنيهم الله ، مما يدل على أن التشريع يبني أحكامه ، ويُراعي كل الأحوال ، سواء أطاعوا جميعاً أو عَصَوْا جميعاً .

وقوله تعالى : { وَلْيَسْتَعْفِفِ . . } [النور : 33] يعني : يحاول العفاف ويطلبه ويبحث عن أسبابه ، يجاهد أن يكون عفيفاً ، وأول أسباب العفاف أن يغضَّ بصره حين يرى ، فلا يوجد له مُهيِّج ومثير ، فإنْ وجد في نفسه فُتوة وقوة فعلية أن يُلجمها ويُضعِفها بالوسائل الشرعية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما معشر الشباب مَنِ استطاع منكم الباءة – يعني : نفقات الحياة الزوجية – فليتزوج ، ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

والصوم يعمل على انكسار هذه الشهوة ويُهدِّيء من شراسة الغريزة؛ ذلك لأنه يأكل فقط ما يقيم أَوْدَه ، ولا يبقى في بدنه ما يثير الشهوة ، كما جاء في الحديث الشريف : « بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صُلْبه . . . » .

أو : أن يُفرِّغ الشاب نفسه للعمل النافع المفيد الذي يشغله ويستنفد جَهْده وطاقته ، التي إن لم تصرف في الخير صرفت في الشر ، وبالعمل يثبت الشاب ذاته ، ويثق بنفسه ، ويكتسب الحلال

الذي يُشجّعه مع الأيام على الزواج وتحمُّل مسئولياته .
لذلك قال تعالى : { وَلْيَسْتَعْفِفِ . . } [النور : 33] ولم يقُلْ : وليعف ، فالمعنى ليسلك سبيل الإعفاف لنفسه وليسْعَ إليه ، بأن يمنع المهيّج بالنظر ويُهدئ شراسة الغريزة بالصوم ، أو بالعمل فيشغل وقته ويعود آخر النهار متعباً يريد أن ينام ليقوم في الصباح لعمله نشيطاً ، وهكذا لا يجد فرصة لشيء مما يغضب الله .
ومعنى : { الذين لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً . . } [النور : 33] أي : بذواتهم قدرة أو بمجتمعهم معونة .
وقوله تعالى : { حتى يُغْنِيَهُمُ الله مِن فَضْلِهِ . . } [النور : 33] يدل على أن الاستعفاف وسيلة من وسائل الغنى؛ لأن الاستعفاف إنما نشأ من إرادة التقوى ، وقد قال تعالى في قضية قرآنية : { وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ } [الطلاق : 2 – 3] فمن هذا الباب يأتيه غِنَى الله .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { والذين يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ الله الذي آتَاكُمْ . . } [النور : 33] .
الكتاب : معروف أنه اجتماع عدة أشياء مكتوبة في ورق ، والمراد هنا المكاتبة ، وهي أن تكتب عَقْداً بينك وبين العبد المملوك ، تشترط فيه أن يعمل لك كذا وكذا بعدها يكون حراً ، إنْ أدَّى ما ذكر في عَقْد المكاتبة .

{ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً . . } [النور : 33] يعني : إنْ كانت حريتهم ستؤدي إلى خير كأنْ ترفع عنهم ذِلَّة العبودية ، وتجعلهم ينشطون في الحياة نشاطاً يناسب مواهبهم .
لذلك جعل الحق – سبحانه وتعالى – هذه المكاتبة مَصْرفاً من مصارف الزكاة ، فقال تعالى : { وَفِي الرقاب . . } [البقرة : 177] يعني : المماليك الذين نريد أنْ نفكَّ رقابهم من أَسْر العبودية وذُلِّها بالعتق ، وإنْ كان مال الزكاة يُدفع للفقراء وللمساكين . . إلخ ففي الرقاب يدفع المال للسيد ليعتق عبده .
كما جعل الإسلام عِتْق الرقاب كفارةً لبعض الذنوب بين العبد وبين ربه؛ ذلك لأن الله تعالى يريد أن يُنهي هذه المسألة .
{ وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ الله الذي آتَاكُمْ . . } [النور : 33] .
الحق – تبارك وتعالى – هو الرازق ، والمال في الحقيقة مال الله ، لكن إنْ ملّكك وطلب منك أن تعطي أخاك الفقير يحترم ملكيتك ، ولا يعود سبحانه في هِبَته لك؛ لذلك يأخذ منك الصدقة على أنها قَرْض لا يردُّه الفقير ، إنما يتولى ربك عز وجل رَدَّه ، فيقول : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً . . } [البقرة : 245] ولم يقُلْ سبحانه : يقرض فلاناً ، وإنما يُقرِض الله لأنه تعالى

هو الخالق ، ومن حق عبده الذي استدعاه للوجود أنْ يرزقه ويتكفّل له بقُوتِه .
واحترام الملكية يجعل الإنسان مطمئناً على آثار حركة حياته وثمره جهده ، وأنها ستعود عليه ، وإلاّ فما الداعي للعمل ولبذل المجهود إنْ ضاعت ثمرته وحُرِم منها صاحبها؟ عندها ستتعطل مصالح كثيرة وسيعمل الفرد على قَدْر حاجته فحسب ، فلا يفيض عنه شيء للصدقة .
ثم يقول سبحانه : { وَلاَ تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البغآء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ الحياة الدنيا وَمَن يُكْرِههُنَّ فَإِنَّ الله مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النور : 33] .
يُقَال للمملوك : فتى ، وللمملوكة : فتاة ، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول الرجل : عبدي وأَمَتي إنما يقول : فتاي وفتاتي ، فهذه التسمية أكرم لهؤلاء وأرفع ، فالفتى من الفُتوّة والقوة كأنك تقول : هذا قوتي الذي يساعدني ويعينني على مسائل الحياة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يرفع من شأنهم .
ومن هؤلاء جماعة المماليك الذين حكموا مصر في يوم من الأيام ، وكانوا من أبناء الملوك والسلاطين والأعيان .
والبغاء ظاهرة جاء الإسلام فوجدها منتشرة ، فكان الرجل الذي يملك مجموعة من الإماء ينصب لهُنّ راية تدل عليهن ، ويأتيهن الشباب ويقبض هو الثمن ، ومن هؤلاء عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس النفاق ، وكان عنده (مسيكة ، ومعاذه) وفيه نزلت هذه الآية .
وتأويل الآية : لا تُكرِهوا الإماء على البغاء ، وقد كُنَّ يبكين ، ويرفضْنَ هذا الفعل ، وكُنَّ يؤذيْنَ ويتعرضْنَ للغمز واللمز ، ويتجرأ عليهن الناس ، وكان من هؤلاء الإماء بنات ذوات أصول طيبة شريفة ، لكن ساقتهن الأقدار إلى السَّبْي في الحروب أو خلافه ، في حين أن الحرة العفيفة تسير لا يتعرض لها أحد بسوء .

ومعنى : { إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً . . } [النور : 33] يتكلم القرآن هنا عن الواقع بحيث إنْ لم يُرِدْن تحصُّناً فلا تُكرِهوهُنَّ { لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ الحياة الدنيا . . } [النور : 33] طلباً للقليل من المال الزائل { وَمَن يُكْرِههُنَّ فَإِنَّ الله مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النور : 33] لأنهن في حالة الإكراه على البغاء يفقدن شرط الاختيار ، فلا يتحملن ذنب هذه الجريمة ، عملاً بالحديث النبوي الشريف : « رُفِع عن أمتي : الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه » .
لذلك يُطمئِن الحق – تبارك وتعالى – هؤلاء اللاتي يُرِدْنَ التحصُّن والعفاف ، لكن يكرههن سيدهن على البغاء ، ويُرغمهن بأيّ وسيلة : اطمئنن فلا ذنبَ لَكُنَّ في هذه الحالة ، وسوف يُغفر لَكُنَّ والله غفور رحيم .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ . . } .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (34)

المعنى : لا عذر لكم؛ لأن الله تعالى قد أنزل إليكم الآيات الواضحة التي تضمن لكم شرف الحياة وطهارتها ونقاء نسل الخليفة لله في الأرض ، وهذه الآيات ما تركتْ شيئاً من أقضية الحياة إلا تناولتْه وأنزلتْ الحكم فيه ، وقد نلتمس لكم العذر لو أن في حياتكم مسألة أو قضية ما لم يتناولها التشريع ولم ينظمها .

لذلك يقول سيدنا الإمام علي – رضي الله عنه – عن القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، هو الفَصْل ليس بالهَزْل ، مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومَنْ ابتغى الهدى في غيره أضله الله .

ولا يزال الزمان يُثبِت صِدْق هذه المقولة ، وانظر هنا وهناك لتجد مصارع الآراء والمذاهب والأحزاب والدول التي قامت لتناقض الإسلام ، سواء كانت رأسمالية شرسة أو شيوعية شرسة . إلخ . كلها انهارت على مَرْأىً ومَسْمع من الجميع .

نعم ، مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومَنْ ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله ، لأنه خالقك ، وهو أعلم بما يُصلحك ، فلا يليق بك – إذن – أن تأخذ خَلْق الله لك ثم تتكبر عليه وتضع لنفسك قانوناً من عندك أنت .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الآيات تطلق على ثلاثة إطلاقات : الآيات الكونية التي تلفتك إلى الصانع المبدع عز وجل ، وعلى المعجزات التي تأتي لتثبت صِدْق الرسول في البلاغ عن الله ، وتُطلق على الآيات الحاملة للأحكام وهي آيات القرآن الكريم ، وفي القرآن هذا كله .

وقوله تعالى : { وَمَثَلاً مِّنَ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } [النور : 34] .

أي : جعلنا لكم موعظة وعبرة بالأمم السابقة عليكم ، والتي بلغت شأوها في الحضارة ، ومع ذلك لم تملك مُقوِّمات البقاء ، ولم تصنع لنفسها المناعة التي تصونها فانهارت ، ولم يبق منهم إلا آثار كالتي نراها الآن لقدماء المصريين ، وقد بلغوا من الحضارة منزلةً أدهشت العالم المتقدم الحديث ، فيأتون الآن متعجبين : كيف فعل قدماء المصريين هذه الحضارة؟

وكان أعظم من حضارة الفراعنة حضارة عاد التي قال الله عنها : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد } [الفجر : 6 – 14] يعني : لن يفلت من المخالفين أحد ، ولن ينجو من عذاب الله كافر .

والمثَل كذلك في مسألة الزنا وقَذْف المحصنات العفيفات ، كحادثة الإفك التي سبق الكلام عنها ، وأنها كانت مَثَلاً وعِبرةً ، كذلك كانت قصة السيدة مريم مثلاً وقد اتهمها قومها ، وقالوا : {

يأخت هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً } [مريم : 28] .
وكذلك كانت قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، وكلها مسائل تتعلق بالشرف ، ولم تَخْلُ من رَمْي العفيفات المحصنات ، أو العفيف الطاهر يوسف بن يعقوب عليهما السلام .
وهذه الآيات مبينات للوجود الأعلى في آيات الكون ، مُبينات لصِدْق المبلِّغ عن الله في المعجزات ، مُبيِّنات للأحكام التي تنظم حركة الحياة في آيات القرآن ، ثم أريناهم عاقبة الأمم السابقة سواء مَنْ أقبل منهم على الله بالطاعة ، أو مَنْ أعرض عنه بالمعصية ، ولا يستفيد من هذه المواعظ والعِبَر إلا المتقون الذين يخافون الله وتثمر فيهم الموعظة .

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)

قلنا : فإن الله تعالى أعطانا النور الحسيّ الذي نرى به مرائي الأشياء ، وجعله وسيلة للنور المعنوي ، وقلنا إن الدنيا حينما تظلم ينير كل مِنّا لنفسه على حسب قدراته وإمكاناته في الإضاءة ، فإذا ما طلعتْ الشمس وأنار الله الكون أطفأ كل مِنَّا نوره؛ لأن نور الله كافٍ ، فكما أن نور الله كافٍ في الحسيات فنوره أيضاً كافٍ في المعنويات .
فإذا شرع الله حكماً معنوياً يُنظِّم حركة الحياة ، فإياكم أن تعارضوه بشيء من عندكم ، فكما أطفأتم المصابيح الحسية أمام مصباحه فأطفئوا مصابيحكم المعنوية كذلك أمام أحكامه تعالى وأوامره ، والأمر واضح في الآيات الكونية .
{ الله نُورُ السماوات والأرض . . } [النور : 35] كما نقول ولله المثل الأعلى : فلان نوَّر البيت ، فالآية لا تُعرِّف الله لنا ، إنما تُعرِّفنا أثره تعالى فينا ، فهو سبحانه مُنوِّر السموات والأرض ، وهما أوسع شيء نتصوره ، بحيث يكون كل شيء فيهما واضحاً غيرَ خفيّ .
ثم يضرب لنا ربنا – عز وجل – مثلاً توضيحياً لنوره ، فيقول : { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . . } [النور : 35] أي : مَثَلُ تنويره للسموات وللأرض { كَمِشْكَاةٍ . . } [النور : 35] وهي الطاقة التي كانوا يجعلونها قديماً في الجدار ، وهي فجوة غير نافذة يضعون فيها المصباح أو المِسْرجة ، فتحجز هذه الفجوة الضوء وتجمعه في ناحية فيصير قوياً ، ولا يصنع ظِلاً أمام مسار الضوء .
والمصباح : إناء صغير يُوضع فيه زيت أو جاز فيما بعد ، وفي وسطه فتيل يمتصّ من الزيت فيظل مشتعلاً ، فإنْ ظلَّ الفتيل في الهواء تلاعبَ به وبدَّد ضوءه وسبَّب دخاناً؛ لأنه يأخذ من الهواء أكثر من حاجة الاحتراق؛ لذلك جعلوا على الفتيل حاجزاً من الزجاج ليمنع عنه الهواء ، فيأتي

الضوء منه صافياً لا دخانَ فيه ، وكانوا يسمونه (الهباب) .
وهكذا تطور المصباح إلى لمبة وصعد نوره وزادت كفاءته ، ومن ذلك قوله تعالى : { المصباح فِي زُجَاجَةٍ . . } [النور : 35] لكنها ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة { كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ . . } [النور : 35] يعني : كوكب من الدُّرِّ ، والدُّر ينير بنفسه .
كذلك زَيْتها ليس زيتاً عادياً ، إنما زيت زيتونة مباركة .
يقول الحق سبحانه : { يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ } [النور : 35] .
يعني : شجرة زيتون لا شرقية ولا غربية ، يعني : لا شرقية لأنها غربية ، ولا غربية لأنها شرقية ، فهي إذن شرقية غربية على حَدٍّ سواء ، لكن كيف ذلك؟
قالوا : لأن الشجرة الزيتونة حينما تكون في الشرق يكون الغرب مظلماً ، وحينما تكون في الغرب يكون الشرق مظلماً ، إذن : يطرأ عليها نور وظلمة ، إنما هذه لا هي شرقية ولا هي غربية ، إنما شرقية غربية لا يحجز شيء عنها الضوء .
وهذا يؤثر في زيتها ، فتراه من صفائه ولمعانه { يضياء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ } [النور : 35] ، وتعطي الشجرة الضوء القوي الذي يناسب بنوتها للشمس ، فإن كانت الشمس هي التي تنير الدنيا ، فالشجرة الزيتونة هي ابنتها ، ومنها تستمد نورها ، بحيث لا يغيب عنها ضوء الشمس .

إذن : مَثَلُ تنوير الله للسموات وللأرض مثل هذه الصورة مكتلمة كما وصفنا ، وانظر إلى مشكاة فيها مصباح بهذه المواصفات ، أيكون بها موضع مظلم؟ فالسموات والأرض على سعتهما كمثل هذه المشكاة ، والمثل هنا ليس لنور الله ، إنما لتنويره للسموات وللأرض ، أما نوره تعالى فشيء آخر فوق أنْ يُوصَف . وما المثَل هنا إلا لتقريب المسألة إلى الأذهان .
وسبق أنْ ذكرنا قصة أبي تمام حين وصف الخليفة ومدحه بأبرز الصفات عند العرب ، فقال :
إقْدَامُ عَمْرٍ فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ... فِي حِلْم أحنفَ فِي ذَكَاءِ أيَاسِ
فجمع للخليفة كل هذه الصفات ومدحه بأشهر الخصال عند العرب؛ لذلك قام إليه أحد الحاقدين وقال معترضاً عليه : كيف تشبه الخليفة بصعاليك العرب؟ فالأمير فوق مَنْ وصفتَ .
فأكمل أبو تمام على البديهة وبنفس الوزن والقافية :
لاَ تُنكروا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مثَلاً ... شَرُوداً فِي النَّدَى والبَاسِ
فَاللهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لنُورِهِ ... مَثَلاً من المشْكَاةِ والنِّبراسِ
فالله تبارك وتعالى هو نور السموات والأرض أي : مُنوِّرهما ، وهذا أمر واضح جداً حينما تنظر إلى نور الشمس ساعة يظهر يجلو الكون ، بحيث لا يظهر معه نور آخر ، وتتلاشى أنوار الكواكب الأخرى والنجوم رغم وجودها مع الشمس في وقت واحد ، لكن يغلب على نورها نور الشمس ، على حَدٍّ كقول الشاعر في المدح :

كأنكَ شَمْسٌ والمُلوكُ كَواكبٌ ... إذَا ظَهَرتْ لَمْ يَبْدُ منهُنّ كوكَبُ

ثم يقول سبحانه : { نُّورٌ على نُورٍ } [النور : 35] فلم يتركنا الحق سبحانه وتعالى في النور الحسيّ فقط ، إنما أرسل إلينا نوراً آخر على يد الرسل هو نور المنهج الذي ينظم لنا حركة الحياة ، كأنه تعالى يقول لنا : بعثت إليكم نوراً على نور ، نور حِسيّ ، ونور قيمي معنوي ، وإذا شهدتم أنتم بأن نوري الحسيّ ينير لكم السموات والأرض ، وإذا ظهر تلاشت أمامه كل أنواركم ، فاعلموا أن نور منهجي كذلك يطغَى على كل مناهجكم ، وليس لكم أن تأخذوا بمناهج البشر في وجود منهج الله .

وقوله تعالى : { يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ } [النور : 35] أي : لنوره المعنوي نور المنهج ونور التكاليف ، والكفار لم يهتدوا إلى هذا النور ، وإنِ اهتدوا إلى النور الحسيّ في الشمس والقمر وانتفعوا به ، وأطفأوا له مصابيحهم ، لكن لم يكُنْ لهم حظ في النور المعنوي ، حيث أغلقوا دونه عيونهم وقلوبهم وأسماعهم فلم ينتفعوا به .

وكان عليهم أن يفهموا أن نور الله المعنوي مِثْلُ نوره الحسي لا يمكن الاستغناء عنه ، لذلك جاء في أثر علي بن أَبي طالب : « من تركه من جبَّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدي في غيره أضله الله » .

والعجيب أن العبد كلما توغل في الهداية ازداد نوراً على نور ، كما قال سبحانه : { يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً } [الأنفال : 29] .

وقال تعالى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] .

ثم يقول تعالى : { وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ } [النور : 35] .

يعني للعبرة والعِظة مثل المثل السابق لنوره تعالى { والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيمٌ } [نور : 35] .

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36)

بدأت الآية بالجار والمجرور { فِي بُيُوتٍ } [النور : 36] ولا بُدَّ أن نبحث له عن متعلق ، فالمعنى : هذا النور الذي سبق الحديث عنه في بيوت أَذِن الله أن تُرفع . والبيت : هو ما أُعِدَّ للبيتوتة ، بل لمعيشة الحياة الثابتة ، وإليه يأوي الإنسان بعد عناء اليوم وطوافه في مناكب الأرض ، والبيت على أية صورة هو مكان الإنسان الخاص الذي يعزله عن المجتمع العام ، ويجعل له خصوصية في ذاته ، وإلا فالإنسان لا يرضى أن يعيش في ساحة عامة مع غيره من الناس .

وهذه الخصوصية في البيوت يتفاوت فيها الناس وتتسامى حسْب إمكاناتهم ، وكل إنسان يريد أنْ يتحيّز إلى مكان خاص به؛ لأن التحيّز أمر مطلوب في النفس البشرية : الأسرة تريد أن تتحيز عن المجتمع العام ، والأفراد داخل الأسرة يريدون أن يتحيزوا أيضاً ، كل إلى حجرة تخصه ، وكذلك الأمر في اللباس ، ذلك لأن لكل واحد منا مساتير بينه وبين نفسه ، لا يحب أن يطلع

عليها أحد .

وقد اتخذ الله له بيتاً في الأرض ، هو أول بيت وُضِع للناس ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً } [آل عمران : 96] .

وهذا هو بيت الله باختيار الله ، ثم تعددتْ بيوت الله التي اختارها خَلْق الله ، فكما اتخذتم لأنفسكم بيوتاً اتخذ الله لنفسه بيوتاً { أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه } [النور : 36] وأنتم جميعاً عباد الله وعيال الله ، وسوف تجدون الراحة في بيته تعالى كما تجدون الراحة في بيوتكم ، مع الفارق بين الراحة في بيتك والراحة في بيت الله .

الراحة في بيوتكم راحة حِسّية بدنية في صالون مريح أو مطبخ مليء بالطعام ، أمّا في بيت الله فالراحة معنوية قيمية؛ لأن ربك عز وجل غيْبٌ فيريحك أيضاً بالغيب .

لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم كلما حزبه أمر يقوم إلى الصلاة ليُلقي باحماله على ربه .

وماذا تقول في صنعة تُعرض على صانعها مرة واحدة كل يوم ، أيبقى بها عطل أو فساد؟ فما بالك إنْ عُرِضَتْ على صانعها خمس مرات في اليوم والليلة؟

فربُّكَ يدعوك إلى بيته ليريحك ، وليحمل عنك همومك ، ويصلح ما فسد فيك ، ويفتح لك أبواب الفرج . إذن فنور على نور هذه لا تكون إلا في بيوت الله التي أذِن سبحانه أن تُرفعَ بالذكر وبالطاعات وترفع عما يحل في الأماكن الأخرى وتعظم .

فالبيوت كلها لها مستوى واحد ، لكن ترفع بيوت عن بيوت وتُعلَّى وقد رُفِعَت بيوت الله بالطاعة والعبادة ، فالمسجد مكان للعبادة لا يُعصَى الله فيه أبداً على خلاف البيوت والأماكن الأخرى ، فعظّم الله بيوته أن يُعْصَى فيها ، وعظّم روادها أن يشتغلوا فيها بسفاسف الأمور الحياتية الدنيوية ، فعليك أن تترك الدنيا على باب المسجد كما تترك الحذاء .

لذلك نهى الإسلام أن نعقد صفقة في بيت الله ، أو حتى ننشد فيه الضالة؛ لأن الصفقة التي تُعقَد في بيت الله خاسرة بائرة ، والضالة التي ينشدها صاحبها فيه لا تُردُّ عليه ، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول لمن يفعل هذا بالمسجد « لا ردها الله عليكم » .

وإنْ جعل الله الأرض كلها لأمة محمد صلى الله عليه وسلم مسجداً وطهوراً ، لكن فَرْقٌ بين الصلاة في المسجد والصلاة في أيّ مكان آخر ، المسجد خُصِّص للعبادة ، ولا نذكر فيه إلا الله ، أمّا الأماكن الأخرى فتصلح للصلاة ، وأيضاً لمزاولة أمور الدنيا .

وإلا ، فكيف تعيش كل وقتك لأمور الدنيا على مدار اليوم والليلة ، ثم تستكثر على ربك هذه الدقائق التي تؤدي فيها فَرْض الله عليك فتجرجر الدنيا معك حتى في بيت الله؟ ألا تعلم أن بيوت الله ما جُعِلت إلا لعبادة الله؟ لابد للمؤمن أن يترك دُنْياه خارج المسجد ، وأن ينوي الاعتكاف على عبادة ربه والمداومة على ذِكْره في بيته ، فلا يليق بك أن تكون في بيت الله

وتنشغل بغيره .

فإن التزمتَ بآداب المسجد تلقيتَ من ربك نوراً على نور ، وزال عن كاهلك الهمّ والغم وحُلَّت مشاكلك من حيث لا تحتسب .

إذن : فالحق تبارك وتعالى جعل في الفطرة الإيمانية أن تؤمن بإله ، فالإيمان أمر فطري مهما حاول الإنسان إنكاره ، فالكافر الذي ينكر وجود الله ساعة يتعرَّض لأزمة لا منجاةَ منها بأسباب البشر تجده تلقائياً يتوجه إلى الله يقول : يا رب ، لا يمكن أن يكذبَ على نفسه في هذه الحالة أو يُسلم نفسه ويبيعها رخيصة .

وفي ذلك يقول تعالى : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً } [الزمر : 8] .

ومن دقة الأداء القرآني في هذه المسألة قوله تعالى : { يأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع } [الجمعة : 9] .

فذكر طرفاً واحداً من عملية التجارة وهو البيع ، ولم يقل : والشراء ، قالوا : لأنه حين يُمنع البيع يُمنع الشراء في الوقت نفسه؛ ولأن الإنسان يحرص على البيع لكن قد يشتري وهو كاره ، فشهوة الإنسان متعلقة بالبيع لا بالشراء ، لأن الشراء يحتاج منه إلى مال على خلاف البيع الذي يجلب له المال .

إذن : قوله تعالى : { وَذَرُواْ البيع } [الجمعة : 9] إنما ذكر قمة حركة الحياة وخلاصتها ، فكل حركات الحياة من تجارة أو زراعة أو صناعة تنتهي إلى مسألة البيع؛ لذلك يحزن البائع إذا لم يَبِعْ ، أما المشتري فيقول حين لا يجد الشيء أو يجد المحل مُغلَقاً : بركة يا جامع .

ثم إذا انتهتْ الصلاة يعيدنا من حديد إلى حركة الحياة :

{ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله } [الجمعة : 10] .

كأنك ذهبتَ للمسجد لتأخذ شحنة إيمانية تعينك وتسيطر على كُلِّ حواسك في حركتك في التجارة ، وفي الإنتاج ، وفي الاستهلاك ، وفي كل ما ينفعك ويُنمي حياتك . وحين يأمرك ربك أن تفرغ لأداء الصلاة لا يريد من هذا الفراغ أن يُعطّل لك حركة الحياة ، إنما ليعطيك الوقود اللازم لتصبح حركة حياتك على وَفْق ما أراده الله . وما أشبه هذا الوقت الذي نختزله من مصالح دنيانا في عبادة الله بشحن بطارية الكهرباء ، فحين تذهب بالبطارية إلى جهاز الشحن لا نقول : إنك عطلت البطارية إنما زدتَ من صلاحيتها لأداء مهمتها وأخْذ خيرها .

فأنت تذهب إلى بيت الله بنور الإيمان ، وبنور الاستجابة لنداء : الله أكبر ، فتخرج بأنوار متعددة من فيوضات الله؛ لذلك ضرب لنا الحق تبارك وتعالى مثلاً لها النور بالمصباح الذي يتنامى نوره ويتصاعد؛ لأنه في زجاجة تزيد من ضوئه؛ لأنها مثل كوكب دُرِيٍّ والنور يتصاعد؛ لأنها بزيت

زيتونة ، ويتصاعد لأنها شرقية وغربية في آن واحد ، إذن : عندنا ألوان متعددة في المثل ، فكذلك النور في بيوت الله .

لذلك قال بعض العارفين : أهل الأرض ينظرون في السماء نجوماً متلألئة ، والملائكة في السماء ينظرون نجوماً متلألئة من بيوت الله ، ولا عجبَ في ذلك لأنها أنوار الله تتلألأ وتتدفق في بيته وفي مسجده ، وكيف نستبعد ذلك ونحن نرى نور الشمس كيف يفعل حينما يعكس على سطح القمر فيُلقِي إلينا بالضوء الذي نراه؟ والشمس والقمر أثر من آثار نور الله الذي يَسْطع في بيوت الله ، ألاّ يعطينا ذلك الإشعاع الذي يفوق إشعاع البدور؟

ثم يقول تعالى : { يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال } [النور : 36] .

فالمساجد جُعِلَتْ لتسبيح الله؛ لذلك كان بعض الصالحين إذا نزل بلداً يتحيل أن ينزلها في غير وقت الصلاة ، ثم يذهب إلى المسجد فإنْ وجده عامراً في غير وقت الصلاة بالمسبحين علم أن هؤلاء ملتزمون بمنهج الله ، حيث يجلسون قبل وقت الصلاة يُسبِّحون الله وينتظرون الصلاة ، وإنْ وجد الحال غير ذلك انصرف عنها وعلم أنها بلد لا خيرَ فيها .

والغُدوُّ : يعني الصباح ، والآصال : يعني المساء ، فهي لا تخلو أبداً من ذكْر الله وتسبيحه ، وقد وصف هؤلاء الذين يعمرون بيوت الله بالذكر والتسبيح بأنهم : { رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله }

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37)

قلنا : إن التجارة هي قمة حركة الحياة؛ لأنها واسطة بين منتج زارع أو صانع وبين مستهلك ، وهي تقتضي البيع والشراء ، وهما قمة التبادلات ، وهؤلاء الرجال لم تُلْهِهِمْ التجارة عن ذِكْر الله لأنهم عرفوا ما في الزمن المستقطع للصلاة من بركة تنثر في الزمن الباقي .

أو نقول : إن التجارة لم تُلْههم عن ذِكْر الله في ذاتها ، فهُمْ حالَ تجارتهم لا يغفلون عن ذكر الله ، وقد كنا في الصِّغَر نسمع في الأسواق بين البائع والمشتري ، يقول أحدهما للآخر : وحدِّ الله ، صَلِّ على النبي ، مدَّح النبي ، بالصلاة على النبي ، كل هذه العبارات انقرضت الآن من الأسواق والتعاملات التجارية وحَلَّ محلَّها قيم وعبارات أخرى تعتمد على العَرْض والإعلان ، بل الغش والتدليس . ولم نَعُدْ نسمع هذه العبارات ، حتى إذا لم يتم البيع كنت تسمع البائع يقول : كسبنا الصلاة على النبي ، فهي في حَدِّ ذاتها مكسب حتى لو لم يتم البيع .

{ وَإِقَامِ الصلاة وَإِيتَآءِ الزكاة } [النور : 37] الصلاة لأنها تأخذ وقتاً من العمل ، وكثيراً ما ينشغل المرء بعمله وتجارته عن إقامة الصلاة ظاناً أنها ستُضيّع عليه الوقت ، وتُفوّت عليه مصالح كثيرة ، وكذلك ينظر إلى الزكاة على أنها تنقص من ماله ، وهذه نظرة خاطئة حمقاء؛ لأن الفلاح

الذي يُخرِج من مخزنه أردباً من القمح ليزرع به أرضه : الأحمق يقول : المخزن نقص أردباً ، أما العاقل فيثق أن هذا الأردب سيتضاعف عند الحصاد أضعافاً مضاعفة .

أو : أن الله تعالى يفيض عليه من أنواره ، فيبارك له في وقته ، وينجز من الأعمال من الوقت المتبقي ما لا ينجزه تارك الصلاة ، أو : يرزقه بصفقة رابحة تأتيه في دقائق ، ومن حيث لا يحتسب ، والبركة كما قلنا قد تكون سَلْباً وقد تكون إيجاباً ، وهذه كلها أنوار وتجليات يفيض الله بها على الملتزم بمنهجه .

ثم يقول سبحانه في صفات هؤلاء الرجال : { يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار } [النور : 37] ذلك لأنهم يتجارون لهدف أسمى وأخلد ، فأهل الدنيا إنما يتاجرون لصيانة دنياهم ، أمّا هؤلاء فيتجارون مع الله تجارة لن تبور ، تجارة تصون الدنيا وتصون الآخرة .

وإذا قِسْتَ زمن دنياك بزمن أُخْراك لوجدته هباء لا قيمةَ له ، كما أنه زمن مظنون لعمر مظنون ، لا تدري متى يفاجئك فيه الموت ، إمّا الآخرة فحياة يقينية باقية دائمة ، وفي الدنيا يفوتك النعيم مهما حَلاَ وطال ، أما الآخرة فنعيمها دائم لا ينقطع .

إذن : فَهُمْ يعملون للآخرة { يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار } [النور : 37] واليوم في ذاته لا يُخاف منه ، وإنما يُخَاف ما فيه ، كما يقول الطالب : خِفْت يوم الامتحان ، واليوم يوم عادي لا يخاف منه ، إنما يُخاف مما سيحدث في هذا اليوم ، فالمراد : يخافون عذاب هذا اليوم .

ومعنى { تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار } [النور : 37] يعني : رجفة القلب واضطراب حركته ، وما ينتابه من خفقان شديد ، ونحن نرى ما يصيب القلوب من ذلك لمجرد أحداث الدنيا ، فما بالك بهَوْل الآخرة ، وما يحدث من اضطراب في القلب؟

كذلك تضطرب الأبصار وتتقلَّب هنا وهناك؛ لأنها حين ترى الفزع الذي يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وتنظر هنا عَلَّها ترى ما يُطمئنها أو يُخفِّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدّ وأنكى .

لذلك ينتهي الموقف إلى : { خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ } [القلم : 43] { قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ } [النازعات : 89] يعني : ذليلة منكسرة حيث لا مفرَّ ولا مَنْجى ، ولن يجد في هذا اليوم راحة إلا مَنْ قدم له العمل الصالح كالتلميذ المجتهد الواثق من نفسه ومعلومات ، يتلهف إلى ورقة الأسئلة ، أما الآخرة فيقف حائراً لا يدري .

ثم يقول الحق سبحانه : { لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ }

لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38)

أي : في هذا اليوم يجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ما شاء الله على رحمة الله!! لكن كيف بأسوأ ما عملوا؟ هذه دَعْوها لرحمة الله ولمغفرته { وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ } [النور : 38] لأن الله تعالى لا يعاملنا في الحسنات بالعدل ، ولا يجازينا عليها بالقسطاس المستقيم وعلى قَدْر ما نستحق ، إنما يزيدنا من فضله .

لذلك ورد في الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان . فليس لنا نجاة إلا بهذا ، كما يقول سبحانه : { قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس : 58] .

{ والله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [النور : 38] والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وكل معنى فيه فوقية لك هو رزق ، فالصحة رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، والشجاعة رزق . . الخ .

والبعض يظن أن الرزق يعني المال ، وهذا خطأ؛ لأن الرزق مجموعُ أمورٍ كثيرة ، فإنْ كان رزْقك علماً فعلِّم الجاهل ، وإنْ كان رزقك قوةً فأعِن الضعيف ، وإنْ كان رزقك حِلْماً فاصبر على السَّفيه ، وإن كان رزقك صنعة تجيدها ، فاصنع لآخرقَ لا يجيد شيئاً .

وإذن : هذا كله رزق ، وما دام ربك عز وجل يرزقك بغير حساب ، ويفيض عليك من فضله فأعْطِ المحتاجين ، وارزق أنت أيضاً المعدمين ، واعلم أنك مُنَاول عن الله ، والرزق في الأصل من الله وقد تكفّل لعباده به ، وما أنت إلا يد الله الممدودة بالعطاء ، واعلم أنك ما دُمْتَ واسطة في العطاء ، فأنت تعطي من خزائن لا تنفد ، فلا تضنّ ولا تبخل ، فما عندكم ينفد وما عند الله بَاقٍ .

والحساب : أنْ تحسب ثمرة الأفعال : هذه تعطي كذا ، وهذا ينتج كذا ، يعني ميزانية ودراسة جدوى ، أمّا عطاء الله فيأتيك دون هذه الحسابات ، فأنت تحسب؛ لأن وراءك مَنْ سيحاسبك ، أمّا ربك عز وجل فلا يحاسبه أحد؛ لذلك يعطيك بلا عمل ودون أسباب ، ويعطيك بلا مُقدِّمات ، ويعطيك وأنت لا تستحق ، أَلاَ ترى مَنْ تتعثر قدمه فيجد تحتها كنزاً؟

ثم يقول الحق سبحانه : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ }

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39)

الحق تبارك وتعالى يريد أنْ يلفت أنظار مَنْ شغلتهم الدنيا بحركتها ونشاطها عن المراد بالآخرة ، فيصنعون صنائع معروفٍ كثيرة ، لكن لم يُخلصوا فيها النية لله ، والأصل في عمل الخير أن يكون من الله ولله ، وسوف يُواجَه هؤلاء بهذه الحقيقة فيقال لأحدهم كما جاء في الحديث : « عملت ليقال وقد قيل » .

لقد مدحوك وأثنَواْ عليك ، وأقاموا لك التماثيل وخَلَّدوا ذِكْراك؛ لذلك رسم لهم القرآن هذه

الصورة : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً } [النور : 39] .

{ أَعْمَالُهُمْ } [النور : 39] أي : التي يظنونها خيراً ، وينتظرون ثوابها ، والسراب : ما يظهر في الصحراء وقت الظهيرة كأنه ماء وليس كذلك . وهذه الظاهرة نتيجة انكسار الضوء ، و « قِيعة » : جمع قاع وهي الأرض المستوية مثل جار وجيرة .

وأسند الفعل { يَحْسَبُهُ } [النور : 39] إلى الظمآن؛ لأنه حاجة للماء ، وربما لو لم يكُنْ ضمآناً لما التفتَ إلى هذه الظاهرة ، فلظمئه يجري خلف الماء ، لكنه لا يجد شيئاً ، وليت الأمر ينتهي عند خيبة المسعى إنما { وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ } [النور : 39] فُوجيء بإله لم يكُنْ على باله حينما فعل الخير ، إله لم يؤمن به ، والآن فقط يتنبه ، ويصحو من غَفْلته ، ويُفَاجأ بضياع عمله .

إذن : تجتمع عليه مصيبتان : مصيبة الظمأ الذي لم يجد له رِياً ، ومصيبة العذاب الذي ينتظره ، كما قال الشاعر :

كَما أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ ... فَلَمَّا رأوْهَا أَقْشَعَتْ وتَجلَّتِ

وسبق أن ضربنا مثلاً لهذه المسألة بالسجين الذي بلغ منه العطش مبلغاً ، فطلب الماء ، فأتاه الحارس به حتى إذا جعله عند فيه واستشرف المسكين للارتواء أراق الحارسُ الكوبَ ، ويُسمُّون ذلك : يأْسٌ بعد إِطْماع .

لذلك الحق تبارك وتعالى يعطينا في الكون أمثلة تُزهِّد الناس في العمل للناس من أجل الناس ، فالعمل للناس لا بُدَّ أن يكون من أجل الله . وفي الواقع تصادف مَنْ ينكر الجميل ويتنكر لك بعد أنْ أحسنْتَ إليه ، وما ذلك إلا لأنك عملتَ من أجله ، فوجدت الجزاء العادل لتتأدب بعدها ولا تعمل من أجل الناس ، ولو فعلتَ ما فعلتَ من أجل الله لوجدتَ الجزاء والثواب من الله قبل أنْ تنهتي من مباشرة هذ الفعل .

وفي موضع آخر يُشبِّه الحق سبحانه الذي ينفق ماله رياء الناس بالحجر الأملس الذي لا ينتفع بالماء ، فلا ينبت شيئاً : { كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ الناس وَلاَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [البقرة : 264] .

وقوله تعالى : { والله سَرِيعُ الحساب } [النور : 39] فإياك أنْ تستبعد الموت أو البعث ، فالزمن بعد الموت وإلى أن تقوم الساعة زمنٌ لا يُحسَب لأنه يمرُّ عليك دون أن تشعر به ، كما قال سبحانه : { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا } [النازعات : 46] .

والله تعالى أخفى الموت أسباباً وميعاداً؛ لأن الإبهام قد يكون غاية البيان ، وبإبهام الموت تظل ذاكراً له عاملاً للآخرة؛ لأنك تتوقعه في أي لحظة ، فهو دائماً على بالك ، ومَنْ يدريك لعلَّك إنْ

خفضْتَ طرْفك لا ترفعه ، وعلى هذا فالحساب قريب وسريع؛ لذلك قالوا : مَنْ مات فقد قامت قيامته .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ }

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40)

هذا مَثَل آخر توضيحي لأعمال الذين كفروا ، والبحر اللجي : الواسع الكبير الذي تتلاطم فيه الأمواج ، بعضها فوق بعض ، وفوق هذا كله سحاب إذن : فالظلام مُطبق؛ لأنه طبقات متتالية ، وفي أعماق بعيدة ، وقد بلغتْ هذه الظلمة حداً لا يرى الإنسان معها حتى يده التي هي جزء منه ، فما بالك بالأشياء الأخرى؟

وقوله : { لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا } [النور : 40] أي : لم يقرب من أنْ يراها ، وإذا نفى القُرْب من أن يرى فقد نفى الرؤية من باب أَوْلَى؛ ذلك لأنه ليس له نور من الله يرى به ويهتدي { وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ } [النور : 40] فكما أنه لم ينتفع بالنور ، ولم يَرَ حتى يده ، كذلك لا ينتفع بشيء من عمله .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات والأرض }

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41)

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى ما يدّل على وحدة الخالق الأعلى ، وكمال قيوميته ، وكمال قدرته ، وذُكِرَتْ هذه الآية بعد عدة أوامر نواهٍ ، وكأن ربك عز وجل يريد أنْ يُطمئِنك على أن هذا الكون الذي خلقه من أجلك وقبل أن تُولد ، بل ، وقبل أن يخلق الله آدم أعدَّ له هذه الكون ، وجعله في استقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، يقول لك ربك : اطمئن فلن يخرج شيء من هذا الكون عن خدمتك فهو مُسخَّر لك ، ولن يأتي يوم يتمرّد فيه ، أو يعصي أوامر الله :

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات والأرض } [النور : 41] .

{ أَلَمْ تَرَ } [النور : 41] يعني : ألم تعلم ، كما في قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل } [الفيل : 1] ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم وُلِد عام الفيل ، ولم يَرَ هذه الحادثة ، فلماذا لم يخاطبه ربُّه بألم تعلم ويريح الناس الذين يتشكّكون في الألفاظ؟

قالوا : ليدلّك على أن ما يخبرك الله به غيباً عنك أوثقُ مما تخبرك به عينُك مشهداً لك؛ لأن

مصدر علمك هو الله ، أَلاَ ترى أن النظر قد يصيبه مرض فتختل رؤيته ، كمن عنده عمى ألوان أو قِصَر نظر . . إلخ إذن : فالنظر نفسه وهو أوثق شيء لديك قد يكذب عليك .

والتسبيح : هو التنزيه ، والتنزيه أن ترتفع بالمنزّه عن مستوى ما يمكن أنْ يجولَ بخاطرك : فالله تعالى له وجود ، وأنت لك وجود ، لكن وجودَ الله ليس كوجودك ، الله له ذاته وصفات ، لكن ليست كذاتك وصفاتك . . إلخ .

إذن : نزَّه ذات الله تعالى عن الذوات التي تعرفها؛ لأنها ذوات وُهِبَتْ الوجود ، أما ذات الله فغير موهوبة ، ذات الله ذاتية ، كذلك لك فِعْل ، ولله تعالى فِعْل .

وقد ذكرنا في قوله تعالى : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا } [الإسراء : 1] .

إن الذين اعترضوا على هذا الفعل اعترضوا بغباء ، فلم يُفرّقوا بين فِعْل الله وفِعْل العبد ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل : سريْتُ من مكة ألى بيت المقدس . إنما قال : أُسْرِي بي .

فالاعتراض على هذا فيه مغالطة ، فإنْ كنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً؛ فذلك لأن سَيْرَكم خاضع لقدرتكم وإمكاناتكم ، أمّا الله تعالى فيقول للشيء : كُنْ فيكون ، فلا يحتاج في فِعْله سبحانه إلى زمن . فمن الأدب أَلاَّ تقارن فِعْل الله بفعلك ، ومن الأدب أنْ تُنزِّه الله عن كل مَا يخطر لك ببال ، نزَّه الله ذاتاً ، ونزّهه صفاتاً ، ونزهه أفعالاً .

ألا ترى أن (سبحان) مصدر للتسبيح ، يدل على أن تنزيه الله ثابت له سبحانه قبل أن يخلق مَنْ ينزهه ، كما جاء في قوله تعالى :

{ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ } [آل عمران : 18] فشهد الحق تبارك وتعالى لنفسه قبل أنْ تشهدوا ، وقبل أن تشهد الملائكة ، فهذه هي شهادة الذات للذات . وقبل أن يخلق الله الإنسان المسبّح سبَّح لله السموات والأرض ساعة خلقهما سبحانه وتعالى .

وحين تتتبع ألفاظ التسبيح في القرآن الكريم تجدها جاءت مرة بصيغة الماضي { سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض } [الحديد : 1] فهل سبّحَتْ السموات والأرض مرة واحدة ، فقالت : سبحان الله ثم سكتَتْ عن التسبيح؟ لا إنما سبَّحَتْ في الماضي ، ولا تزال تُسبّح في الحاضر : { يُسَبّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [الجمعة : 1] .

وما دام أن الكون كله سبَّح لله ، وما يزال يُسبّح فلم يَبْقَ إلا أنت يا ابن آدم : { سَبّحِ اسم رَبّكَ الأعلى } [الأعلى : 1] يعني : استح أن يكون الكون كله مُسبّحاً وأنت غير مُسبّح ، فصِلْ أنت تسبيحك بتسبيح كل هذه المخلوقات .

وعجيب أن نسمع من يقول أن (مَنْ) في الآية للعاقل ، فهو الذي يُسبّح أمّا السموات والأرض فلا دخلَ لهما في هذه المسألة ، ونقول : لا دخلَ لها في تصورك أنت ، أمّا الحقيقة فإنها

مثلك تُسبّح كما قال تعالى : { كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ } [النور : 41] .
وقال : { وَيُسَبّحُ الرعد بِحَمْدِهِ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ } [الرعد : 13] فليس لك بعد كلام الله كلام .
وآخر يقول لك : التسبيح هنا ليس على الحقيقة ، إنما هون تسبيح دلالة وحال ، لا مقال ، يعني : هذه المخلوقات تدلُّ بحالها على تسبيح الله وتنزيهه ، وأنه واحد لا شريك له ، على حد قول الشاعر :
وَفِي كُلِّ شَيء لَهُ آيَةٌ ... تدُلُّ على أنَّه الوَاحِدُ
وهذا القول مردود بقوله تعالى : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الإسراء : 44] .
إذن : فهذه المخلوقات تُسبّح على الحقيقة ولها لسان ولغة ، لكنك لا تفهم عنها ولا تفقه لغاتها ، وهل فهمتَ أنت كل لغات بني جنسك حتى تفهم لغات المخلوقات الأخرى؟ إن العربي إذا لم يتعلم الإنجليزية مثلاً لا يستطيع أن يفهم منها شيئاً ، وهي لغة منطوقة مكتوبة ، ولها ألفاظ وكلمات وتراكيب مثل العربية .
إذن : لا تقُلْ تسبيحَ حال ، هو تسبيح مقال ، لكنك لا تفهمه ، وكل شيء له مقال ويعرف مقاله ، بدليل أن الله تعالى إنْ شاء أطلع بعض أهل الاصطفاء على هذه اللغات ، ففهمها كما فهم سليمان عليه السلام عن النملة { فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا } [النمل : 19] وسمع كلام الهدهد وفهم عنه ما يقول عن ملكة سبأ .
ونقول لأصحاب هذا الرأي : تأملوا الخلية المسدَّسة التي يصنعها النحل وما فيها من هندسة تتحدى أساطين الهندسة والمقاييس أن يصنعوا مثلها ، تأمَّلوا عش الطائر وكيف ينسج عيدان القش ، ويُدخل بعضها في بعض ، ويجعل للعُشِّ حافَّة تحمي الصغار ، فإذا وضعْتَ يدك في العُشِّ وهو من القَشِّ وجدتَ له ملمسَ الحرير ، تأملوا خيوط العنكبوت وكيف يصطاد بها فرائسه؟ لقد شاهدت فِليماً مصوراً يُسجِّل صراعاً بين دب وثور ، الدب رأى قرون الثور طويلة حادة ، وعلم أنها وسيلة الثور التي ستقضي عليه ، فما كان منه إلا أن هجم على الثور وأمسك قَرْنَيْه بيديه ، وظل ينهش رأس الثور بأسنانه حتى أثخنه جراحاً حتى سقط فراح يأكله .

إذن : كيف نستبعد أن يكون لهذه المخلوقات لغات تُسبّح الله بها لا يعرفها إلا بنو جنسها ، أو مَنْ أفاض الله عليه بعلمها؟
ثم ألم يتعلَّم الإنسان من الغراب كيف يدفن الموتى لما قَتَل قابيلُ هابيلَ؟ كما يقول سبحانه : { فَبَعَثَ الله غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأرض لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ } [المائدة : 31] وكأن ربنا عز وجل يُعلِّمنا الأدب وعدم الغرور .

وقرأنا أن بعض الباحثين والدارسين لحياة النمل وجدوا أنه يُكوّن مملكة متكاملة بلغت القمة في النظام والتعاون ، فقد لاحظوا مجموعة تمرُّ هنا وهناك ، حتى وجدتْ قطعة من طعام فتركوها وانصرفوا ، حيث أتوا ، ثم جاءت بعدهم كوكبة من النمل التفتْ حول هذه القطعة وحملتْها إلى العُشِّ ، ثم قام الباحث بوضع قطعة أخرى ضِعْف الأولى ، فإذا بمجموعة الاستكشاف (أو الناضورجية) تمر عليها وتذهب دون أنْ تحاول حَمْلها ، وبعدها جاء جماعة من النمل ضِعْف الجماعة الأولى ، فكأن النمل يعرف الحجم والوزن والكتلة ويُجيد تقديرها .

وفي إحدى المرات لاحظ الباحث فتاتاً أبيض أمام عُشِّ النمل ، فلما فحصه وجده من جنين الحبة الذي يُكوّن النبتة ، وقد اهتدى النمل إلى فصل هذا الجنين حتى لا تُنبت الحبة فتهدم عليهم العُشّ ، لهذا الحد عَلِم النمل قانون صيانته ، وعلم كيف يحمي نفسه ، وهو من أصغر المخلوقات ، أبعد هذا كله نستبعد أن يكون للنمل أو لغيره لُغته الخاصة؟

ثم يقول سبحانه : { والطير صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ } [النور : 41] فلماذا خَصَّ الطير بالذكْر مع أنها داخلة في { مَن فِي السماوات والأرض } [النور : 41] .

قالوا : خَصَّها لأن لها خصوصية أخرى وعجيبة ، يجب أن نلتفت إليها؛ لأن الله تعالى يريد أنْ يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشيء أعظم ، فالطير كائن له وزن وثِقل ، يخضع لقانون الجاذبية التي تجذب للأرض كُلَّ ثقل يعلَقُ في الهواء .

لكن الحق سبحانه وتعالى يخرق هذا القانون للطير حين يصُفُّ أجنحته في الهواء ، يظل مُعلّقاً لا يسقط : { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن } [الملك : 19] .

وكان الخالق عز وجل يقول : خُذُوا من الطير المشاهد نموذجاً ووسيلة إيضاح ، فإذا قلتُ لكم : { وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ } [الحج : 65] فَصدِّقوا وآمنوا أن الله يُمسك السماء ، بل : { إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ } [فاطر : 41] .

فخُذْ من المشهد الذي تدركه دليلاً على ما لا تدركه .

لكن ، مَن الفاعل في { عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ } [النور : 41] .

يمكن أن يكون الفاعل الطير وكل ما في الوجود ، وأحسن منه أن نقول : علم الله صلاتها وتسبيحها؛ لأنه سبحانه خالقها وهاديها إلى هذا التسبيح . إذن : فكل ما في الوجود يعلم صلاته ويعلم تسبيحه ، كما تعلم أنت المنهج ، لكنه استقام على منهجه لأنه مُسخّر وانحرفت أنت لأنك مُخيَّر .

فإنْ أردتَ أنْ تستقيمَ أمور حياتك فطبِّق منهج الله كما جاءك؛ لذلك لا تجد في الكون خللاً أبداً

إلا في منطقة الاختيار عند الإنسان ، كل شيء لا دخْلَ للإنسان فيه يسير منتظماً ، فالشمس لم تعترض في يوم من الأيام ولم تتخلف ، كذلك القمر والنجوم والهواء ، إنها منضبطة غاية الإنضباط ، حتى إن الناس يضبطون عليها حساباتهم ومواعيدهم واتجاهاتهم .

لذلك يقول تعالى : { الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ } [الرحمن : 5] يعني : بحساب دقيق ، وما كان للشمس أنْ تضبط الوقت إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة .

{ والله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } [النور : 41] أي : لقيوميته تعالى على خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَللَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض }

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42)

يريد ربك عز وجل أنْ يُطمئنك أن الذي كلَّفك بما كلَّفك به يضمن لك مُقوِّمات حياتك ، فلن ينقطع عنك الهواء في يوم من الأيام ، ولن تتأبَّى عليك الشمس أو القمر أو الأرض؛ لأنها مِلْك لله ، لا يشاركه سبحانه في ملكيتها أحد يمنعها عنك ، فاطمئن إلى أنها ستؤدي مهمتها في خدمتك إلى يوم القيامة ، ولا تشغل نفسك بها ، فقد ضمنها الله .

ثم يقول رب العزة سبحانه : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً }

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43)

قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ } [النور : 43] يعني : ألم تعلم ، وقد وقفنا مع تطور العلم على كيفية تكوُّن المطر بين التبخير والتكثيف الذي يُكوِّن السحاب ، وقلنا سابقاً : إن مُسطح الماء على الأرض ثلاثة أرباع اليابسة حتى تكفي هذه المساحة البخر اللازم لتكوّن المطر ، ونحن نُجري مثل هذه العملية في تقطير الماء حين نغلي الماء ونستقبل البخار على سطح بارد ، فتحدث له عملية التكثيف .

وقد أوضحنا هذه العملية بكوب الماء حين تتركه ممتلئاً وتسافر مثلاً ، فحين تعود تجد الكوب قد نقص قليلاً ، أما إذا أرقْتَهُ على الأرضِ ، فإنه يجفُّ سريعاً ، وقبل أن تغادر المكان ، لماذا؟ لأنك وسَّعْتَ مساحة البَخْر .

ومعنى { يُزْجِي سَحَاباً } [النور : 43] أي : يرسله برِفْق ومَهَل؛ لذلك لما وصف الشاعر مَشْي الفتاة قال :

كَأنَّ مِشْيَتَها مِنْ بيْتِ جَارَتِها ... مَرُّ السَّحابَة لاَ رَيْث ولاَ عَجَل

{ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ } [النور : 43] أي : يجمع بعضه على بعض ، وحين يُجمع الشيء بعضه على بعض لا بُدَّ أن يبقى بينه فاصل ، فلا يلتحم بغيره التحاماً تاماً ، ولولا هذه الفواصل بين قِطَع السحاب ، ولولا هذه الفتوق ما نزل الوَدَق من خلاله .

ولو شاء سبحانه لجعل السحاب قطعة واحدة ، ولكنه سبحانه يؤلف بينه ويُجمّعه بعضه على بعض دون أنْ يُوحِّده تكويناً ، فيحدث بذلك فراغاً بين قطع السحاب . أرأيتَ حين نلصق الورق بالصمغ مثلاً فمهما وضعت عليه من ثقل لا بُدَّ أن يبقى بينه فراغات؛ لأنه ليس ذاتاً واحدة .

وعملية تفريغ الهواء هذه تلاحظها حين تضع كوباً مبلولاً وتتركه لفترة ، فيتبخر الماء من تحته ويخرج الهواء ، فإذا أردْتَ رفعه وجدته صعباً لماذا؟ لتفريغ الهواء من تحت قاعدة الكوب ، وفي هؤلاء الذين يعالجون الآلام الناتجة عن البرد ، فيضعون الكوب مقلوباً على مكان الألم ، ثم يُشعِلُون بداخله قطعة من القماش مثلاً لتحرق الهواء بداخل الكوب .

وبذلك نمنع الخلل في التقاء الكوب بالجسم ، وهذه المسألة هي سِرُّ عظمة قدماء المصريين في البناء ، حيث تتماسك الحجارة دون وجود (مونه) تربط بينها .

إذن : وجود الهواء بين الشيئن يُحدِث خللاً بينهما ، ولولا هذا الخلل في السحاب ما نزل منه الماء ، والمطر آية عظيمة من آيات الله لا نشعر بها ، ولك أنْ تتصور كم يُكلِّفنا كوب الماء المقطّر حين نُعِدُّه في المعمل ، فما بالك بالمطر الذي يسقي الأرض كلها؟

ثم يقول تعالى : { ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً } [النور : 43] يعني : مُكدَّساً بعضه على بعض ، وفي آية أخرى : { وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السمآء سَاقِطاً يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ } [الطور : 44] متراكم بعضه على بعض { فَتَرَى الودق } [النور : 43] أي : المطر : { يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ } [النور : 43] أي : من خلال هذه الفجوات والفواصل التي تفصل بين السُّحُب .

وهذا الماء الذي ينزل من السماء فيُحيي به الله الأرض قد يأتي نقمةً وعذاباً ، كما قال سبحانه : { وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ } [النور : 43] ولنا في أهل مأرب الذين أغرقهم الله عبرةٌ وعظة .

ولو تأملتَ لوجدتَ الماء والنار عدويْن متقابلين يصعب مقاومتهما؛ لذلك كان العرب إلى عهد قريب يخافون الماء لما عاينوه من غرق بعد انهيار سدِّ مأرب؛ لذلك آثروا أنْ يعيشوا في الصحراء بعيداً عن الماء .

وبالماء نجَّى الله تعالى موسى عليه السلام وأغرق عدوه فرعون ، ففعل سبحانه الشيء وضده بالشيء الواحد .

وقوله تعالى : { يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأبصار } [النور : 43] أي : الضوء الشديد الذي

يُحدِثه السحاب يكاد أن يخطف الأبصار ، وفي البرق تتولد النار من الماء؛ لذلك حينما يقول تعالى : { وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ } [التكوير : 6] فصدِّق هذه الآية الغيبية؛ لأنك شاهدت نموذجاً لها في مسألة البرق .

ثم يقول الحق سحبانه : { يُقَلِّبُ الله اليل والنهار }

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44)

فالليل والنهار آيتان يتتابعان لكن دون رتابة ، فالليل قد يأخذ من النهار ، والنهار يأخذ من الليل ، وقد يستويان في الزمن تماماً . ومن تقليب الليل والنهار ما يعتريهما من حَرٍّ أو برد أو نور وظلمة .

إذن : فالمسألة ليست ميكانيكية رتيبة ، إنما هي قيومية الله تعالى وقدرته في تصريف الأمور على مراده تعالى؛ لذلك يقول تعالى بعدها : { إِنَّ فِي ذلك لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأبصار } [النور : 44] .

العِبرة والعَبرة والعبور والتعبير كلها من مادة واحدة ، نقول : هذا مكان العبور يعني الانتقال من جهة إلى جهة أخرى ، وفلان عبَّر عن كذا ، يعني : نقل الكلام النفسي إلى كلام باللسان ، والعبرة أنْ ننظرَ في الشيء ونعتبر ، ثم ننتقل منه إلى غيره ، وكذلك العَبْرة لأنها حزن أسال شيئاً ، فنزل من عيني الدمع .

والعبرة هنا لمن؟ { لأُوْلِي الأبصار } [النور : 44] والمراد : الأبصار الواعية لا الأبصار التي تدرك فقط ، والإنسان له إدراكات بوسائلها ، وله عقل يستقبل المدركات ويغربلها ، ويخلُص منها إلى قضايا ، ومن الناس مَنْ يبصر لكنه لا يرى شيئاً ولا يصل من رؤيته إلى شيء ، ومنهم أصحاب النظر الواعي المدقِّق ، فالذي كتشف قوة البخار رأى القِدْر وهي تغلي وتفور فيرتفع عليها الغطاء ، وهذا منظر نراه جميعاً الرجل والمرأة ، والكبير والصغير ، لكن لم يصل أحد إلى مثل ما وصل إليه .

إذن : المراد الأبصار التي تنقل المبصر إلى العقل ليُحلِّله ويستنبط ما فيه من أسباب ، لعله يستفيد منها بشيء ينفعه ، والله تعالى قد خلق في الكون ظواهرَ وآياتٍ لو تأملها الإنسان ونظر إليها بتعقُّل وتبصُّر لاستنبطَ منها مَا يُثري حياته ويرتقي بها .

ثم يقول الحق سبحانه : { والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ }

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45)

الدابة : كلّ ما يدبُّ على الأرض ، سواء أكان إنساناً أو أنعاماً أو وحشاً ، فكُلُّ ما له دبيب على الأرض خلقه الله من ماء حتى النملة لها على الأرض دبيب .

وكل شيء يضخم قابل لأنْ يُصغَّر ، وقد يُضخَّم تضخيماً لدرجة أنك لا تستطيع أن تدرك كُنْهه ، وقد يَصْغُر تصغيراً حتى لا تكاد تراه ، وتحتاج في رؤيته إلى مُكبِّر ، ومن عجائب الخَلْق أن النملة أو الناموسة فيها كل أجهزة الحياة ومُقوِّماتها ، وفيها حياة كحياة الفيل الضخم ، ومن عظمة الخالق سبحانه أن يخلق الشيء الضخم الذي يفوق الإدراك لضخامته ، ويخلق الشيء الضئيل الذي يفوق الإدراك لضآلته .

ألاَ ترى أن ساعة (بج بن) أخذتْ شهرتها لضخامة حجمها ، ثم جاء بعد ذلك مَنْ صنع الساعة في حجم فصِّ الخاتم ، وفيها نفس الآلات التي في ساعة (بج بن) ، كذلك خلق الله من الماء الفيل الضخم ، وخلق الناموسة التي تؤرق الفيل رغم صِغَرها . . سبحان الخالق .

ولما كان الماء هو الأصل في خِلْقة كل شيء حيٍّ وجدنا العلماء يقتلون حتى الميكروب الصغير الدقيق بأنْ يحجبوا عنه المائية فيموت ، ومن ذلك مداواة الجروح بالعسل؛ لأنه يمتص المائية أو يحجبها ، فلا يجد الميكروب وسطاً مائياً يعيش فيه .

وهذه الخِلْقة ليست على شكل واحد ولا وتيرة واحدة في قوالب ثابتة ، إنما هي ألوان وأشكال { فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ } [النور : 45] .

والمشي : هو انتقال الموصوف بالمشي من حَيِّز مكاني إلى حَيِّز مكاني آخر ، والناس تفهم أن المشي ما كان بالقدمين ، لكن يُوضِّح لنا سبحانه أن المشْي أنواع : فمن الدوابِّ مَنْ يمشي على بطنه ، ومنه مَنْ يمشي على رِجْلَيْن ، ومنهم مَنْ يمشي على أربع .

وربنا سبحانه وتعالى بسط لنا هذه المسألة بَسْطاً يتناسب وإعجاز القرآن وإيجازه ، فلم يذكر مثلاً أن من الدواب مَنْ له أربع وأربعون مثلاً ، وفي تنوع طُرق المشي في الدواب عجائب تدلنا على قدرته تعالى وبديع خَلْقه .

لذلك قال بعدها : { يَخْلُقُ الله مَا يَشَآءُ } [النور : 45] لأن الآية لم تستقْص كل ألوان المشي ، إنما تعطينا نماذج ، وتحت { يَخْلُقُ الله مَا يَشَآءُ } [النور : 45] تندرج مثلاً (أُم أربعة وأربعين) وغيرها من الدواب ، والآية دليل على طلاقة قدرته سبحانه .

وكما سخر الله الإنسان لخدمة الإنسان ، كذلك سخَّر الحيوان لخدمة الحيوان ليُوفِّر له مُقوِّمات حياته ، ألاَ ترى الطير يقتات على فضلات الطعام بين أسنان التمساح مثلاً فينظفها له ، إذن : فما في فم التمساح من الخمائر والبكتيريا هي مخزن قوت لهذه الطيور ، ويحدث بينها توافق وانسجام وتعاون ، حتى إن الطير إنْ رأى الصياد الذي يريد أن يصطاد التمساح فإنها تُحدِث صوتاً لتنبه التمساح حتى ينجو .

ومن المشْي أيضاً السَّعْي بين الناس بالنميمة ، كما قال تعالى : { هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ } [القلم : 11] .

وبعد أن أعطانا الحق تبارك وتعالى الأدلة على أن المُلك له وحده ، وأن كل شيء يُسبّح بحمده تعالى وإليه تُرجَع الأمور ، وأنه تعالى خلق كُلَّ دابة من ماء ، قال سبحانه : { لَّقَدْ أَنزَلْنَآ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ }

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46)

يعني : مَنْ ملك هذا المُلْك وحده ، وخلق لكم هذه العجائب أنزل لكم آيات بينات تحمل إليكم الأحكام ، فكما فعل لكم الجميل ، ووفر لكم ما يخدمكم في الكون ، سمائه وأرضه ، فأدُّوا أنتم ما عليكم نحو منهجه وأحكامه ، واتبعوا هذه الآيات البينات .

ومعنى : { مُّبَيِّنَاتٍ } [النور : 46] أي : لاستقامة حركة الحياة؛ لأن حركة الحياة تحتاج لأنْ يتحرك الجميع ويؤدي كُلٌّ مهمته حتى تتساند الحركات ولا تتعاند ، فالذي يُتعب الدنيا أن تبنى وغيرك يهدم .

إذن : لا بُدَّ من ضابط قيمي يضبط كل الحركات ويحثّ كل صانع أنْ يتقن صَنْعته ويُخلِص فيها ، والإنسان غالباً لا يحسن إلا زاوية واحدة في حياته ، هي حرفته وتخصصه ، وربما لا يحسنها لنفسه؛ لأنه لا يتقاضى عليها أجراً ، لذلك يقولون (باب النجار مخلع) أما إنْ عمل للآخرين فإنه يُحسِن عمله ويتقن صنعته ، وكذلك يتقن الناس لك ما في أيديهم ، فتستقيم الأمور ، فأحْسن ما في يدك للناس ، يحسنْ لك الناسُ ما في أيديهم .

وقوله تعالى : { والله يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [النور : 46] .

ولقائل أنْ يسأل : وما ذنب مَنْ لم يدخل في هذه المشيئة فلم يُهْتد؟ وسبق أن قلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة وهداية المعونة على الدلالة .

فالله تعالى يهدي الجميع هداية الدلالة ، ويبين للكل أسباب الخير وسُبل النجاة وطريق الفلاح والأسلوب الأمثل في إدارة حركة الحياة ، فمَنْ سمع كلام الله ووثق في توجيهه وأطاع في هداية الدلالة أعانه بهداية المعونة .

فساعة تسمع : { والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [المائدة : 108] .

{ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [البقرة : 258] .

فاعلم أنهم امتنعوا عن هداية الدلالة فامتنعت عنهم هداية المعونة ، لا هداية الدلالة والإرشاد والبيان .

وقلنا : إن كلمة { أَنزَلْنَآ } [النور : 46] تشعر باحترام الشيء المنزّل؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من العُلُو إلى الأدنى ، فكأن ربك عز وجل حين يكلفك يقول لك : أريد أن أرتفع بك من

مستوى الأرض إلى عُلو السماء؛ لذلك يقول تعالى في موضع آخر : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } [الأنعام : 151] .

أي : لا تضعوا لأنفسكم القوانين ، ولا تسيروا خلف آرائكم وأفكاركم ، إنما تعالوا إلى الله وخذوا منه سبحانه منهج حياتكم ، فهو الذي خلقكم ، وخلق لكم هذه الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَقُولُونَ آمَنَّا بالله وبالرسول }

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47)

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إلى مَآ أَنزَلَ الله وَإِلَى الرسول رَأَيْتَ المنافقين يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً } [النساء : 61] .

وهؤلاء هم المنافقون ، وخَيْبة المنافق أنه متضارب الملكات النفسية؛ ذلك لأن للإنسان مَلَكات متعددة تتساند حال الاستقامة ، وتتعاند حال المعصية ، فالإنسان تراه طبيعياً حين ينظر إلى ابنته أو زوجته ، لأن مَلَكاته منسجمة مع هذا الفعل ، أما حين ينظر إلى محارم الغير فتراه يختلس النظرة ، يخاف أنْ يراه أحد يتلصّص ويحتاط؛ لأن مَلَكاته مضطربة غير منسجمة مع هذا الفعل .

لذلك يقولون : الاستقامة استسامة ، فملكات النفس بطبيعتها متساندة لا تتعارض أبداً ، لكن المنافق فضلاً عن كذبه ، فهو متضارب الملَكات في نفسه؛ لأن القلب كافر واللسان مؤمن .

لذلك فكرامة الإنسان تكون بينه وبين نفسه قبل أن تكون بينه وبين الناس ، فقد يصنع الإنسان أمام الناس صنائع خير تُعجب الآخرين ، لكنه يعلم من نفسه الشر ، فهو وإن كسب ثقة المجتمع من حوله ، إلا أنه خسر رَأْي نفسه في نفسه ، وإذا خسر الإنسان نفسه فلن يُعوِّضه عنها شيء حتى إنْ كسب العالم كله؛ لأن المجتمع لا يكون معك طول الوقت ، أمّا نفسك فملازمة لك كل الوقت لا تنفك عنها ، فأنا كبير أمام الناس ما دُمْت معهم ، أمّا حين أختلي بنفسي أجدها حقيرة : فعلتْ كذا ، وفعلت كذا .

إذن : أنت حكمتَ أنّ رأى الناس أنفَسُ من رأيك ، ولو كان لرأيك عندك قيمة لحاولت أن يكون رأيك في نفسك صحيحاً ، لكن أنت تريد أن يكون رأي الناس فيك صحيحاً ، وإنْ كان رأيك عند نفسك غير ذلك .

ويقول تعالى في هؤلاء : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يتحاكموا إِلَى الطاغوت وَقَدْ أمروا أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشيطان أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً } [النساء : 60] .

فقد حكم عليهم أنهم يزعمون ، والزعم مطيّة الكذب ، والدليل على أنهم يزعمون أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، ولو كانوا مؤمنين بما أُنزِل إليك وما أُنزِل من قبلك ما تحاكموا إلى

الطاغوت ، وهكذا فضحوا هم أنفسهم ، فالثانية فضحتْ الأولى .
لذلك قالوا : إن الكافر أحسن منهم؛ لأنه منسجم الملَكات : قلبه موافق للسانه ، قلبه كافر ولسانه كذلك ، ومن هنا كان المنافقون في الدَّرْك الأسفل من النار .
والحق تبارك وتعالى يعطينا صورة ونموذجاً يحذرنا ألاَّ نحكم على القول وحده ، فيقول تعالى عن المنافقين : { إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ } [المنافقون : 1] .
وهذه المقولة { إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله } [المنافقون : 1] مقولة صادقة ، لكن القرآن يُكذِّبهم في أنهم شَهدوا بها .
وقد نزلتْ هذه الآية في أحد المنافقين أظن أنه بشر ، وكانت له خصومة مع يهودي ، فطلب اليهودي أن يتحاكما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلب المنافق أنْ يتحاكما عند كعب بن الأشرف ، لكن رَدَّ اليهودي حكومة كعب لما يعلمه من تزييفه وعدم أمانته والإنسان وإن كان في نفسه مُزِّيفاً إلا أنه يحب أنْ يحتكم في أمره إلى الأمين العادل وفعلاً تغلّب اليهودي وذهبا إلى رسول الله فحكم لليهودي .

وفي هذا دلالة على أن اليهودي كان ذكياً فَطِناً ، يعرف الحق ويعرف مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
لكن المنافق لم يَرْضَ حكم رسول الله ، وانتهى بهما الأمر إلى عمر رضي الله عنه وقَصَّا عليه ما كان ، ولما علم أن المنافق رَدَّ حكم رسول الله قام عمر وجاء بالسيف يُشْهِره في وجه المنافق وهو يقول : مَنْ لم يَرْضَ بقضاء رسول الله فذلك قضائي فيه .
إذن : فهؤلاء يقولون : { آمَنَّا بالله وبالرسول وَأَطَعْنَا } [النور : 47] كلام جميل وأكثر الله من خيركم ، لكن هذا قول فقط لا يسانده تطبيق عملي ، والإيمان يقتضي أن تجيء الأعمال على وَفْق منطوق الإيمان .
فهذا منهم مجرد كلام ، أما التطبيق : { ثُمَّ يتولى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذلك } [النور : 47]
والتولّي : الانصراف عن شيء كان موجوداً إلى شيء مناقض { وَمَآ أولئك بالمؤمنين } [النور : 47] فما داموا قد تولوا فهم لم يطيعوا ولم يؤمنوا .

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49)

المراد ما كان من أمر بشر واليهودي ، وقد أعرضا عن حكم الله ورسوله ، وإنْ كان إعراض المنافق واضحاً فالآية لا تريد تبرئة ساحة اليهودي ، لأنه ما رضي بحكم الله إلا لأنه واثق أن الحق

له وواثق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يحكم إلا بالحق ، حتى وإنْ كان ليهودي ، وإذن : ما أذعن لحكم الله ورسوله محبةً فيه أو إيماناً به ، إنما لمصلحته الشخصية ، لذلك يقول تعالى بعدها : { أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارتابوا }

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50)

والمرض : خروج الشيء عن استقامة سلامته ، فكل عضو من أعضائك له سلامة : العين لها سلامة ، والأذن لها سلامة . . الخ والعجيب أن تعيش بالجارحة لا تدري بها طالما هي سليمة صحيحة ، فإذا أصابها مرض تنبهتَ إليها ، وأحسست بنعمة الله عليك فيها حال سلامتها .
{ أَمِ ارتابوا } [النور : 50] يعني : شكُّوا في رسول الله { أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ } [النور : 50] يعني : يجور ويظلم { بَلْ أولئك هُمُ الظالمون } [النور : 50] أي : لأنفسهم أولاً ، وذلك منتهى الحُمْق أن يظلم الإنسان نفسه ، لو ظلم غيره لَقُلْنا : خير يجلبه لنفسه ، لكن ما الخير في ظلم الإنسان لنفسه؟ ومَنْ ظلم نفسه لا تَلُمْه إن ظلَم الآخرين .
والحق تباك وتعالى حينما يعاقب الظالم ، فذلك لمصلحته حتى لا يتمادى في ظُلْمه ، ويجرُّ على نفسه جزاء شر بعد أن كان الحق سبحانه يُمنّيه بجزاء خير .
ثم يأتي السياق بالمقابل : { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين }

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51)

فما دُمْت قد آمنتَ ، والإيمان لا يكون إلا عن رغبة واختيار لا يجبرك أحد عليه ، فعليك أن تحترم اختيار نفسك بأنْ تطيعَ هذا الاختيار ، وإلا سفَّهتَ رأيك واختيارك ، لذلك كان حال المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا : سمعنا وأطعنا .
ولو تأملتَ الكون من حولك لوجدتَهُ يسير على هذه القاعدة ، فما دون الإنسان في كَوْن الله مُسيَّر لا مُخيَّر ، وإنْ كان الأصل أنه خُيِّر أولاً ، فاختار أن يكون مُسيّراً من البداية ، وأراح نفسه ، كما قال سبحانه :
{ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا } [الأحزاب : 72] .
وتصدير الآية الكريمة ب (إنما) يدل على أنها سبقها مقابل ، هذا المقابل على النقيض لما يجيء بعدها ، فالمنافقون أعرضوا وردُّوا حكم الله ورسوله ، والمؤمنون قالوا سمعنا وأطعنا ، كما تقول : فلان كسول إنما أخوه مُجِدٌّ . فقول المنافقين أنهم لا يقبلون حكم الله ورسوله ، أمّا المؤمنون

فيقبلون حكْم الله ورسوله .

ومعنى { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } [النور : 51] يعني : سمعنا سمعاً واعياً يليه إجابة وطاعة ، لا مجرد أنْ يصل الصوت إلى أذن السامع دون أن يُؤثر فيه شيء .

ويقول تعالى في موضع آخر : { وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق } [المائدة : 83] .

فالسمع له وظيفة ، وهو هنا بمعنى : أجَبْنا يا رب ، وصممنا على الإجابة ، وهذا وعد كلامي يتبعه تنفيذ وطاعة . مثل قولنا في الصلاة : سمع الله لمن حمده ، يعني : أجاب الله مَنْ حمده .

{ وأولئك هُمُ المفلحون } [النور : 51] المفلحون : الفائزون الذين بلغوا درجة الفلاح ، ومن العجيب أن يستخدم الحق سبحانه كلمة الفلاح ، وهي من فلاحة الأرض؛ لأن الفلاحة في الأرض هي أصل الاقتيات ، وكل مَنْ أتقن فلاحة أرضه جاءت عليه بالثمرة الطيبة ، وزاد خيره ، وتضاعف محصوله ، حتى إن حبة القمح تعطي سبعمائة حبة ، فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعالى تعطي من يزرعها كل هذا العطاء ، فما بالك بخالق الأرض كيف يكون عطاؤه؟

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ }

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52)

كان سيدنا الشيخ موسى شريف رحمه الله ورضي الله عنه يدرس لنا التفسير ، فلما جاءت هذه الآية قال : اسمعوا ، هذه برقية من الله تعالى : { وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ الله وَيَتَّقْهِ فأولئك هُمُ الفآئزون } [النور : 52] فلم تَدَع هذه الآية حُكْماً من أحكام الإسلام إلا جاءتْ به في هذه البرقية الموجزة التي جمعتْ المنهج كله .

ومعنى { يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ } [النور : 52] آمن بالله وأطاعه وصدَّق رسوله { وَيَخْشَ الله } [النور : 52] أي : يخافه لما سبق من الذنوب { وَيَتَّقْهِ } [النور : 52] في الباقي من عمره { فأولئك هُمُ الفآئزون } [النور : 52] وهكذا جمعتْ الآيةُ المعانيَ الكثيرة في اللفظ القليل الموجز .

ومعلوم أن التعبير الموجز أصعب من الإطناب والتطويل ، وسبق أنْ ذكرنا قصة الخطيب الإنجليزي المشهور حين قالوا له : إذا طُلِب منك إعداد خطاب تلقيه في ربع ساعة في كم تُعِدّه؟ قال : في أسبوع ، قالوا : فإنْ كان في نصف ساعة؟ قال : أُعِدُّه في ثلاثة أيام ، قالوا : فإذا كان في ساعة؟ قال : أُعِدّه في يومين ، قالوا : فإنْ كان في ثلاث ساعات؟ قال : أُعِده الآن .

وقالوا : إن سعد باشا زغلول رحمه الله أرسل من فرنسا خطاباً لصديق في أربع صفحات قال فيه : أما بعد ، فإني أعتذر إليك عن الإطناب (الإطالة) ؛ لأنه لا وقت عندي للإيجاز .

وبعد أنْ تحدّث القرآن عن قَوْل المنافقين وعن ما يقابله من قول المؤمنين وما ترتب عليه من

حكم { فأولئك هُمُ الفآئزون } [النور : 52] ذلك لأن ذِكْر المقابل يُظهِر المقابل ، كما قالوا : والضد يظهر حُسْنَه الضِّدُّ . بعدها عاد إلى الحديث عن النفاق والمنافقين ، فقال سبحانه : { وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ }

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53)

القَسَم : هو اليمين والحَلِف ، والإنسان يُقسم ليؤكد المقسَم عليه يريد أن يطمئن المخاطب على أن المقسَم عليه حَقٌّ ، وهؤلاء لم يقسموا بالله سِراً في أنفسهم ، إنما { جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } [النور : 53] يعني : بَالَغوا وأتَوْا بمنتهى الجهد في القسم ، فلم يقل أحدهم : وحياة أمي أو أبي ، إنما أقسموا بالله ، وليس هناك قَسَم أبلغ من هذا القسم ، لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت » .

فلما أقسموا بالله للرسول أنْ يخرجوا من بيوتهم وأولادهم وأموالهم إلى الجهاد مع رسول الله فضح الله سرائرهم ، وكشف سترهم ، وأبان عن زيف نواياهم ، كما قال في آية أخرى : { وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الذي تَقُولُ } [النساء : 81] .

وتأمل دقَّة الأداء القرآني في : { بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ } [النساء : 81] وهذا احتياط؛ لأن منهم أُنَاساً يراود الإيمان قلوبهم ويفكرون في أنْ يُخلِصوا إيمانهم ونواياهم لله تعالى ، ويعودوا إلى الإسلام الصحيح .

والقرآن يفضح أمر هؤلاء الذي يُقسِمون عن غير صِدْق في القَسَم ، كمن تعوَّد كثرة الحَلِف والحِنْث فيه؛ لذلك ينهاهم عن هذا الحَلِف : { قُل لاَّ تُقْسِمُواْ } [النور : 53] ولا يمكن أن ينهي المتكلمُ المخاطبَ عن القسم خصوصاً إذا أقسم على خير ، لكن هؤلاء حانثون في قَسَمهم ، فهو كعدمه ، فهم يُقسِمون باللسان ، ويخالفون بالوجدان .

وقوله تعالى : { طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ } [النور : 53] . يُشعِر بتوبيخهم ، كأنه يقول لهم : طاعتكم معروفة لدينا ولها سوابق واضحة ، فهي طاعة باللسان فحسب ، ثم يؤكد هذا المعنى فيقول : { إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [النور : 53] والذي يؤكد هذه الخبرة أنه يفضح قلوبهم ويفضح نواياهم .

والعجيب أنهم لا يعتبرون بالأحداث السابقة ، ولا يتعظون بها ، وقد سبق لهم أنه كان يجلس أحدهم يُحدِّث نفسه الحديث فيفضح الله ما في نفسه ويخبر به رسول الله ، فيبلغهم بما يدور في نفوسهم ، كما جاء في قول الله تعالى : { وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ } [المجادلة : 8] .

ومع ذلك لم يعتبروا ولم يعترفوا لرسول الله بأنه مُؤيَّد من الله ، وأنه تعالى لن يتخلى عن رسوله ،

ولن يدعه لهم يخادعونه ويغشُّونه ، وهذه سوابق تكررتْ منهم مرات عِدّة ، ومع ذلك لم ينتهوا عما هم فيه من النفاق ، ولم يُخلِصوا الإيمان لله .

وبعد هذا كله يوصي الحق تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يُبقِي عليهم ، وألاَّ يرمي (طوبتهم) لعل وعسى ، فيقول عز وجل : { قُلْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول }

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54)

وكأنه تعالى لا يريد أنْ يُغلق الباب دونهم ، فيعطيهم الفرصة : جَدِّدوا طاعة لله ، وجَدِّدوا طاعة لرسوله ، واستدركوا الأمر؛ ذلك لأنهم عباده وخَلْقه .

وكما ورد في الحديث الشريف : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله في فلاة » .

ونلحظ في هذه الآية تكرار الأمر أطيعوا { أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول } [النور : 54] وفي آيات أخرى يأتي الأمر مرة واحدة ، كما في الآية السابقة : { وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ } [النور : 52] ، وفي { أَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ } [الأنفال : 20] وفي { مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله } [النساء : 80] أي : أن طاعتهما واحدة .

قالوا : لأن القرآن ليس كتابَ أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب إعجاز ، والأصل فيه أنه مُعْجز ، ومع ذلك أدخل فيه بعض الأصول والأحكام ، وترك البعض الآخر لبيان الرسول وتوضيحه في الحديث الشريف ، وجعل له صلى الله عليه وسلم حقاً في التشريع بنصِّ القرآن : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا } [الحشر : 7] .

والقرآن حين يُورد الأحكام يوردها إجمالاً ثم يُفصّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالصلاة مثلاً أمر بها الحق تبارك وتعالى وفرضها ، لكن تفصيلها جاء في السنة النوبية المطهرة ، فإنْ أردتَ التفصيل فانظر في السنة .

كالذي يقول : إذا غاب الموظف عن عمله خمسة عشر يوماً يُفصَل ، مع أن الدستور لم ينص على هذا ، نقول : لكن في الدستور مادة خاصة بالموظفين تنظم مثل هذه الأمور ، وتضع لهم اللوائح المنظِّمة للعمل .

وذكرنا أن الشيخ محمد عبده سأله بعض المستشرقين : تقولون في القرآن : { مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ } [الأنعام : 38] فهات لي من القرآن : كم رغيفاً في إردب القمح؟ فما كان من الشيخ إلا أن أرسل لأحد الخبازين وسأله هذا السؤال فأجابه : في الإردب كذا رغيف . فاعترض السائل : أريد من القرآن .

فردَّ الشيخ : هذا من القرآن؛ لأنه يقول : { فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل

: 43] .

فالأمر الذي يصدر فيه حكم من الله وحكم من رسول الله ، كالصلاة مثلاً : { إِنَّ الصلاة كَانَتْ عَلَى المؤمنين كِتَاباً مَّوْقُوتاً } [النساء : 103] .

وفي الحديث : « الصلاة عماد الدين » .

ففي مثل هذه المسألة نقول : أطيعوا الله والرسول؛ لأنهما متواردان على أمر واحد ، فجاء الأمر بالطاعة واحداً .

أما في مسائل عدد الركعات وما يُقَال في كل ركعة وكوْنها سِراً أو جهراً ، كلها مسائل بيَّنها رسول الله . إذن : فهناك طاعة لله في إجمال التشريع أن الصلاة مفروضة ، وهناك طاعة خاصة بالرسول في تفصيل هذا التشريع ، لذلك يأتي الأمر مرتين { أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول } [النور : 54] .

كما نلحظ في القرآن : { وَأَطِيعُواْ الرسول } [النور : 56] هكذا فحسب .

قالوا : هذه في المسائل التي لم يَرِدْ فيها تشريع ونَصٌّ ، فالرسول في هذه الحالة هو المشرِّع ، وهذه من مميزات النبي صلى الله عليه وسلم عن جميع الرسل ، فقد جاءوا جميعاً لاستقبال التشريع وتبليغه للناس ، وكان صلى الله عليه وسلم هو الوحيد الذي فُوِّض من الله في التشريع .

ثم يقول تعالى : { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ } [النور : 54] لأنه تعالى أعلم بحِرْص النبي على هداية القوم ، وكيف أنه يجهد نفسه في دعوتهم ، كما خاطبه في موضع آخر : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 3] وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لنبيه : قُلْ لهم وادْعُهم مرة ثانية لتريح نفسك { قُلْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول } [النور : 54] وإنْ كنت غير مكلَّف بالتكرار ، فما عليك إلا البلاغ مرة واحدة .

ومعنى : { فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ } [النور : 54] أي : من الله تعالى ، فالرسول حُمِّل الدعوة والبلاغ ، وأنتم حُمِّلْتم الطاعة والأداء ، فعليكم أن تُؤدُّوا ما كلَّفكم الله به .

{ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ } [النور : 54] نلحظ أن المفعول في { وَإِن تُطِيعُوهُ } [النور : 54] مفرد ، فلم يقل : تطيعوهما ، لتناسب صدر الآية { أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول } [النور : 54] ذلك لأن الطاعة هنا غير منقسمة ، بل هي طاعة واحدة .

وقوله : { وَمَا عَلَى الرسول } [النور : 54] تكليفاً من الله { إِلاَّ البلاغ المبين } [النور : 54] المحيط بكل تفصيلات المنهج التشريعي لتنظيم حركة الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات }

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)

في أول الحديث عن سورة النور قلنا : إنها سُمِّيَتْ بالنور؛ لأنها تبين للناس النور الحسيّ في الكون ، وتقيس عليه النور المعنوي في القيم ، وما دُمْنا نطفيء أنوارنا الحسية حين يظهر نور الله في الشمس ، يجب كذلك أن نطفيء أنوارنا المعنوية حين يأتينا شرع من الله .

فليس لأحد رَأْيٌ مع شرع الله؛ ذلك لأن الخالق عز وجل يريد لخليفته في الأرض أن يكون في نور حِسّيٍّ ومعنوي ، ثم ضمن له مقومات بقاء حياته بالطعام والشراب شريطةَ أنْ يكون من حلال حتى تبنى خلاياه وتتكون من الحلال فيَسلم له جهاز الاستقبال عن الله وجهاز الإرسال إنْ أراد الدعاء .

وفي الحديث الشريف : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : { يأأيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [المؤمنون : 51] وقال : { يأأيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } [البقرة : 172] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِّي بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك؟ » .

فهذه أجهزة مُعطَّلة خَرِبة أشبه ما تكون بالراديو الذي لا يحسن استقبال ما تذيعه محطات الإذاعة ، فالإرسال قائم يستقبله غيره ، أما هو فجهاز استقباله غير سليم .

فإذا ضمنتَ سلامة تكوينك بلقمة الحلال ضمن الله لك إجابة الدعاء ، وفي الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « أطِبْ مَطْعمك تكُنْ مُسْتجاب الدعوة » .

ثم ضمن الله للإنسان مُقوِّمات بقاء نوعه بالزواج لاستمرار الذرية لتستمر الخلافة في الأرض طاهرة نظيفة ، ثم تحدثتْ السورة مُحذِّرة إياكم أنْ تجترئوا على أعراض الناس ، أو ترْمُوا المحصنات ، أو تدخلوا البيوت دون استئذان ، حتى لاتطّلعوا على عورات الناس . . إلخ .

فالحق سبحانه وتعالى يريد سلامة المجتمع وسلامة الخلافة في الأرض ، وكل هذه الأحكام والمعاني تصبُّ في هذه الآية :

{ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض } [النور : 55] .

فمَنْ فعل ذلك كان أَهْلاً للخلافة عن الله ، إنها معركة ابتلاءات وتمحيص تُبيِّن الغَثَّ من السَّمين ، أَلاَ ترى المسلمين الأوائل كيف كانوا يُعذَّبون ويُضطهدون ، ولا يجرؤ أحد على حمايتهم حتى اضطروا للهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وقد قال تعالى : { أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا

آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } [العنكبوت : 2] .
وهؤلاء الصحابة هم الذي حملوا للدنيا مشاعلَ الهداية ، وساحوا بدعوة الله في أنحاء الأرض ، فلا بُدَّ أن يُربوا هذه التربية القاسية ، وأن يُمتحنوا كل هذا الامتحان ، وهم يعلمون جيداً ثمن هذه التضحية وينتظرون ثوابها من الله ، فأهل الحق يدفعون الثمن أولاً ، أما أهل المبادىء الباطلة فيقبضون الثمن أولاً قبل أنْ يتحركوا في اتجاه مبادئهم .

وهذا الابتلاء الذي عاشه المسلمون الأوائل هو من تنقية الخليفة ليكون أَهْلاً لها .
لذلك قال سبحانه : { وَعَدَ الله } [النور : 55] والوَعْد : بشارة بخير لم يَأْتِ زمنُه بعد ، حتى يستعد الناس بالوسيلة له ، وضِدّه الوعيد أو الإنذار بشرٍّ لم يأتِ زمنه بعد ، لتكون هناك فرصة للاحتياط وتلافي الوقوع في أسبابه .
وما دام الوعد من الله تعالى فهو صِدْق ، كما قال سبحانه : { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلاً } [النساء : 122] وقال سبحانه : { وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله } [التوبة : 111] .
والذي يفسد على الناس وعودهم ، ويجرُّ عليهم عدم الوفاء أن الإنسان مُتغيِّر بطَبْعه مُتقلِّب ، فقد يَعِد إنساناً بخير ثم يتغير قلبه عليه فلا يفي له بما وعد ، وقد يأتي زمن الوفاء فلا يقدر عليه ، أمّا الحق تبارك وتعالى فلا يتغير أبداً ، وهو سبحانه قادر على الوفاء بما وعد به ، فليست هناك قوة أخرى تمنعه ، فهو سبحانه واحد لا إله غيره؛ لذلك فوَعْده تعالى ناجز .
{ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات } [النور : 55] قلنا : إن الإيمان الذي يقوم على صفاء الينبوع والعقيدة ليس مطلوباً لذاته ، إنما لا بُدَّ أن تكون له ثمرة ، وأن يُرى أثره طاعة وتنفيذاً لأوامر الله ، فطالما آمنتَ بالله فنفِّذ ما يأمرك به ، وهناك من الناس مَنْ يفعل الخير ، لكن ليس من منطلق إيماني مثل المنافقين الذين قال الله فيهم : { قَالَتِ الأعراب آمَنَّا } [الحجرات : 14] فَردَّ الله عليهم : { قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا } [الحجرات : 14] يعني : خضعنا للأوامر ، لكن عن غير إيمان ، إذن : فقيمة الإيمان أن تُنفِّذ مطلوبه .
ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر } [العصر : 13] .
فبماذا وعد الله الذين آمنوا؟ { لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض } [النور : 55] وهذه ليست جديدة ، فقد سبقهم أسلافهم الأوائل { كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ } [النور : 55] ،
فاستخلاف الذين آمنوا ليس بدْعاً ، إنما هو أمر مُشاهد في مواكب الرسل والنبوة ومُشَاهد في المسلمين الأوائل من الصحابة الذين أُذوا وعُذِّبوا واضطهدوا وأُخْرِجوا من ديارهم وأولادهم وأموالهم ولم يُؤمَروا بردِّ العدوان .
حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قدم المدينة في جَمْع من صحابته استقبله الأنصار

بالحفاوة ، واحتضنوا هؤلاء المهاجرين ، وفعلوا معهم نموذجاً من الإيثار ليس له مثيل في تاريخ البشرية ، وهل هناك إيثار أعظم من أنْ يعرض الأنصاري زوجاته على المهاجر يقول : اختر إحداهما أُطلِّقها لك ، إلى هذه الدرجة فعل الإيمان بنفوس الأنصار .

ولما رأى كفار قريش ما صنعه الأنصار مع المهاجرين توقَّدوا ناراً : كيف يعيش المهاجرون في المدينة هذه العيشة الهنية وتكتلوا جميعاً ضد هذا الدين ليضربوه عن قَوْس واحدة ، وتآمروا على القدوة ليقضوا على هذا الدين الوليد الذي يشكل أعظم الخطر عليهم .